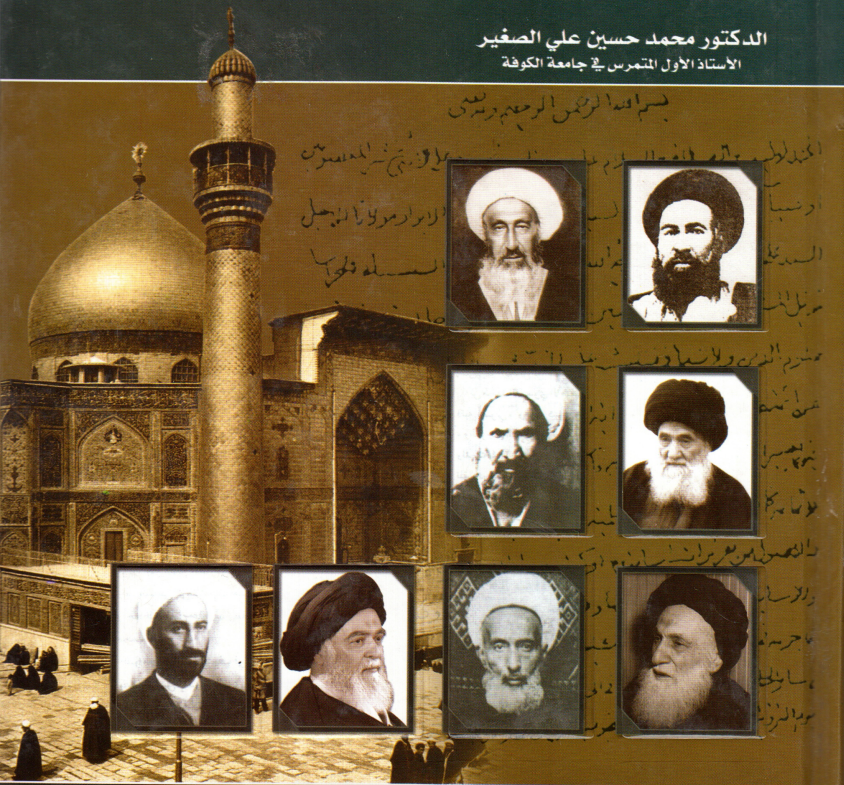


قادة الفكر الديني والسياسي

في النجف الأشرف

الدكتور محمد حسين علي الصغير
الاستاذ الأول المتمرس في جامعة الكوفة



دار سبلوئي

مؤسسة البتاني



قَادَةُ لِفِكْرِ الدِّينِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ فِي مَجَالِ النَّجْفِ الْأَشْرَفِ

الدكتور محمد حسين علي الصغير
الأستاذ الأول المتمرس في جامعة الكوفة



مُؤَسَّسَةُ الْبَلَاغِ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

مؤسسة البلاغ
للطباعة والنشر والتوزيع



بنر العبد - مدخل مدرسة حارة حريك الرسمية الثانية - بناية فوعاني - الطابق الأول
ص.ب: ١١ - ٧٩٥٢ بيروت ١١٠٧-٢٢٥٠ - هاتف: (٠٣/٥١٤٩٠٥) - فاكس: ٠١/٥٥٣١١٩ - لبنان

الموقع الإلكتروني : www.albalagh-cst.com

E-mail : Albalagh-est@hotmail.com

المقدمة

حينما تنهار الموضوعية وتتحكم العواطف؛ ينحدرُ التأريخُ في هَوِّةٍ تركّز به إلى الوراء في وقائع لم تكن، وأحداث لم تقع، وصور مرمجة لا أصل لها، لكنها تمثل واقع الترميم السياسي في أحاديث من خلق السلطان، وعندها يتردد الكاتب الموضوعي في متاهة من الاحباط والألم النفسي، وهو يرى الافتراء مضماراً لصنع المواهب والبطولات في سبيل من الهراء في التقويم وتوثيق الرجاء، وتلك صدمة طالما صُكِّ بها جبين الدهر، وعليه أن يتجاوز هذا الاعتداء الصارخ وهو يدوّن بأمانة ذكريات معبّرة، ويستكشف رؤية ناطقة في متابعة الأحداث ومشاهدة الحال، بما في ذلك دراسة المناخ العلمي والسياسي والاجتماعي في لهجة صادقة يمكن أن يحوّل عنها النقاد في تحليل مستجدات التأريخ، ذلك باعتبارها مصدراً أصلياً في وثائقية التدوين لمن يريد الإفادة أو الاقتباس، أو تلبية رغبته في الاطلاع والازدياد، والأيدي الأمانة وحدها هي التي تكتب التأريخ ناصعاً بعيداً عن الضبابية والتزوير، وهذا ما تجده في هذه الدراسة شكلاً ومضموناً.

والنجف الأشرف مريض أمير المؤمنين الإمام العظيم علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ومقر المرجعية العليا للمسلمين منذ ألف عام، وحاضرة العلم والأدب منذ تأسيسها حتى اليوم، وقد أحطت خيراً بلمسات نابضة من حياة بعض أعلامها وقادتها وأبطالها الأشاوس، وتابعت في رؤية منهجية مصدر

العطاء الثرّ في حنايا أولئك الرموز، فالتقطتها من منابع الوعي الحضاري المتأصل في التركيب الإنساني، وأدركت ما عليه كوكبة من قادة الفكر الديني والسياسي في النضج والانفتاح حيناً، وفي الراديكالية والثورية حيناً آخر، وما بينهما من حب الخير للآخرين، وتهيئة الأسباب لإسعادهم وتحقيق آمالهم في المواطنة والحياة الحرّة الكريمة، رائدهم الإيثار والتضحية ونبيل الهدف في تطوير الحياة، وإزجاء النصح الموجّه، وتيسير العلم النافع، وتوفير الإنعاش الاقتصادي ما استطاعوا إلى ذلك كلّه سبيلاً.

وسأحاول الآن - كما وعدت - وفي مستقبل الأيام أن تستوعب دراساتي أكبر عدد ممكن ممن سمعته عنه وكأني أراه من الراحلين، وممن رأيتهم وكأني أقرؤه، وممن قرأته وكأني ألمسه، وممن أعرفه وكأني أدركه من المعاصرين.

وسأختار المع الصفات عنواناً للحديث عن كل رجل، لأكتب عنه وحده، وقد أشركُ معه غيره استدراجاً وارتباطاً منهجياً.

وكان نصيب هذه الحلقة من قادة الفكر الديني والسياسي في النجف الأشرف:

- ١- السيد محمد سعيد الحبوبي ... قائداً.
 - ٢- الشيخ محمد جواد البلاغي ... مُنظراً.
 - ٣- الشيخ محمد الحسين الغروي النائيني ... رائداً.
 - ٤- الشيخ عبد الكريم الجزائري ... مجاهداً.
 - ٥- السيد حسين الموسوي الحَمّامي ... حوزوياً.
 - ٦- السيد عبد الله الموسوي الشيرازي ... جريئاً.
 - ٧- السيد محمد الحسيني الشيرازي ... موضوعياً.
 - ٨- الشيخ محمد رضا الشبيبي ... وطنياً.
- وهذه السمات في العنوان هي ألصق الخصائص بمؤلاء القادة.

وقد جاء هذا البحث امتداداً لكتابنا (أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف، وقد اشتمل على سيرة خمسة من مراجع الأمة، حاولت بالحديث عنهم استقراء حياتهم، وآثار قيادتهم، والاقتراب من نضالهم بعرض جديد ومنظور مرسل، وهم:

- ١- الشيخ محمد رضا آل ياسين... قديساً.
- ٢- السيد محسن الطباطبائي الحكيم... زعيماً.
- ٣- الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء... داعيةً.
- ٤- السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي... أستاذاً.
- ٥- السيد علي الحسيني السيستاني... مرجعاً.

ولدى صدور الكتاب ما لبث أن نفذ، فزوّرتُ طبعة ثانية له في بغداد بحذف العلمين: آل ياسين، وآل كاشف الغطاء... وزوّرتُ طبعة ثالثة في كربلاء بإضافة علمين بدلها، لم أكتب عنهما، وما ثبت في الكتاب المزور، وقد صدر باسمي لستُ مسؤولاً عنه، فهو بقلم غيري، ويكفي في معرفة تزويره تغيير عنوانه... وكان العنوان في هذه الطبعة (علماء النجف الأشرف المعاصرين)؟؟؟ ولو أن الكتاب قد زوّرتُ طبعته على ما اشتمل عليه في كُتبتُهُ الأولى لما تملكني الألم والكمد، ولكنه زورّ مرتين مع التشويه.

ولا يعني ما كتبه في هذه الحلقة اقتصار قادة الفكر عليهم، فهناك آخرون سأتكلم عنهم مستقبلاً بعون الله تعالى.

إن الثبات والاستقامة لهما ثمنٌ يدفع وضرية تستقطع، فقد كابدت من خلال هذا التوجه في الإخلاص لمبادئ النجف الكبرى عقبات وصدمات كأن أهونها: الاعتقال حيناً، والتغريب حيناً آخر، والمحاكمة غيرهما، وتعطيل الدور العلمي الذي نهضت به في الجامعة الموقرة، والمجمع العلمي العراقي الذي

رشحت له ثلاث مرات، فرفضت الجهات العليا هذا الترشح، وما اكتفت عناصر القصر الجمهوري بذلك، فتوّجت حقدتها الدفين بفصلي من الجامعة تارة، وبالإحالة على التقاعد تارة أخرى.

وقد عانيت كثيراً من الأمراض والأعراض، وقاسيت الفقر والحرمان والاضطهاد طويلاً، ولازمت من الضغط السياسي والإرهاب وتهديد أجهزة الأمن والمخابرات ما يعلم به الله وحده.

ولكنني كنت صابراً مُحْتَسِباً ثابتاً، لم أحزن على شيء، ولم أطمع بشيء مع توافر الإغراءات بالمناصب الزائلة سياسية وعلمية وجامعية، واستعضت عن كل ذلك بالبحث والتجديد والمثابرة، وإعطاء كل ذي حق حقه، وخلق جيل متحفز واع ينهض بمسؤوليته العلمية لدى استخلافه في أروقة الجامعة والدولة.

ومهما يكن من أمر، فإن الكمال متعذر في مثل هذه الدراسة، وأملني أن يكون عملي خالصاً لوجهه الكريم في قربة مطلقة لا تداخلها ضمائم أخرى، على أن الضمائم لا تنافي القربات في منظور شرعي، أرجو أن يجعله الله تعالى في الموازين الراجحة عند الحساب.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وما توفيقى إلا بالله العلي العظيم، عليه توكلت وإليه أنيب، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

محمد حسين علي الصغير

النجف الأشرف / جامعة الكوفة



السيد محمد سعيد الحبوبي .. قائداً^(١)

في الرابع عشر من جمادى الثانية عام ١٢٦٦هـ = ٢٠/شباط/١٨٤٩م، ولد هذا الكوكب السيار السيد محمد سعيد بن السيد محمود بن السيد قاسم بن السيد كاظم بن حمزة بن مصطفى بن جمال الدين الحبوبي النجفي^(٢). من أكابر علماء النجف الأشرف، وأبرز شعراء القرن الثالث عشر الهجري، وبطل الجهاد ضد الاحتلال الانكليزي للعراق.

النشأة:

نشأ السيد الحبوبي في النجف الأشرف نشأة ترف وثراء، وترعرع في ربوعها بعزة نفس وبسطة حال، تدرّ عليه مزارع أبيه بالقرب من الكوفة والمسيب رزقاً حسناً، وتوفر له خيراً كثيراً^(٣). وبدأ السيد الحبوبي في هذا المناخ الغني مسيرته العلمية المباركة، واشتهر بملكاته الأدبية في وقت مبكر.

وكانت رغبة والده تدفع به نحو العلم، ورغبة خاله الشاعر الشيخ عباس الأعسم تدفع به نحو الشعر، فحقق الرغبتين معاً، ودرس فنون الأدب وعلوم

(١) البحث في الأصل محاضرة عن المُترجم له القيت في الندوة المتخصصة لذكرى وفاته الثمانينية التي اقامها مركز دراسات الكوفة مع اتحاد أدباء النجف الأشرف وجامعة الكوفة، وقد عُقدت الندوة صباح الجمعة ١١/شعبان/ ١٤١٨ = ١٢/١٢/١٩٩٧م في القاعة الكبرى لجامعة الكوفة في النجف الأشرف ولدى تطوير البحث نشرناه هنا.

(٢) ظ: محمد حرز الدين/ معارف الرجال ٢/ ١٩١ + مقدمة ديوان الحبوبي/ ٢٢.

(٣) ظ: عبدالغفار الحبوبي/ مقدمة ديوان الحبوبي/ ٢٢.

العربية، وهو في سن الخامسة عشرة من عمره حين رحل إلى نجد حيناً لوالده المتاجر هناك. وكان لهذه السفرة أثرها العقلي في تأصيل كيانه، وبدوية شعره، وعربية تفكيره، وحجازية آدابه.

يقول الأستاذ عبد الغفار الحبوبي:

«رأى الصحراء واسعة، عامرة بالمشاهد من فجاج القوافل، وكنبات الرمال، وعيون الماء، وسيول الأودية، وقطعان الظباء، سائحة أو بارحة، وأسراب الطير، وامتلاً سمعه بمجدهاء (حادي العيس) في صمت الغلاة العميق، ورعاء الإبل، وأصوات الركب تناديهم، وتنسم النسيمات العليلية المعطرة بشذى الشيخ والقيصوم والعراء، فأخذ بتلك المشاهد البدوية، فأعطاها من نفسه وإحساسه ما أعطاهها، حتى انطبعت آثارها فيهما، فإذا به بدوي العاطفة والخيال، حضري الملامح والسيما»^(١).

وهذا التقرير تعبير دقيق عن واقع السيد الحبوبي في شمائله ومخائله، وتصوير في لمشاهداته الميدانية، فيه الصدق وفيه الموضوعية المحضة.

الحبوبي شاعراً:

وكانت بيئة النجف الأدبية ضاربة بأطنابها في صحراء النجف بين بادية السماوة، وبادية الشام، وبادية نجد، وفي ظلال هذه البداوة الشاملة، نشأ الشعر النجفي متبرعماً، وفي ضوء التلاحق الثقافي بين المهاجرين إليه، وبين القاطنين به أشرق شعاعه المتوهج، وفي أحضان الثقافة العلمية المتنورة اكتسب أصالة وجدة وبلاغة، وفي ملامح هذا الأفق العام تفاعل مثقفو النجف في وحدة الأدب العربي بدويّة وأندلسيّة وعراقيّة، فكان العلماءُ شعراً، والشعراء علماء، ومن هنا تأثر الحبوبي بهذا المناخ الحافل، وبدأ قرص الشعر وعمره تسعة عشر عاماً، وبرز فيه بروزاً لامعاً، وتمرس به روحاً من الزمن حتى عدّ من فحول شعراء عصره، بل هو في طليعتهم إن لم نقل أنه أبرزهم على الإطلاق.

(١) عبد الغفار الحبوبي / مقدمة ديوان الحبوبي/ ٢٦.

قلنا في بحث سابق:

«وكان الشاعر المرزّ في هذه الحقبة -أواخر القرن الثالث عشر الهجري- هو السيد محمد سعيد الحبوبي النحفي، بما أبدع من شعر سائر، وما قدّم من موشحات امتازت بالجودة والجدّة والعفة، فقد ابتعدت عن تقليدية القدم، وقاربت المعطيات الجديدة، فيها أصالة التراث لعرب الأندلس، وفيها رواء الحدائث، وهذا شأن كل ما هو أصيل ومبتكر، سيما إذا جمع إلى صدق العاطفة: رهافة الحسّ وعضوبة الموسيقى»^(١).

وكان السيد الحبوبي في شعره يمثل قفزة خلاقة في الإحساس، ومسيرة جديدة في الأفكار والأساليب والموضوعات، حتى عدّه الأستاذ عبد الكريم الدجيلي: رائد الشعر الحديث^(٢).

وقارنه الدكتور محمد مهدي البصير بالشريف الرضوي (ت ٤٠٦هـ) «لأنهما يتشابهان تشابهاً قوياً، ويتقاربان في شؤون أدبية ومادّية تقارباً عجيباً، فكلاهما شاعر فحل، وكلاهما مترفّع عن التكسّب بالشعر ترفعاً تاماً»^(٣).

ويقول شاعر العرب الأكبر الأستاذ محمد مهدي الجواهري (ت: ١٩٩٧م/ ١٤١٨هـ): «والسيد الحبوبي كان اسمه يرَجّ المجالس وال نوادي، وفي الحقيقة هو صاحب المدرسة الوحيدة التي نشأتُ عليها»^(٤).

واستمرت رحلة الحبوبي مع الشعر قرابة ربع قرن من الزمان، وامتاز بتجديد فن التوشيح الأندلسي، كما برع وأبدع في الشعر العمودي، وتناول شتى الأغراض والفنون فيهما، لاسيما الغزل والوجدانيات والمديح والرتاء. وهو بهما مجيد إجادة متميزة، ومتمكن تمكناً عجيباً.

(١) محمد حسين علي الصغير / مقدمة في الشعر النحفي / الذكوات / العدد ١ / ص ٦.

(٢) عبد الكريم الدجيلي / محاضرات عن الشعر العراقي / المقدمة.

(٣) محمد مهدي البصير / نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر / ١٥.

(٤) ظ: ديوان الحبوبي / المقدمة / نقلاً عن مجلة الديار اللبنانية / عدد ٢١ / ١٩٣٠م.

نموذج من موشحاته:

وموشحات الحبوبي مطوّلة في أغلب مقاطعها، وقد اخترت جزءاً كبيراً من إحدى هذه الموشحات، كما أثبتتها وعلّق عليها محقق ديوانه، وهي تعبر عن منهج مدرسته في هذا الفن (الديوان/ ١٥٧-١٦١)^(١).

«هاج برق السعد قمري الهنا»

(الرمّل)

هاج برق السعد قُمري الهنا فتغنى هزجاً في هَـزج^(٢)
وسرت باليمن من روض المني نسمة هبّت بطيب الأرج^(٣)

(١)

وحمام البشر غنى، وتلا سيرّ اللهو بنادي الطرب^(٤)
قد رقى منبر بانٍ واعتلى في مروج (كمروج الذهب)^(٥)
فهو لا ينفك يُملي للملا أعنقت بالحزن عنقا مغرب^(٦)
بغناً ناهيك فيه من غنا خمرة اللهو به لم تُمزج^(٧)
أترى (معبد) ألقى (المدنا) لحمام السقط والمنعرج^(٨)

(١) مظانها: خ، دق/١٧، ع/٣٢.

غرضها: هنا بها أستاذه الشيخ موسى شرارة (انظر التعريف به في ملحق الأعلام) بمناسبة زواجه، وصاغها على طريقة موشحة (ابن سهل الأندلسي): (هل درى ظبي الحمى أن قد حمى). ولدينا أصلها بخط الشاعر، وعليه اعتمدنا.

(٢) هاج: ثار، و(هاجه) غيره، كذلك. القمري: نوع من الحمام. الهزج: الغناء.

(٣) اليمن: البركة. الأرج: رائحة الطيب.

(٤) السير: جمع (السيرة) وهي القصة والتاريخ.

(٥) البان: شجر معروف باعتدال ساقه. مروج الذهب: كتاب في التاريخ للمسعودي.

(٦) أعنقت: سارت سريعاً. العنقاء المغرب: طائر خرافي. و(أعنقت بالحزن عنقا مغرب) كناية عن انعدام الحزن.

(٧) ناهيك به من...: حسبك، يكفيك.

(٨) معبد: هو معبد بن وهب الذي اشتهر، قديماً، بالغناء، المدن: الطرق الفنائية الخمس التي اخترعها (معبد). السقط: الرمل الكثير. المنعرج: المنعطف.

(٢)

فترى فيها الفضا لما ارتدى
يرقصُ القطر زفوناً إذ غدا
وترى الآكام في قطر الندى
وترى فيه الرواسي سفنا
وسبحت ماخرةً في لجج^(٤)
ثانياً بُرئنه لم يعج^(٥)
وله من لامع البرق شنوف^(١)
يضرب الرعد بجنبه دفوف^(٢)
ظهرت في مدة مثل الحروف^(٣)

(٣)

وترى منتظم الطل السقيط
والصبا قد حملت عرف الخليط
فصلت هذي، وذيالك يجيظ
إذ حدا الرعد يسوق المزنأ
ودعا، عند محاني المنحنى:
فيه بطن الوادين اتشحا^(١)
ولذا كانت لقلي أروحا^(٧)
مطرف الزهر فيكسو الأبطحا^(٨)
مثقلاتٍ كالظعين المدلج^(٩)
يا ربوع ابشري وابتهجي^(١٠)

(١) الشنوف: جمع الشنف وهو القرط.

(٢) القطر: المطر. الزفون: نوع من الرقص. وفي دق (زفوناً).

(٣) الآكام: التلال والروابي. ظهرت: في دق (زهرت)، وفي ع (أظهرت).

(٤) مخرت (السفينة): جرت تشق الماء. اللجج: جمع اللجة وهي معظم الماء.

(٥) الضب: حيوان زاحف معقد الذنب، يؤم: يقصد. البرثن (للسباع والطيور) كالأصابع

للإنسان - لم يعج: لم يقم.

(٦) الطل: المطر الضعيف.

(٧) الصبا: الريح الشرقية. العرف: الرائحة. الخليط: المخالط. ولذا: في ع. (فلذا). أروح: تمنعشة.

(٨) هذي: إشارة إلى الصبا. ذيالك: إشارة إلى الطل. المطرف: الرداء. الأبطح: مسيل

واسع فيه دقاق الحصى.

(٩) المزنأ: السحابة. الظمين: يريد (الظمينة) وهي الهودج وفيه امرأة أم ليس فيه.

(١٠) المحاني: المنطفات.

(٤)

عارض الوسميِّ كم قد روضا وجه وهدي، وكثيب أو عس^(١)
فكان الماء لما غيضا (قيل: يا أرض ابلعي) ثم اكتسي^(٢)
والبسي أخضر لكن فضضا بالأقاحي، فهو أسنى ملبس^(٣)
ألحمت آساً، وسدت سوسناً يد أزهار الربيع الأهج^(٤)
ثم حاكته تباهي (اليمنا) هكذا، (صنعاء) أو لا تنسجي^(٥)

(٥)

دولة للزهر ترتاح النفوس في تجليها، وفي أطوارها^(٦)
أرغمت كرتها أنف (المجوس) إذ تجلى الماء في أزهارها^(٧)
كم ترى نجماً، ولكن الشمسوس ليس يخفيه سنا أنوارها^(٨)
وترى وشياً يروق الأعينا يرقص الأغصان رقص الغنج^(٩)
والشقيق الغض يصبي الغصنا إذ بدا في خدّه المنفرج^(١٠)

(١) العارض: السحاب. الوسمي: مطر الربيع. روض: جملة روضة. الوهدة: المكان المظمن. الأوعس: المكان الرمل.

(٢) فكان: في دق، ع (وكان). غييض: من (غاض) اللازم، وعدي بالتشديد. وغاض الماء بمعنى قل ونضب. (قيل يا أرض ابلعي) اقتباس من القرآن الكريم.

(٣) الأقاحي: جمع (الأقحوانة) وهو نبت ذو ورق أبيض ووسطه أصفر.

(٤) ألحمت: من (للحمة) وهي خيوط النسيج العرضية، وعكسها (سدت). الأس: نبت دائم الخضرة ذو زهر أبيض. السوسن: نبت كبير الأزهار.

(٥) صنعاء: يا صنعاء. وقديماً عرفت (صنعاء) بزخارف نسيجها.

(٦) تجليها: تكشفها في زينتها.

(٧) كرتها: عودتها مرة بعد أخرى. المجوس: عبدة النار من أتباع (زرادشت). وقوته (أرغمت كرتها أنف المجوس) كناية عن سجدتهم لها، لأن من عقائد الزرادشتية أن الماء والهواء والنار والتراب عناصر مقدسة. والبيت يكشف عن ثقافة الشاعر في المعلومات التاريخية العامة.

(٨) النجم: النبات الذي لايقوم على ساق. يخفيه: في دق (تخفيه). السنا: الضوء.

(٩) الوشي: النقش. الفنج: التدلل.

(٦)

والثريا مثل كف بضية^(١) للذجي أومت فلباها الفسق^(٢)
 أو كعقودٍ بدا من فضية^(٣) قد جلاه الأفق، فالأفق طبق^(٤)
 وسهيلٌ خدَّ خود غضة^(٥) لُثمت، فاحمر منها، وخفق^(٦)
 أو كقلبٍ بالملاح افتتنا^(٧) فهو خفاقٌ، كثير الوهج^(٨)
 بات يترؤ مستطيراً، شجنا^(٩) إذ أتى الليل بظل سجسج^(١٠)

(٧)

وأتانا، بعد صد ونفار^(١) واصلاً حيلي به، من قطعاً^(٢)
 زار ليلاً، فغدا الليل نهار^(٣) قمرٌ في أفق شعرٍ طلعا
 كلما حطَّ عن الثغر الخمار^(٤) شيم برق بالثايا لمعا^(٥)
 فارتجينا غيث أنس هتنا^(٦) يرتوي منه أوام المرتجي^(٧)
 وقرعنا ثم أبواب الهنا^(٨) ففتحنا كل باب مرتج^(٩)

(١) الشقيق: الورد الأحمر. يصبي: يستهوي. وفي دق (يسبي). المنضرج: المحمر.

(٢) الثريا: مجموعة نجوم. الفسق: ظلمة أول الليل.

(٣) جلاه: في دق، ع(جلاها).

(٤) سهيل: نجم محمر خافق. الخود: الشابة.

(٥) بالملاح: في ع (في الملاح). الوهج: حر النار.

(٦) يترؤ: يضطرب. المستطير: الهائج. لقد وقع التتوين من (مستطيراً) في (خ). الشجن:

الحزين. السجسج: لا حر فيه ولا برد.

(٧) وأتانا: في دق، ع (وتداني)، واصلاً حيلي به: كناية عن اللقاء بعد الصدود.

(٨) الخمار: غطاء تغطي به المرأة رأسها. شيم: مجهول (شام) بمعنى نظر البرق أين

تخطر سحابته. الثايا: الأسنان الأمامية. لمعا: في دق (طلعا).

(٩) الهتن: المتساقط. منه: في دق، ع (فيه). الأوام: شدة العطش.

(١٠) ثم: هناك. مرتج: مفلق. ب/ غير مذكور في دق، ومكانه:

(٨)

وغدا البدر إليه يستشيط
 أنحجلَ البدرَ، فذا الطل السقيط
 ولئن سَحَّ على وجه البسيط
 وهو لو أنصفه كان (دنا)
 أم رأى القرط يؤدُّ الأذنا
 ورأى الساق بحجل حرج^(٥)
 رام أن يفضحه، فافتضحا^(١)
 عَرَّقَ من وجهه قد رَشحا^(٢)
 فبمنديلِ الدجى قد مَسحا^(٣)
 وتدلَى في مكانِ الدَمَلجِ^(٤)

(٩)

ونديمي في أوانيه سعى
 وفرَّ البذل علينا إذ رعى
 طافَ بالصغرى وبالكبرى معا
 فهو لي بشرى بإنتاج المني
 جابراً صدعيَّ فيه مذ دنا
 ذو بنانٍ راقٍ في تطريفه^(١)
 عهده، فأزورَّ من تطفيفه^(٧)
 مُعجِبُ الصنعة في تأليفه^(٨)
 إذ سعى نحوي بشكل منتج^(٩)
 يصدع الليل بوجهٍ أبلج^(١٠)

(١) استشاط: النهب غضبا.

(٢) السقيط: المتساقط.

(٣) البسيط: البسيطة (الأرض).

(٤) دنا وتدلَى: اقتباس من القرآن الكريم. الدمج: المعضد.

(٥) يؤدُّ (الأذن) يقلل عليها. حرج: ضيق. يأتي هذا المقطع في (دق) بعد المقطع العاشر، وفي (ع) بعد الحادي عشر.

(٦) النديم: الرفيق في الشراب. ذو: في دق، ع (ذا) على تقديره حالا، لا خبرا لمبتدا محذوف. البنان: أطراف الأصابع. التطريف: الخضاب بالحناء.

(٧) وفر البذل: سخا بالسقي. وفي دق، ع (وسع البذل). أزور: أعرض. التطفيف: تنقيص الكيل. يريد الشاعر أن النديم لم ينقص الكأس.

(٨) الصغرى والكبرى: الكأس الصغرى، والكأس الكبرى. معجب الصنعة: متقن الصنعة. تأليفه: تشكيل الكأس.

(٩) إنتاج المني: تحقيقها. بشكل منتج: بهيئة سارة تحقق الأمانى.

(١٠) الجبر: إصلاح العظم من كسر. الصدع: الكسر. يصدع: يشق. لم يرد هذا البيت في دق بل ورد مكانه (وهو خطأ مطبعي على ما أظن):

وقرعنا ثم أبواب الهنا ففتحننا كل باب مرتج

(١٠)

- وأباريقَ إذا ما عَرَبَدتْ
 وأشرفتْ أكؤسها بين الرياض^(١)
 بابنة الكرم علينا قد بدت
 فافتضضنا ختمها لا عن تراض^(٢)
 زُوِّجت من غير عقدٍ فغدت
 تنتجُ اللؤلؤ من غير مخاض^(٣)
 فانجلت أفرأخُ درِّ بيننا
 حضنتها كفُّ ذات الدمليج^(٤)
 أمها من فرع كرم تجتني
 وأبوها من نطاف الحشرج^(٥)

* * *

(١) وأباريق: في دق، ع (من أباريق).

(٢) افتضضنا: كسرنا. وفي دق، ع (فضضنا).

(٣) المخاض: وجع الولادة.

(٤) فانجلت: انكشفت. في دق، ع (ولدت). ذات الدمليج: ذات المعضد (المرأة).

(٥) النطاف: جمع (النطفة) وهي الماء الصافي. الحشرج: الكوز يبرد فيه الماء، أو النقرة

في الجبل يصفو فيها الماء. ب/ غير مذكور في دق. ومكانه:

إذ غدا يحسو رضاها وجنى من شايبا شعشعت بالبلج

نماذج من شعره:

واخترتُ للبحث قصيدتين من قصائد السيد الحبوبي السائرة، الأولى في الغزل والنسيب والتهنئة، والثانية في الرثاء، وهما يمثلان ذروة الشعر العربي الأصيل في قوة الديباجة، وصدق العاطفة، ورقة الأسلوب، وجمال التعبير، وأثبتهما كما هما وبما علق عليهما محقق الديوان.

(١)

«طرزٌ خديك العذاران»^(١)

(السريع)

طرزٌ خديك العذاران	طرزٌ خديك العذاران
خداك من وردٍ، ومن نرجسٍ	خداك من وردٍ، ومن نرجسٍ
مرائرُ العشاق شققَتْها	مرائرُ العشاق شققَتْها
لو كنتَ في دار (كمصر)، وفي	لو كنتَ في دار (كمصر)، وفي
ما كنتَ إلا (يوسفاً) يا رشا	ما كنتَ إلا (يوسفاً) يا رشا
أغيد كالدمية، أقراطهُ	أغيد كالدمية، أقراطهُ
يا من رأى في الأرض بدرَ السما	يا من رأى في الأرض بدرَ السما
جال فؤادي إن مشى مثلما	جال فؤادي إن مشى مثلما
وافى وقد شعَّ صباح الدجى—	وافى وقد شعَّ صباح الدجى—

(١) مظانها: دق/ ١٢٣، ع/ ٢٦.

غرضها:

هنا بها السيد جعفر بن السيد حسين زوين بقران ولده (عبد الحسين)، ويذكر فيها أخاه (علياً) وابن عمه (الهادي).

(٢) العذار: الشعر الثابت في الوجه حديثاً.

(٣) البان: شجر معتدل الساق.

(٤) كتمان: اسم مكان.

(٥) الأغيد: الناعم.

(٦) وافى: أقبل.

طافَ ومن فيه، ومن كفه
 وزهوهُ اللهو استطارت به
 يروح مرتاحاً، وأيدي الصبا
 والراحُ، في راحتِه، شعلةٌ
 خففَ طبعي شرها مثلما

* * *

يا لائمي، اليومَ، في جبهِ
 هاموا هيامي فيك لو أنهم
 لكن تجليت فأعشيتهم
 لولاك لم أهجر لذيد الكرى
 والله لا أسلوك يوماً، ولا
 روحي في روحك ممزوجة
 حتى كأني، منك، في وحدة
 أصبحتُ، من حبك، في جنّةٍ
 ومن حصي حصائها راقني

* * *

هل شاقك الحي الذي شاقني
 يشتهه البان بقاماتهم
 أهواهم، لم أهو إلا هم

(١) فيه: فمه.

(٢) استطارت به: رقصته.

(٣) تجليت: ظهرت. أعشيتهم: جعلتهم لا يبصرون.

(٤) نعمان: واد يريد به بلدة (الحيرة) حيث يقيم (آل زوين).

(٥) الجثمان: الجسم، الشخص.

كاسان للنادي، وحميران^(١) [١٠]
 نعمة أوتار، وألحان^(٢)
 تهُزُّهُ هَزُّةٌ جَذلانِ
 تُوْجِحُ الليلَ بنيرانِ
 دبيها تَقْلُ أجفاني

مهلاً، فما شأنكما شاني [١٥]
 قد عرفوا معنك عرفاني
 بفرطِ أنوار، ونيران^(٣)
 ولم أهوّن هجرَ أوطاني
 أملكُ لو حاولتِ سلواني
 ورمما تمزج روحانِ [٢٠]
 لو صح أن يتحد اثنانِ
 تبهج في حور وولدانِ
 ما راقَ من درُ ومرجانِ

حلواً بأعلى رمل (نُعمان)^(٤)
 مثل اشتباه البان باليان [٢٥]
 هوى تلاشى فيه جثمان^(٥)

وأَن نَأُوا كَابَدْتُ أَحْزَانِي
 كَلَا، وَلَا الْجِيرَانَ جِيرَانِي^(١)
 (عبد الحسين) المجد أرضاني
 الْبِيضَاءُ فِي جَبْهَةِ (عَدْنَانِ)^(٢) [٣٠]
 وَالغَرَمِ مِنْ شَيْبٍ وَشَبَانِ^(٣)
 تَنْبُتُ فِي هَامَةِ (كَيَوَانَ)^(٤)
 عَاقِدَةٌ أَصْدَقَ إِيمَانِ
 لَا مِبْطِئًا رِثْيَا، وَلَا وَايِ
 وَالْكَتَبُ تُسْتَقْصَى بِعَنْوَانِ [٣٥]
 وَالنَّوْرُ قَبْلَ الثَّمْرِ الدَّانِي^(٥)
 لِلظَّهْرِ يَنْمِيهَا الْكَرِيمَانَ
 وَيَحْكُ (بَلْقَيْسِ سَلِيمَانَ)
 أَرْبَعَةَ سُورَةَ قُرْآنِ^(٦)

أفرح أن يدنُ أهيل (الحمى)
 لا الدار داري (بعقيق) الحمى
 أغضبني فيهم زماني، وفي
 أبيض في (هاشم) كالغرّة
 (لشيبه) الحمد و(عمرو) العلى
 فرغُ نما من أصل جرثومة
 مخايلُ المجد به بشرتُ
 أن سوف يرقى درجاتِ العلى
 من يره يعرف ذرى مجده
 والفجر قبل الشمس مُستقدّم
 زفّت إليه خير مزفوفة
 أهي (زليخا يوسف)؟ لا، ولا
 لا، بل سليل الوحي زفّت إلى

* * *

تلفُ غيطاناً بغيطانِ^(٧) [٤٠]
 فِي دَوْهَا إِجْفَالِ ظَلْمَانَ^(٨)

يا راکبَ الوجناء زيافة
 عنسٌ كتيس القاع جفالة

(١) العقيق: الوادي.

(٢) هاشم: قبيلة.

(٣) شيبه الحمد: عبد المطلب بن هاشم. عمرو: أبو سلمى الخزرجية أم عبد المطلب.

(٤) كيوان: زحل.

(٥) النور: الزهر الأبيض.

(٦) سليل الوحي: ابن الوحي، وهو كناية عن نسبة الهاشمي. الأربع: المنازل.

(٧) الوجناء: الناقة الضخمة. الزيافة: المختالة في مشيها. الغيطان: الأرض الواسعة.

(٨) العنس: الناقة القوية. الجفالة: الصلبة. الدو: المفازة. الأجفال: النصور، الهرب.

الظلمان: جمع (الظليم) وهو ذكر النعامة. وفي دق (كلمان).

تطوي الدياميم بأحفافها
 عرج على (يثرَب) واحبس بها
 مسلماً أعظَمَ تسليمة
 (أحمد) من صلى عليك السما
 وهنَّ في فرحةِ أبنائه
 طياً كمنشورة قمصان^(١)
 والتثم الترب بأجفان
 على عظيم القدر والشان
 عليه، واختص برضوان [٤٥]
 مقامه، واسجع بالحنان

* * *

فيا (عليّ) القدر، يا حائزاً
 السابق الأول أنت الفتي
 تفاوت السن تفاوتما
 يا (جعفر) الفضل، وبحر الندى
 أنحفت، في سيبك، كل الورى
 بلى، و(بالهادي) اهتدت للعلی
 يهوي قرى الضيف ولو لم يجد
 فتى كغصن البان حتى إذا
 أخف من طبع الصبا طبعه
 لا تك محتجاً على فضله
 رهن العلى في كل ميدان
 و(جعفر) لا حقلك الثاني
 وأتما في المجد سيان
 كفاك للوافد بحران^(٢) [٥٠]
 جنسين: من إنسٍ ومن جانٍ
 وللندى مقلّة حيرانٍ
 ضيفاً لقاسى وحدَ وهان^(٣)
 صالَ فمن آسادِ خُفّان^(٤)
 وحلمه أخشبُ (ثهلان)^(٥) [٥٥]
 ما احتاجت الشمس لرهانٍ

* * *

أولئك القوم بحور الندى
 يجلون للقاصي وللداني

(١) الدياميم: جمع (الديمومة) وهي المفازة.

(٢) الجعفر: النهر.

(٣) قرى الضيف: إكرامه.

(٤) خفان: مكان تكثر فيه الأسود.

(٥) الأخشب: الجبل العظيم. ثهلان: اسم جبل.

رَفَّ الرَّجَا حَوْلَ عَطَايَاهُمْ رَفِيفَ عَشْبٍ حَوْلَ غَدْرَانِ^(١)
 بنوا، وأعلوا بيت أكرومة والكل من مُغَلٍ ومن باني
 عذراً لكم إن مزاياكم لم يُحصها محص بتيان [٦٠]
 والشهب من حاول تعدادها حاولها من غير إمكان
 كم من جديد العيش في عِزَّة تدوم ما كراً الجديدان
 وأعتقد أن محقق الديوان قد وهم في بداية البيت الأخير من هذه القصيدة
 الرائعة، فأثبت «كم من جديد» والأصح لاستقامة المعنى والسياق «لكم جديد
 العيش.. الخ».

(٢)

نزعتك من يدها (قريش) صقيلاً^(٢)

(الكامل)

نزعتك من يدها (قريش) صقيلاً وطوتك فذأ، بل طوتك قبيلاً^(٣)
 فُجِعْتَ بِفَقْدِكَ وَاحِداً، فَكَأَنَّمَا فجعت (بآل النضر) جيلاً جليلاً^(٤)
 وتذكرت، في يوم فقدك، فقدها (مضراً) فأوصلت العويل عويلاً^(٥)
 وغدت تطوفُ خلال نعشك ولهاً وأتت على أعواده تقبيلاً
 بكر النعي لها بواشج أصلها فلتبك يومك بكرة وأصيلاً^(٦) [٥]
 أكسبتها العز الكثير محامداً تبقى، فعز بأن تعيش قليلاً

(١) رف النبات: اهتز نضارة.

(٢) مظانها: دق/١٨٢، في (النهضة/٢٤) ٢٥ بيتاً منها وفي (ع/٦٦) ٦ أبيات منها.

غرضها: رثاء السيد جعفر القزويني (انظر ملحق الأعلام).

(٣) الفذ: الفرد. القبيل: الجماعة.

(٤) النضر: أبو قريش.

(٥) مضر: هو ابن نزار، وإليه تنتسب قبائل عربية كثيرة.

(٦) بكر النعي: أتى الناعي باكراً. واشج: جامع أصولها.

صبغت عليك مدامعاً لو لم تكن
 حسرت فكنت السرد من أذراعها
 يا سيفها، وسنامها! غادرتها
 ولأنت معقلها أصاب تصدعا
 لسلت بك البطحاء عن أشياخها
 فمقام (إبراهيم) يعلو صارخاً
 حمراً، لحيت البطاح (النيل)^(١)
 وضحت لظلٍ لم تجده ظليلة^(٢)
 ظهراً أجب، وساعداً مشلولاً^(٣)
 ولأنت صارمها أصاب فلولا [١٠]
 إذ أنت أكرم من غموه سليلاً^(٤)
 حزناً عليك، وحباً (إسماعيل)

* * *

مهلاً (أبا موسى) فإنك والعلى
 يا أيها الجبل المنع ركنه
 نكد الإقامة أن نقيم ولم تقم
 ومن الردى أن لا نشاطرك الردى
 ملأت محاسنك البلاد فضيقت
 لوقفت ما بين النوائب والورى
 حتى تخبط عاتراً بك ظفرها
 -ولك السلامة- مززعان رحيلة^(٥)
 هول-لعمرك- أن نراك مهيلة^(٦)
 فينا، تيل جزيلة وجزيلة^(٧) [١٥]
 ومن الغليل بأن نبلى غليلة^(٨)
 حتى لشخصك لم يدعن مقيلاً^(٩)
 حصناً تقي الخطب الجليل جليلاً^(١٠)
 إذ لم تجد بك للأنام سبيلاً^(١١)

(١) البطاح: جمع البطحاء وهي مسيل الماء.

(٢) حسرت: كانت بلا درع. السرود: الدرع. ضحت: تعرضت للشمس.

(٣) الظهر الأجب: المقطوع السنام.

(٤) لسلت: سلت (نسيت).

(٥) أبا موسى: كنية المرثي.

(٦) الهول: المخافة. المهيل: المنهد. ب/ بداية ما في (ع) من القصيدة.

(٧) أن نقيم ولم تقم: في دق (أن نقيم ولم نقم) وهو غير وارد. تيل: تعطي. ب/ غير

مذكور في (ع).

(٨) الغليل: حرقه العطش. نبل الغليل: نروي العطش.

(٩) المقييل: موضع القيلولة (النوم في الظهيرة).

(١٠) تقي: في النهضة (يقي). الخطب الجليل: المصيبة العظيمة.

(١١) ظفرها: ظفر النوائب تجد: الضمير يعود للنوائب في البيت السابق. وفي ع، والنهضة (يجد).

أردى (أبا موسى) الردى فتكوري
 المنعش الآمال غادرَ نعشهُ
 رعليه عولت الوري، وأظنها
 كان (المحرم) مخيراً، فأرئتنا
 فكأن جسمك جسمهُ لكنه
 وكان رأسك رأسهُ لو لم يكن
 وجبينك الوضاح مثل جبينهِ
 وحملت أنت مُشرفاً أبدي الوري
 إن تنأ عنا راحلاً كرحيله
 ولَفَقَدُ (مهدي) (جعفر) مُورثٍ
 من (جعفر) في فقدِ (إسماعيل) (٧)

* * *

يا أيها (المهدي)، يا علم الهدى
 أيقنت، حين نعي إليك، مصداقاً
 حوشيتَ من جلدِ القساء، وإنما
 أعيأ التصير من سواك فَعَيْلًا (٨) [٣٠]
 ونخال أنك خيلته تخيلاً
 هَدْيُ (النبي) قد آجتباك خليلاً (٩)

(١) تكورت الشمس: انطفات. وهذا آخر ما في ع من القصيدة.

(٢) الجدا: العطية.

(٣) المحرم: شهر المحرم وفيه تويج المرثي. الحسين: الإمام الحسين الذي قتل في المحرم.

(٤) العفير: المعفر بالتراب.

(٥) بلجا: إشراقاً. جدله: رماه أرضاً.

(٦) سجاد: فيها تورية. فالسجاد الحقيقي هو الإمام علي بن الحسين الذي كان (عليلاً)

يوم قتل أبوه في كربلاء، وهذا المعنى غير مقصود. إذ المقصود هو والد المرثي الذي

كان كثير السجود، وكان عليلاً ضعيفاً.

(٧) لفقْد: اللام للابتداء. مهدي: والد المرثي. جعفر (الثانية): هو الإمام جعفر

الصادق (ع). إسماعيل: هو أكبر أبناء جعفر الصادق، وقد تويج في حياة أبيه فحزن

عليه حزناً شديداً لأنه كان اثيراً عنده.

(٨) عيل صبره: غلب.

(٩) حوشيت: نزهت. وفي النهضة (حاشاك). الهدى: السيرة.

أنت الذي ترضى بما يرضى به
 أأقول: صبراً؟ لا وصبرك، أن لي
 بك هتدي لسبيل كل فضيلة
 ولَمَنْ وجدت كمن فقدت شمائلًا
 إن لم يماثل من ولدت مماثل
 تلك الجواهر كلها من معدن
 ثقفتَ من ذاك الوشيح ذوابلاً

باري البرية هيناً وجليلاً
 جزعاً، وصبرك لا يزال جميلاً
 وعلى منالك نحتدي تعويلاً^(١) [٣٥]
 والكل عن كل ينوبُ بديلاً^(٢)
 فلقد ترى هذا لذاك مثيلاً
 ما حالَ عن حالهما تبديلاً
 وصقلتَ من ذاك الفرند صقيلاً^(٣)

* * *

يا قاصدَ (الفيحاء) في نفاحةٍ،
 عنسٌ كتيسِ القاع أرسل شارداً
 كوماً ما بين الهضاب كهضبةٍ
 أنست، إذا أنس الرعاة بشكلها
 لم تكتحل عينٌ بمراى ردفها
 وكأنها بين التائف (آصف)
 لا يهتدي (كعب) لبارع وصفها

زيافةٍ، تصل الوجيفَ ذميلاً^(٤) [٤٠]
 أو كالظليم مُذعراً، اجفياً^(٥)
 شاء الإله لنقلها تحويلاً^(٦)
 فحلاً يسابق (شَدَقَمًا) و(جديلاً)^(٧)
 إلا وجاوزت النواظر ميلاً
 في عرش (بليقيس) يمرُّ عجولاً^(٨) [٤٥]
 فيما تفتنَ مقصراً، ومطيلاً^(٩)

(١) المنال: العطاء. اجتدى: طلب الحاجة. التعويل: العون.

(٢) لمن: اللام للابتداء.

(٣) ثقفت: قومت. الوشيح الرماح. الذوابل: الرماح، ويريد بها أبناء المخاطب الأربعة. الفرد: السيف.

(٤) الفيحاء: مدينة الحلة. النفاحة: الناقة التي تخرج لبنها من غير حلب الزيافة: المتبخثرة الوجيف: السير السريع. الذميل: السير اللين.

(٥) العنس: القوية، الظليم: ذكر

(٦) كوما: مرتفعة السنام.

(٧) شدقم، جديل: فحلان من إبل (النعمان بن المنذر).

(٨) التائف: جمع (التوفة) وهي البرية. آصف: هو (سليمان) الذي جاء بمرش (بليقيس).

(٩) كعب: هو كعب بن زهير، الشاعر المخضرم.

انخ النياق (لصالح). هو (صالح) من قبل أوتي ناقةً وفصيلاً^(١)
واعقل يديها في مراعٍ معقلٍ للوفد يحسبه التريل نزيلاً^(٢)
المشرف الجففات في غسقِ الدجى والقائد الصعب الحرون ذلولاً^(٣)
المحتي بالدست تحسبُ أنه أسدٌ تصدّر بالندي الغيلاً^(٤) [٥٠]
المحتي بالدست تحسبُ وجهه قمرَ السماء، وتاجَهُ الإكليلا
المحتي بالدست تحسبُ خلقه روضاً يياكره النسيم عليلا
المحتي بالدست تحسبُ لفظه درأً يفصل نظمه تفصيلا
المحتي بالدست تحسبُ شخصه شخص (الني) وقوله (التنزيلا)
إن أطرق استولى الأنام مهابةً فإذا تبسّم طارحوه القيلاً^(٥) [٥٥]
تسمو لطلعته العيون إذا بدا كالسيف أرففه القيون صقيلاً^(٦)
يتباشرون إذا رأوه، كأنه برق سما للمحليين مخيلاً^(٧)

* * *

فإليكها جهد المقل وإن تكن قصرت وكان بك المجال طويلا
ولو استطعتُ نظمت في أياتها آيَ (الكتاب) مرتلا ترتيلا

- (١) صالح (الأولى): هو شقيق المرثي. و(الثانية) هو النبي الذي ذكره الله في القرآن. الفصيل: ولد الناقة.
(٢) المراع: المنازل. المعقل: الملجأ.
(٣) الجفنة: القصعة الكبيرة. و(المشرف الجففات): المائل الجففات طعاماً، الصعب: الجمل الذي لا ينقاد.
(٤) احتبى: جلس جامعاً بين ظهره وساقيه بمعاماة. الدست: صدر المجلس. الندي: المجلس. القيل: مكان الأسد.
(٥) طارحوه: ناظروه، جاويوه. القيل: الجواب.
(٦) القيون: الحدادون.
(٧) المعحل: الذي أصابه المحل (القحط). المخيل: الذي توسم فيه الخير والمنفعة.

وما أثبتته من شعر الجبوبي آنفاً - موشحات وقصائد - فهو على سبيل النموذج والمثل والمثال، لتستدل بما ذكرتُ لك على ما لم أذكر، في سَنخ الشاعرية، وقوة الأسر، وجودة العطاء.

دراسته وأساتيذه:

اتجه السيد الجبوبي بعد إعراضه عن قرص الشعر والإضراب عنه صفحاً، إلى دراسة التشريع الإسلامي في الفقه وأصول الفقه، فنال بهما القدر المعلن، حتى عدّ من المجتهدين الأكابر، وكانت دراسته على مشاهير عصره من المراجع العظام، وأبرزهم:

١- الشيخ محمد حسين الكاظمي (ت ١٣٠٨هـ).

٢- الشيخ رضا الهمداني (ت ١٣٢٢هـ).

٣- الشيخ محمد الشرايبي (ت ١٣٢٢هـ).

٤- السيد مهدي الحكيم (ت ١٣١٢هـ) والد فقيه عصره الإمام السيد

محسن الطباطبائي الحكيم (ت ١٣٩٠هـ).

٥- الشيخ موسى شرارة العاملي.

٦- الشيخ محمد طه نجف (ت ١٣٢٣هـ).

((ولكنه لم ينقطع لأحد منهم انقطاعه للشيخ محمد طه نجف، أحد كبار الفقهاء يومذاك، فلازمه سنين امتدت من عهود شاعريته حتى وفاة الشيخ المذكور عام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م، وعلى يد نضح الجبوبي في الفقه، وهو بعد في شبابه، الأمر الذي جعل الشيخ المذكور يشيد به ويعظّمه، ويشركه في الحديث والبحث))^(١).

ويبدو أن الجبوبي قد اشتغل بالتدريس فقهاً وأصولاً، ومارس مهماته العلمية فيهما في حياة أستاذه المشار إليه.

(١) عبد الغفار الجبوبي/ ديوان الجبوبي/ المقدمة/ ٢٩ وانظر مصادره.

يقول الحجة المحقق الشيخ آغا بزرك قدس سره:

((فشرع بالتدريس في الفقه والأصول، وكان له في تدريسه أسلوب خاص يميل فيه إلى طريقة شيخنا الأستاذ محمد كاظم الخراساني صاحب (كفاية الأصول) الذي يعتبر مجدداً بهذا العلم.

ولما توفي شيخه الشيخ محمد طه نجف كثر الإقبال عليه أكثر من السابق، حيث كان شيخه المذكور يشير إليه، ويشيد بذكره. وهكذا اشتغل بالوظائف الدينية مستمراً على الدرس والتأليف وغير ذلك))^(١).

وما اكتفى السيد الحبوبي بمسيرته العلمية هذه على الفقه والأصول فحسب، بل أضاف إليهما ((علم الأخلاق)) وهو علم يبني النفس الإنسانية بناءً روحياً خاصاً، ويهدبها تهديباً عرفانياً يجعلها على أسمى الصفات.

وقد قرأ الحبوبي العلوم الأخلاقية على الأخوند ملا حسين قلي الهمداني^(٢). وقد أكسبه هذا الدرس الفريد شهرة فائقة بمعارف الأخلاق، حتى عاد فضرب المثل في التواضع والرقّة والسجية.

يقول المرحوم الأستاذ الشيخ علي الشرقي (ت ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م):

((كان الحبوبي مثلاً أعلى للأخلاق، شيخٌ تحسبه من الطراوة والطلاوة في ميعة الشباب، شيخوخة وقورة، وشباب طاهر لماع بالفضيلة، عذب الروح، مهيب الطلعة، الحشمة في مداعباته، والحكمة باسمه على شفّيته، الأدب في ندروته، وصوله الحق في حجته، فصيحٌ صريحٌ، خشوعٌ للحق، بعيد عن الحشو))^(٣).

(١) آغا بزرك الطهراني / طبقات أعلام الشيعة ج ١ / ق ٢ / ٨١٨.

(٢) محمد حرز الدين / معارف الرجال ٢ / ٢٩٢.

(٣) علي الشرقي / الصلابة في المبدأ / بحث / مجلة الاعتدال النجفية / العدد ٧ / السنة الثالثة.

ودوّى صيت الحبوبي في الآفاق مجتهداً مجدداً، واشتهر أخلاقياً متميّزاً، وعرف عالملاً عاملاً يترع إلى الإصلاح، ويدعو إلى التجدد والصالح، وكان له زملاء في الدراسة لهم أثرهم الفاعل في الأمم والشعوب، وكان أبرزهم السيد جمال الدين الأفغاني الداعية الإسلامي المعروف الذي ((مكث في النجف أربع سنين يستقي فيها العلوم))^(١).

وتوثقت الصلة بين الرجلين كأفضل ما يكون حتى بعد خروج الأفغاني من النجف، وتطوافه في البلاد الإسلامية^(٢).

فقد زار الأفغاني النجف الأشرف متنكراً عام ١٣٠٩هـ / ١٩٨١م.

«واجتمع بالسيد محمد سعيد الحبوبي في الصحن الشريف، في الغرفة التي تقع فوق باب القبلة. وقد طال اجتماعهما من صلاة العشاء حتى مطلع الفجر»^(٣).

ولم يكن هذا الاجتماع عفويّاً، ولا إطالة مدته اعتبارية، بل كان نتيجة إحساس مرير بالواقع العربي والإسلامي، رقد أذكى كل منهما في أخيه حمرة النضال الوطني فكان منهما ما كان.

الحبوبي والإحساس الوطني:

كانت النجف الأشرف في أواخر العهد العثماني قد رفضت حكم السلاطين وتسلط الظالمين، وحرّبت خطل الآراء وزلل الأهواء، وليس ذلك بالأمر الجديد، فالنجف صرح حضاري من المخزون الثقافي المتجدد، ومنبع من منابع الفكر الإسلامي المتطور، وهي بعد مقرّ المرجعية الدينية العليا للإمامية في العالم، ومربض العلم الثرائي الرائد، ومهد الشعر العربي السيار، وفي ضوء هذا المنظور الحقيقي للنجف تفاعل السيد الحبوبي في أفكاره وآرائه وأحاسيسه.

(١) قدرتي قلعجي / جمال الدين الأفغاني / ٢٤.

(٢) ظ: عبد الغفار الحبوبي / مقدمة ديوان الحبوبي / ٤١.

(٣) علي الوردي / لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ٢٩٧/٤.

فالنحف تحمل لواء النضال السياسي بيد، ولواء العلم الهادف بيد أخرى من خلال العلماء الأعلام، وأئمة الدين، وقادة الفكر، والشباب اليقظ المتحفّز، فهي تريد للعراق حياة العزّ والاستقلال، وتريد للعراقيين كافة مناخ العدل والاستقرار، تقود المسلمين بالفتاوى الصارخة ضد المستعمرين، وتلهب المشاعر بالقصائد السائرة بركاب الأحرار، رجالها في إعداد واستعداد لمجابهة الظروف الطارئة، وشبابها ينتظم في كتائب الدفاع والثبات، حتى أدرك الاستعمار الغربي خطر هذا البند عمى مصالحه وقواعده الاستراتيجية، فسلط عليه الفقر والحرب، وكابد الشعب الجوع والمرض، وعملت النحف بالقسوة والسطوة والانتقام إلى يومك هذا.

يقول الأستاذ الشيخ علي الشرقي رحمه الله:

((لقد خاضت النحف اعتباراً من ١٩٠٨ م معارك سياسية وحربية.. نضال وصيال.. انتفاضة تعقبها انتفاضة، وكانت في النحف كتائب للأحرار تريد الحركة الإصلاحية والتجديد، وجماعات أخرى تريد الركود ولا تعرف التطور، وأخيراً انتصر دعاة الإصلاح، وكان للحركات السياسية والانقلابات في الأستانة وطهران تأثير على النحف لما هناك من الروابط المتينة، وقد كانت الفتوى الصادرة من النحف تقيم وتقعدها بين العاصمتين، وكان الشعبون من الساسة يستمدون العون من فقهاء النحف، ولشدّ ما انتفضت وناضلت هذه المدينة المقدسة في تأييد النظام الدستوري، وهزيمة الحكم الفردي، وامتد الصراع إلى مقارعة الاحتلال الانكليزي))^(١).

وكان قادة الإصلاح الديني ورجال الحكم الدستوري، ودعاة الحرية والديمقراطية في النحف الأشرف يستمدون الزخم الثوري من المرجع الأعلى الشيخ محمد كاظم الآخوند الخراساني (ج ١٣٢٩ هـ) يدعمه في ذلك كل من

(١) علي الشرقي / الأحلام / ١٥٧.

الشيخ عبد الله المازندراني والميرزا الشيخ محمد حسين البائني الغروي (ت ١٣٥٥هـ) ومن ورائهم الجماهير الحاشدة والشباب المتحمس.

وكان هذا الشعور الوطني مقترناً بالحمية الإسلامية والمشاعر الدينية، ومرتبطة بعوامل التذمر والاحتجاج على سياسة التجويع والتشريد والجهل والمرض، فعمل كل ذلك على إذكاء روح النضال، وانطلاق فلسفة التمرد بين آلاف الناس. والنجف الأشرف - كما هي اليوم - تربع دست القيادة الدينية للمسلمين، وهي ليست ملكاً لطائفة، ولا حكراً على فرقة، ولا مقتصرة على مذهب، بل هي لكل الإسلام والمسلمين، يثرها ما يثرهم، ويهمها ما يهتمهم، وهي بعد العين الساهرة على حفظهم، واليد المضمدة لجراحاتهم، والقوة الضاربة لأعدائهم. والدفاع عن بيضة الإسلام وكيان البلاد من صميم المهّمات المؤصلة في الكيان القيادي للنجف الأشرف ((ففي أوائل تشرين الثاني عام ١٩١٤م نزل الانكليز الفاو، ونشروا علم الاحتلال بياناً يبيد أسفهم على الاضطراب لإعلانهم الحرب على الحكومة العثمانية، يريدون بذلك الإيهام والتدليس على العامة، والحقيقة أن نزولهم ما كان إلاّ اهتبالاً لفرصة الحرب العامة... وجاء إعلان الجهاد على أولئك المعتدين، فكثرت الضجيج في النجف، وتبادل الزعماء الرأي، إلاّ السيد الحبوبي الذي كان في صمت وتفكير... وإذا بالحبوبي يكسر الصمت زائراً في الأجمة، منتفضاً من العرين، لقد طرح القلم وتناول السيف، تاركاً حلقة الدرس وندوة الأدب، متقدماً صفوف المحاربين، طافحاً في الرعيل الأول. فكان العَلَمَ للنجف، ومن بعده تكاثرت الأعلام النجفية التي نشرت للدفاع عن العراق بميدانين، أحدهما على حدود الأهواز، والآخر وهو المهمّ. ميدان الحبوبي على أبواب البادية تحت أثلاث الرجسية حيث مضارب بني غزوان، وحيث هبطت بنو شيان))^(١).

الجبوبي في جهاد الانكليز:

وفي السادس عشر من محرم الحرام عام ١٣٣٣هـ الموافق ١٦/تشرين الثاني/ ١٩١٤م تحرك السيد الجبوبي للدفاع عن ثغور الإسلام، واتجه بموكبه نحو الحرم الحيدري المقدس، يستمد من صاحبه الحزم والعزم، خالفاً عباءته، مرتدياً جبته، حاملاً سيفه؛ بين ضحيج الجماهير وزعزعة النساء ودعوات المبتهلين، وبعد أداء مراسم زيارة أمير المؤمنين (عليه السلام)، اتجه والمجاهدون بالعربات نحو مسجد الكوفة فوصله وصلى فيه ركعتين، ودعا الله عزّ وجل، وتوجه نحو الجسر، وهو شريعة شاطئ الفرات في الكوفة، حيث أعدت السفن الشراعية لنقل المجاهدين صوب الناصرية، وكان في توديعه العلماء الأعلام ومراجع الأمة، ومن حملتهم الآية الكبرى الشيخ باقر القاموسي البغدادي (ت ١٣٥٢هـ) الذي التفت إلى المودعين والمجاهدين قائلاً: ((هذا السيد لم يُقدر حقّ قدره)) وكان السيد أحمد السيد ياسين السعري أحد المودعين لموكب السيد الجبوبي، ثم التحق بالمجاهدين فيما بعد، وحين العودة إلى النجف، وكان قد نظر بعين البصيرة النافذ فشهد من جلائل أعمال السيد ودقته، وروعة إدارته العليا لشؤون الدفاع عن الإسلام، فهو بنفسه يسوي صفوف الصلاة جماعة، وهو يعاني جشوبة العيش بعد اللين، وخشونة المركب بعد الأرائك، ومضايقة السواد بعد المتعلمين، ويقاسي صعوبة التوفيق بين الآراء عند المنازعات العشائرية، ويتولى رعاية متطلبات المجاهدين في الأرزاق والعتاد والسلاح، فهو بين فكر عامل، وشغل شاغل، ولسان قائل. أقول: حينما عاد بعد الجهاد، زار الشيخ باقر القاموسي وقال له: لسنا وحدنا لا نعرف قدر السيد، بل أتم معنا لا نعرفون قدر السيد، وأخذ في تعداد مآثره مشاهدة^(١).

والنجف الأشرف لا تنسى ذلك اليوم المشهود الذي اجتمع فيه عشرات الألوف من الناس ليستمعوا إلى إعلان السيد الجبوبي عن عزمه على الثورة

(١) حدثني بفكرة هذا الحديث العلامة الشيخ صادق القاموسي عن أبيه قدس سره.

لمقاومة جيوش الاحتلال، وللوقوف أمامها وجهاً لوجه، وقد استجاب إلى ندائه هذا كثير من رجالات الأمة البارزين من علماء وزعماء وأحرار مخلصين، وانضموا إليه في ثورته المقدسة^(١).

هذه حقائق لا سبيل إلى إنكارها، ولا مندوحة من دونها. يقول العلامة الكبير الشيخ آغا بزرك:

((ولما دخل الانكليز البصرة، وأعلنت الحرب العامة، واشترك بها الأتراك ونادوا بالنفير العام، أسهم في ذلك العراقيون، ونهض معظم علماء الشيعة للجهاد، وأفتوا بوجوبه والدفاع عن بلاد الإسلام، ومحاربة الانكليز، وهاجت عشائر العراق هيجاناً غريباً، ولم يكتفِ المجتهدون بذلك بل خاضوا المعارك بأنفسهم، وهم: شيخ الشريعة الأصفهاني، والسيد علي الداماد والمترجم له (السيد الحبوبي) وغيرهم الكثيرين))^(٢).

((وهناك فريق من العلماء منعهم من المشاركة بأنفسهم عجزهم وهرمهم، وتوقف أعمال الشيعة عليهم، وهؤلاء بعثوا أولادهم نيابة عنهم، منهم شيخنا الميرزا محمد تقي الشيرازي (قائد ثورة العشرين) فقد بعث ولده الشيخ محمد رضا، وكذلك السيد محمد كاظم اليزدي فقد بعث ولده السيد محمد، وغيرهما كذلك، وقد أبلى الجميع بلاءً حسناً، جزاهم الله خير الجزاء.

وكان المترجم له (السيد الحبوبي) من أشدهم اهتماماً، وأكثرهم حماساً، فقد قاد جيشاً جراراً، وعسكر به في الشعبية، وقد بلغ عدده تسعين ألف مجاهد، على ما سمعته في تلك الأيام))^(٣).

(١) ط: جريدة كل شيء البغدادية/ العدد ٨٨ / السنة الثانية/ عن مقدمة الديوان / ٤٥.

(٢) من هؤلاء الكثيرين: الشيخ مهدي الخالصي الكبير وولده الشيخ محمد، والسيد محمد نجل السيد كاظم اليزدي، والشيخ أحمد نجل الشيخ محمد كاظم الأخوند، والشيخ عبدالرضا الشيخ راضي، والشيخ جعفر الشيخ راضي، والشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء، والسيد أبو القاسم الكاشاني، والسيد عيسى كمال الدين، والشيخ عبد الكريم الجزائري والسيد عبد الرزاق الحلو وسواهم.

(٣) آغا بزرك/ طبقات اعلام الشيعة/ نقباء البشر/ القسم الثاني / ١/ ٨١٨.

وهذا يعني أن السيد الحبوبي كان للعراقيين كافة، ولم يكن متوقعاً في زاوية من زوايا النجف، فإن من يستجيب له هذا العدد الضخم من المجاهدين في قبال الانكليز في تلك الظروف الصعبة، ينبغي أن يكون قائداً جماعياً تلتف حول رايته مشاعر العراقيين من دون تمييز، وهكذا شأن النجف الأشرف وقد أيد هذه الحقائق الشيخ محمد حرز الدين زميل السيد الحبوبي فقال:

((وكان المترجم له من أعيان المجاهدين الذين وقفوا قبالة الانكليز أعداء الإسلام والإنسانية الذين احتلوا البصرة في سادس محرم سنة ١٣٣٣هـ بالمكر والخداع والرشي لبعض قواد الجيش التركي والرؤساء. ألا شأهت تلك الوجوه ذلاً وصغاراً!! فكانت جمهرة من العلماء أيضاً حاملين السلاح إلى جنب المجاهدين في الشعبية وضواحي البصرة))^(١).

وحينما قاد السيد الحبوبي حملته هذه للجهاد، أبرق له العلامة الشهير السيد محمد القزويني من الحلة مهذين البيتين:

نحن بني العرب ليوث الوغى دين الهدى فينا قوي عزيز
لابد أن نرحف في جحفل نبيد فيه جحفل الانكليز^(٢)

ولما قدم المشير محمد فاضل باشا الداغستاني إلى النجف يلتبس من العلماء المشاركة في جهاد الانكليز، كان المرحوم الحاج عبد الرزاق شمسة رئيس بلدية النجف، يقوم بدور الوسيط بين العلماء والمشير، ويقرب وجهات النظر في الموضوع؛ خرج للجهاد الشيخ جواد الجواهري والسيد محمد علي بحر العلوم وبرفقتهما الحاج عبد الرزاق شمسه، والتحقوا بالمجاهدين، ولما بلغ ذلك والي بغداد، طلب إليهم العودة إلى النجف لحماية مؤخرة المجاهدين، وحفظ الاتصال بالمركز في بغداد، فعادوا إلى النجف الأشرف^(٣).

(١) محمد حرز الدين / معارف الرجال ٢/ ٢٩٢.

(٢) يوسف كركوش / تاريخ الحلة / القسم الثاني / ١٨٨ وانظر مقدمة الديوان / ٤٥.

(٣) ط: علي الخاقاني / شعراء الغري ٩/ ٢٩٥.

وكان السيد الحبوبي قد أبحر من شط الكوفة بسفينته الشراعية متجهاً نحو السماوة، وكان كلما نزل بمكان تجوّل بين عشائره داعياً الناس للجهاد ومحاربة الغزاة.

وقد ((اتخذ له معاونين من الشباب منهم باقر الشبيبي الذي كان موضع إعجاب شيوخ العشائر لثقافته ولباقته))^(١).

واستجاب له زعماء العشائر في الفرات وأتباعهم لاسيما في المشخاب، فقد اتصل بالسيد علوان الياسيري والسيد نور الياسيري والشيخ عبد الواحد الحاج سكر، ومبدر آل فرعون وسواهم من الزعماء.

ويبدو أن السيد الحبوبي قد عانى كثيراً في إقناع رؤساء العشائر وأتباعهم بالمشاركة بالجهاد، نظراً لاضطهادهم الكبير من قبل الأتراك الذين اتسموا بالغطرسة والاستعلاء، كما عرف حكمهم بالظلم والطغيان والاستبداد المريع، ولكن المصلحة الإسلامية والوطنية كانت فوق هذه الاعتبارات المعوّقة عن الانخراط في سلك المجاهدين.

وكان الأستاذ الشيخ محمد علي اليعقوبي يقضي شهري محرم وصفر في السماوة مرشداً منبرياً، وخطيباً حسينياً، فزوّده السيد الحبوبي بكتاب كريم، يأمره فيه بتحريض عشائر الرميثة وما والاها على الانضمام إلى صفوف المجاهدين، فتم له ما أراد^(٢).

وهكذا تكامل الجمع الفراتي، فأتجه بهم الحبوبي نحو ناصرية المتفق، فوصلها في ((منتصف كانون الثاني/ ١٩١٥م السادس من ربيع الأول ١٣٣٣هـ))^(٣).

(١) عبد الشهيد الياسيري / البطولة في ثورة العشرين / ٧٢.

(٢) ظ: محمد علي اليعقوبي / البابليات / ٤ / ٢٢١.

(٣) ظ: علي الوردي / لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث / ٤ / ١٢٩.

وبقي السيد الحبوبي مرابطاً في الناصرية، رداً من الزمن يهدئ الفتن، ويوحد الكلمة، ويجمع الجيوش، ويعدّ العدة، ويوجه المجاهدين، ويرسل المبعوثين إلى الأطراف للالتحاق بالمجاهدين.

يقول الحاج حسين الشعر باف أحد مرافقي السيد:

((وقد أرسل السيد الحبوبي يستفزههم للجهاد، وكان في جملتهم المرحومان الشيخ علي الشرقي والشيخ محمد باقر الشبيبي، وهما يحملان كسب الدعوة والفتاوى في الحث على الجهاد، فاستجابت عموم القبائل والأهالي من حدود الحلي إلى الناصرية، وأخذت أفواج الجيش ومعداته تترى، والذخائر الحربية ترد في السفن والبواخر من الكوت إلى الشطرة والناصرية))^(١).

ولا أعتقد أن أسرة نجفية، أو قبيلة فراتية، أو عشيرة عربية، لم تمثل بفرد أو أفراد في حملة الدفاع التي قادها الحبوبي.

ويتلخص السبب في هذه الاستجابة إلى عاملين مهمين:

- ١- عمق الوعي الديني والسياسي والوطني في النفوس.
- ٢- كون السيد الحبوبي زعيماً شعبياً تلتقي حوله الأطراف العراقية، وتنصاع لأوامره الجماهير، ويعتزّ به الجميع.

وقد عرض سيدي الوالد الشيخ علي الصغير للمحظ من صفاته التي أثر بها تأثيراً فاعلاً على الشعب المسلم، فلبّى دعوته للجهاد:

((لقد حدثني والدي وغيره ممن أدر كوه وتلمذوا عليه أن السيد الحبوبي له سيرة قل أن يتصف بها غيره من سائر الناس، إنه متواضع من غير ضعة، يتحلّى بالأخلاق الكريمة الفاضلة، يطبّق الدين كما يريد الله وأمر به نبيه صلى الله عليه وآله، سائراً عليه كما سار أجداده الطاهرون، فهو مترف اللباس وخشن في ذات الله بالوقت نفسه، وكان يهب ما في يده، فإن وهب فمن ملكه، وإن أعطى فمن ثروته الخاصة))^(٢).

(١) حسين الشعر باف/ القائد المجاهد السيد محمد سعيد الحبوبي ((بحث)).

(٢) علي الصغير/ السيد الحبوبي في أدوار حياته/ بحث في ذكرى وفاته الخمسين.

وهكذا كان السيد الجبوبي في جملة خصائصه متواضعاً يمتلك قلوب الناس، وكرهياً لا يخل على الآخرين بشيء، ومطاعاً لأعصى له أمر، وكان أياً تمام الإباء، فهو في جهاده، وقد شحّت أموال المجاهدين، وكانت القيادة التركية ترغب بمساعدتهم ((فقدّمت الحكومة التركية خمسة آلاف ليرة ذهبية كمساعدة له على مواصلة جهاده))^(١).

ولكن السيد الجبوبي أبي قائلاً: ((إني مكلف بالتضحية في مالي ونفسي، فإذا نفذ المال بقيت نوبة النفس... اعتبروني جندياً من الجند، أكل مما يأكلون، وأشرب مما يشربون، وجهاد النفس أفضل. لا، لأقبل درهماً واحداً، وقائد الجيش أعرف بمواقع الصرف، ولا أسمح لكل أحد أن يفتأخي في هذا الشأن))^(٢).

ولم يكن الجبوبي مستبدّاً برأيه، بل جمع حوله المستشارين من عليّة القوم من ذوي الرأي والخبرة والورع والتجربة، وكان في طليعتهم: السيد محسن الحكيم أمين مال المجاهدين، الشيخ عبد الكريم الجزائري، السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني، والشيخ جعفر الشيخ عبد الحسن الشيخ راضي، والشيخ محمد رضا الشبيبي، والشيخ باقر الشبيبي، والسيد أبو القاسم الكاشاني، والشيخ باقر حيدر، والسيد سعيد كمال الدين، والشيخ رحوم الظالم، والشيخ حسين الحلبي، والشيخ عبد الحسين مطر، والشيخ حسين الصغير، والحاج حسين الشعرباف، والحاج عبود شكر، وأضراهم ممن لا أستطيع إحصائهم^(٣).

وقد خصص لكل منهم واجباً محدداً في الخطابة والمراسلة والتحريض والإعداد، وإئتمات شؤون المجاهدين، وتموين الجيش المقاتل.

(١) علي الخاقاني / شعراء الفري ١٥٠/٩.

(٢) علي الشرقي / الصلاة في المبدأ / ((بحث)).

(٣) ظ: عبدالغفار الجبوبي / مقدمة الديوان / ٤٨ + علي الخاقاني / شعراء الفري

السيد الحبوبي في جبهة القتال:

ولما تكاملت الجيوش المقاتلة في نظر السيد الحبوبي أزمع مغادرة الناصرية إلى ساحة الحرب. يقول شيخنا الوالد رحمه الله ((حتى إذا تم الجمع زحف سيدنا المجاهد بجيشه العظيم، المؤمن بربه، الذابّ عن حمى دينه، معتقداً أن جيشه إن ظفر فذو خلق كريم، وإن انكسر فإلى مثنوى النعيم، تحفّه الصلوات وتعلوه البركات))^(١).

فاتجه الحبوبي والمجاهدون شطر الشعبية عن طريق بحيرة الحمار، فوصلها في ١٣ / ربيع الأول / ١٣٣٣هـ - ٢٢ / كانون الثاني / ١٩١٥م، وضرّبوا خيامهم في موضع يسمى النخيلة^(٢).

ويسلط الحاج حسين الشعرى الضوء على الجيش المجاهد في مواقعه ومواطنه، ويصف الموقف، وقيادة السيد الحبوبي قائلاً:

((أما في النخيلة فكان معسكر المجاهدين واسعاً جداً يشغل عشرات من الأميال من الأرض، تجمّع فيها قبائل الفرات من الحلة حتى القرنة، وسكّان الفرات من الحي إلى حدود الناصرية، وقسم من فرسان الأكراد من لوائي السليمانية وكركوك، ماعدا الجيش النظامي، وقد وقعت عدة مناوشات بين المجاهدين والانكليز، ففي كل فترة تتوجه تلك الجمع من عشائر المجاهدين إلى مضارب السيد الحبوبي رحمه الله، فيقف بياب فسطاطه معتمداً على سيفه، وتمرّ تلك الحشود من الفرسان تستعرض أمامه، فيترجل رؤساؤها للسلام عليه بعد تقبيل يده، والاستئذان بالتوجه إلى حطة الحرب أو الغزو، فيأذن لهم. وفي الحقيقة إنه كان منظراً عظيماً فيه روعة وهيبة، يمثل للناظر كأن أحد أئمة أهل البيت (عليه السلام)، وهو يقود تلك الجيوش))^(٣).

(١) علي الصغير / السيد الحبوبي في أدوار حياته / (بحث).

(٢) ظ: عبد الشهيد الياسري / البطولة في ثورة العشرين / ٧٤.

(٣) حسين الشعرى / القائد المجاهد السيد محمد سعيد الحبوبي / (بحث).

وخاض المجاهدون معارك دامية في اتجاهات متعددة، كبدوا فيها الانكليز خسائر فادحة، إلا أن القوى لم تكن متكافئة، فالانكليز لهم معداتهم الضخمة المتطورة، وأغلب سلاح المجاهدين كان بدائياً، وكانوا يقاتلون بقوة الإيمان أكثر من قتالهم بالسلاح. وكان قائد الجيش العثماني ((سليمان عسكري بك)) جريحاً ومحمولاً في محفّته، وكانت خطته هجومية: يهجم فيها الجيش التركي من القلب، ويهجم المجاهدون من الجناحين. وفي الصباح الباكر من يوم الاثنين ٢٧/ جمادى الأولى/ ١٣٣٣هـ = ١٢/ نيسان/ ١٩١٥م بدأ الهجوم العام على المواقع الانكليزية بعنفٍ وشدة من ثلاثة اتجاهات، إلا أن المدفعية البريطانية المتفوقة أسكتت مدافع الأتراك بعد خمس عشرة دقيقة من بدء الهجوم. وفي صباح الثلاثاء شرع البريطانيون بمهاجمة الأتراك والمجاهدين حتى التقوا وجهاً لوجه، فقاتلوههم بالسلاح الأبيض، وأخفق معاون القائد التركي (علي بك أوراق) في الدفاع عن مواقعه، فسلمها للانكليز، وقرر (سليمان عسكري) الانسحاب.

وفي اليوم الثالث للقتال ١٤/ نيسان/ ١٩١٥م كانت معنوية الجيش التركي منهارة، وكانت حالة المجاهدين المادية والمعنوية سيئة غلب عليها الإعياء والجوع والعطش، وانسحب الجميع نحو البرجسية^(١).

وعندها انتحر القائد سليمان عسكري بك بما سمعته من الشيخ محمد رضا الشبيبي شفاهاً، وبما رواه عنه الحاج حسين الشعرباف قائلاً:

((وقد أخبرني المرحوم الشيخ الشبيبي الذي كان بصحبة (سليمان عسكري) يومئذٍ، قال:

بينما كنا نسير مع عسكري بك، وهو في عربته، إذ جاء أجير الضباط وأبلغه أن (الآلاي علي بك) سلم للعدو، فارتبك عسكري بك، وسحب

(١) ظ: عبدالغفار الحويبي/ مقدمة ديوان الحويبي/ ٥٦ وانظر مصادره.

الأحرام الذي على رجليه، وغطّى به رأسه، ومن تحته سحب المسدس دون أن نعلم، وصوّبه على رأسه، وأطلق منه طلقة أصابته برأسه، وأنّ آتة فمات))^(١).

ولدى انتحار القائد العام، تضعض الجيش والمجاهدون، فكانت الهزيمة أو كان الانسحاب، فهما لفظان لحقيقة واحدة، تعني تخليّ المقاتلين عن مواقعهم.

وقد تحدث الشيخ الشيببي رحمه الله تعالى، حديثاً معمّقاً عن قيادة الجيش التركي وهزيمة الناس في مقدّمة قصيدته الغراء ((يوم الشعبية)) فقال، وهو الشاهد لها: ((قام هذا الجيش في منتصف جمادى الأولى / ١٣٣٣هـ — ١٩١٥م من الناصرية إلى المعسكر العام في ((النخيلة)) مشياً على الأقدام، وبعد يومين أو ثلاثة أيام من وصولهم، زحفوا بإيعاز من القائد العام ((سليمان عسكري)) هم والعرب والمجاهدون على ((الشعبية)) وهاجموا الانكليز، وهم أمنع من عقاب الجو، يوم الاثنين في ٢٧ من الشهر المذكور هجوماً شديداً دام يومين من غير أن يعود عليه بطائل، إلى أن ارتدّوا فاشلين، فاغنم الانكليز من القوم انقطاع الطرق والمواصلات بهم، وغلب الإعياء والتعب عليهم، وسوء أثر العطش والجوع فيهم، فأتبعوهم وناجزوهم لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ١٣٣٣هـ أو صباح الأربعاء ٢٩ منه، مناجزة شديدة هزم في آخرها العثمانيون، وترك نصف ذلك الجيش بين قتيل وجريح وأسير وفقيد، وانتحر ((سليمان عسكري)) قائدهم العام))^(٢).

وما كان للسيد الحبوبي في جهاده الإنكليزي أن يحقق نصراً فورياً أمام تلك الجيوش المدربة، والقوّات العسكرية الرتيبة بكل آلائها الحربية وأجهزتها الحديثة، ولكنه دون شك أحرز انتصاراً مستقبلياً حين أذكى روح النضال، وفجّر بركان الثورة، وأيقظ الجماهير من سباتها العميق. فقد أعلنت ثورة النحفيين

(١) حسين الشعرباف/ القائد المجاهد السيد محمد سعيد الحبوبي/ ((بحث)).

(٢) محمد رضا الشيببي/ ديوان الشيببي/ ٤٧-٤٨.

على العثمانيين، وانتهت بطردهم من النجف بعد مرور شهر على واقعة الشعبية، وذلك في ٨ / رجب / ١٣٣٣هـ / ١٩١٥م وتسلم النجفيون الحكم في البلدة، فحكموها حكماً ذاتياً.

وقامت ثورة النجف على الانكليز التي افتتحت بقتل الكابتن ((مارشال)) حاكم النجف البريطاني صباح الثلاثاء ٦ / جمادى الثانية / ١٣٣٥هـ - ١٩ / مارس / ١٩١٨م. والتهدت الثورة العراقية الكبرى في ٣٠ / حزيران / ١٩٢٠م التي مهّدت لاستقلال العراق السوري فيما بعد.

وبذلك تكون نهضة الحزبي في الدفاع عن حمى الإسلام البداية الثورية التي قادت ركب التحرر، واشنت مكافحة الاستعمار.

كان المهم لدى السيد الحزبي أن يناهض الانكليز بكل ما يستطيع، وأن يحرك المشاعر العامة قدر الإمكان، وأن يقود جمهرة المجاهدين بما أوتي من قوة الشكيمة، وصحة العزم، ودقة المبادرة، وليكن بعد ذلك ما يكون.

وحينما انجلت المجاهمة عن نكسة المجاهدين نتيجة جهل القيادة العثمانية، وخيانة بعض المتزعمين العشائريين، وحادثة الأسلحة البريطانية، انسحب السيد الحزبي بما تبقى من معسكره إلى الناصرية، وقال كلمته المشهورة التي رواها السيد محسن الحكيم:

((الحمدُ لله الذي عرفني تكليفي))^(١).

يقولها بمرارة وأسى نتيجة ما أصابه من الخذلان الرهيب.

ووقف الأستاذ العلامة الشيخ محمد رضا الشبيبي (ت ١٩٦٥م) يقيم ويؤبّن الشهداء، بقصيدة عصماء يقول فيها^(٢):

تَبَّتْ الرِّبِّي حُمْرُ أَشْلَاءٍ وَأورَادٍ منثورةٌ لكَ بين القصر والوادي
دونَ ((الشعبية)) أجسادٌ مُوزَعَةٌ في البيد توزيع أعضاء بأجسادٍ

(١) روى ذلك الإمام السيد محسن الطباطبائي الحكيم عدّة مرات شفاهاً.

(٢) محمد رضا الشبيبي / ديوان الشبيبي / ٤٨ وما بعدها.

وفي ((النخيلة)) أرماسٌ موثقةٌ
 للترك ثمة أوتادٌ وأحبيّةٌ
 جيشٌ أقام ثلاثاً في خنادقها
 ماءُ الفراتين موفور... وجُهما
 صُمّ مدافعنا.. ما أمطرت حمماً
 عشرون ألف عراقي... ومثلهم
 بمحزون تجافوا عن ديارهم
 يهاجمون - وهمُ رجالةٌ كشفُ
 فلّ العدوّ جناحيهم، وقلبُهُمُ
 وقائدٌ حملوه في مَحْفَتِهِ
 أفاتك بالعدى جيش مدبرُهُ

هكذا بدأت الحرب، وهكذا انتهت، وانسحب السيد الحبوبي إلى الناصرية، بغية تجديد العدة، ولمّ الشمال، والعودة إلى الحرب ثانية، ولكن الأحداث تلاحقت على الحبوبي، وفتت في عضده، وأثرت الهزيمة عليه نفسياً، فازداد همّاً وكمداً، وتدهورت صحته فجأة، وهو نزيل دار الجهاد.

وفاة السيد الحبوبي:

ونتيجة طبيعية للألام المرحة التي داهمت السيد الحبوبي، فقد انتكس صحياً في أول شعبان ١٣٣٣هـ، واشتدت حالته في الثاني منه، وتوفي يوم الأربعاء الثالث من شعبان ١٣٣٣هـ، وهو يردد: ((أما أنا - والله الحمد - ففي نعيم))^(١).

وتلقى العراقيون النبأ المفجع فوراً، وكان لذلك رنة حزن وأسى، وكان له في حاضرتة النجف الأشرف وقع شديد، وذهول غريب، وحمل

(١) ديوان محمود الحبوبي / الاهداء.

الجثمان إلى النجف ((وكان وصوله يوم الجمعة، فخرج أهلها، وعظمت الأسواق))^(١).

ودفن بعد الغروب بساعة، مقابل ميزان الذهب من الصحن الحيدري الشريف، في غرفة الأيوان المعروف باسمه إلى اليوم.

ووقف المرحوم الشيخ علي الشرقي يؤنّه بقصيدة مطلعها^(٢):

رجالُ الحمى قد شيعوك إلى الثغرِ فبالرغم أن يستقبلوك على القبرِ

وأقيمت له عدة فواتح كبيرة، وأرخ عام وفاته شيخ الأدب الشيخ جواد الشبيبي، وقد نقش التأريخ بالقاشاني المرقّ على ضريحه مع أبيات هي:

فقيدُ المسلمينَ غداةَ أودى حسبتُ الدينَ بينهم فقيدا

لئن وجدوه للداعي مجيداً لقد فقدوه قرآناً مجيداً

وإن شهدته أعينهم سعيداً فقد حملتهُ رؤوسهم شهيدا

تقدّم للدفاع أميرَ دينٍ وساق المسلمينَ له جنودا

ومذلاقى المنيّة أرخوه ((سعيدٌ في الجهاد قضى سعيداً))

— ١٣٣٣ هـ

رثاء الحبوبي وتأبينه:

وتبارى شعراء في رثاء السيد الحبوبي وتأبينه بقصائد غراء، وكان في

طليعتهم الشيخ جواد الشبيبي الذي رثاه بقصيدة عصماء مطلعها^(٣):

لواء الدين كفّ فلا جهادٌ وبابُ العلم سُدّ فلا اجتهادٌ

ورثاه الحجة الكبير الشيخ محمد جواد البلاغي بقصيدة مطلعها^(٤):

(١) محمد حرز الدين / معارف الرجال ٢/ ٢٩٤.

(٢) علي الشرقي / الديوان / ١١٦ + علي الشرقي / الصلابة في المبدأ ((بحث)).

(٣) محسن الأمين الحسيني العاملي / أعيان الشيعة ١٧/ ١٤٣.

(٤) علي الخاقاني / شعراء الفري ٢/ ١٥١.

سعيداً نعي الناعي.. فقلتُ اخفض النطقا

فصمتَ عُرى الإسلام والعروة الوثقى

ورثاه الدكتور محمد مهدي البصير بقصيدة مطلعها^(١):

فيمن لواء الدين بعدك يعقدُ وسواك لا سيفٌ لديه ولا يدُ

ورثاه الشيخ عبد الحسين الحويري بقصيدة مطلعها^(٢):

بيطن الثرى وارى سنالك صعيدُ وحطّ الثريا من علاك صعودُ

ورثاه السيد حسين البغدادي الخطيب بقصيدة مطلعها^(٣):

أتحفتَ عينَ المسلمين شهودا فأفاد عين الكافرين هجودا

وقد اخترتُ للقارئ قصيدة الشاعر الكبير العلامة الشيخ محمد رضا

الشبيبي رحمه الله (ت ١٩٦٥م) وهي بعنوان:

((شهيد الدفاع/ أو الأستاذ الحبوبي)) وقد أثبتها من ديوانه هي ومقدمتها

لما في ذلك من التوثيق التاريخي:

قصيدة الشبيبي في رثاء الحبوبي

شهيد الدفاع^(٤):

أو الأستاذ الحبوبي

هو السيد محمد سعيد بن السيد محمود الحسيني بحبوبي النجفي الشاعر البليغ

المعروف، بطل النهضة العراقية المأثورة، المتوفى عشية الأربعاء ثاني شعبان سنة

١٣٣٣هـ = ١٩١٥م في دار الجهاد بناصرية المنتفق، المحمول إلى النجف،

المدفون في المشهد العلوي.

(١) محمد مهدي البصير / نهضة العراق الأدبية / ٢٠.

(٢) عبدالغفار الحبوبي / مقدمة ديوان السيد الحبوبي / ٦٠.

(٣) المصدر السابق.

(٤) ظ: ديوان الشبيبي / ١٨٥-١٨٧.

كان هوضه من النجف بالدعوة إلى الدفاع في المحرم سنة ١٣٣٣هـ — =
 ١٩١٤م فأجابته خلق من أهل الفرات وبقية الأقاليم الجنوبية سار بهم إلى
 الشعبية إلى أن كان ما كان من الخذلان المعروف هناك، فعاد إلى الناصرية ورابط
 فيها إلى أن مات.

عَمَّ الثُّغُورَ الْمُوحِشَاتِ ظَلَامٌ وَدَجَّتْ لِأَتِكَ ثَغْرَهَا بَسَامٌ
 طَوَتْ الْفَيْالِقُ نُكْسًا أَعْلَامَهَا إِذْ لَيْسَ تَخْفِقُ بَعْدَكَ الْأَعْلَامُ
 رَابَطَتْ فِي ثَغْرِ الْعِرَاقِ وَثَغْرَهَا يُحَمِّي الْحِجَارُ بِسَدِّهِ وَالشَّامُ
 سَقَطَ الَّذِي شِيدَتْ مِنْ أَرْكَانِهِ وَأُعِيدَ فِيهِ التَّقْضُ لَا الْإِبْرَامُ
 رَامَ الْعَدُوَّ بِكَ الْوُثُوبَ فَأَذْرَكُوا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَكَلَّفُوا مَا رَامُوا
 صَالَتْ عَلَى تِلْكَ الْمَنِيَّةِ أُحْتَهَا وَسَطًا عَلَى ذَاكَ الْحِمَامِ حِمَامُ
 لِلَّهِ تِسْعَةُ أَشْهُرٍ مَوْصُولَةٌ طَالَتْ عَلَيْكَ فَكُلُّ شَهْرٍ عَامُ
 شَهْرُ الصِّيَامِ أَتَى فِرَاعَكَ أَنَّهُ فِي ظِلِّ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ يُصَامُ
 شَهْرُ الْإِطَاعَةِ وَالْعِبَادَةِ خَائِفٌ مَنْ أَنْ تُطَاعَ وَتُعْبَدَ الْأَصْنَامُ
 فَارَقْتَهُ لَا ذَلِكَ اللَّيْلَ الَّذِي يُجِيئُ وَلَا تِلْكَ الصَّلَاةُ تُقَامُ
 لَكَ فِي الدَّفَاعِ مَوْفِرًا أَجْرُ الْأَلَى فِي الثُّغْرِ صَلُّوا خَاشِعِينَ وَصَامُوا
 مَا كُنْتَ تُؤْتِرُ فِي جِهَادِكَ لَذَّةً فَيَسُوعُغُ شَرْبٌ أَوْ يَطِيَّبُ طَعَامُ
 قَلِقٌ وَغَيْرُكَ سَاكِنٌ، وَمُسْتَهْدٌ وَالْمُسْلِمُونَ مُهَوَّمُونَ نِيَامُ
 مَا حُبُّهُمْ لَكَ حُبُّ رَاجٍ حُظْوَةٌ فِي الْحُبِّ بَلْ هُوَ لَوْعَةٌ وَغَرَامُ
 عَلِمَ الرَّجَالُ الْحَامِلُوكَ بَأْتَهُمْ حَمَلُوا الصَّلَاةَ فَكَبَّرُوا وَأَقَامُوا
 فَعَلَيْكُمْ مَن ذَاهِبِينَ تَحِيَّةً وَعَلَيْكُمْ مَن غَادِيَيْنِ سَلَامُ
 إِذْ لَسْتَ وَحَدَّكَ فِي الْحَقِيقَةِ ذَاهِبًا

الآن لَمَّا غَيَّبُوا تَبَيَّنُوا
 أين الذي بثَّه تَبَّتِ الوَرَى
 أبا الفریقِ البائِسِينَ كَفَلْتَهُمْ
 أَدْرَكْتُ أَنْ سَتَدُولُ مِنَّا دَوْلَةٌ
 وتُكذِّبُ الآياتُ وهي حَقَائِقُ
 تَرُكُ الإِقَامَةَ فِي المَقَامِ فَرِيضَةٌ
 قُدَّتِ القَبَائِلُ بالإِمَامَةِ فِيهِمْ
 شافَهُتَهُمْ بالدُّرِّ وهو مَبَاسِمٌ
 كَلِمٌ بِهَا ومُعْجِزَاتٍ مِثْلُهَا
 أَصْلَحَتْ شَأْنَهُمْ وكانوا عُصْبَةٌ
 أَيْدٍ يُؤْتَلَنُ الثَّنَاءَ وأنْعَمَ
 خَلْدُنَ ذِكْرَكَ لَيْسَ تُذْرِكُ ثُلْمَةً
 وهكذا تنطوي صفحة هذا القائد المجاهد لترتسم لوحة زهراء في
 سجل الخلود.

أَنْ الحِياةَ جَمِيعُها أَحْلامُ
 وتَزَلْزَلَتْ مِنْ بَغْدِهِ الأَقْدَامُ؟
 ورَعَيْتَهُمْ فإذا هُمْ أَيْتَامُ
 وَعَلِمْتُ أَنْ سَتُبَدِّلُ الأَحْكامُ
 مَجْلُوءَةٌ - وتُصَدِّقُ الأَوْهامُ
 وتَطْلُبُ البَيْتِ الحَرَامِ حَرَامُ
 فَمِنْ الإِمَامَةِ فِي يَدَيْكَ زِمَامُ
 وَأَخَذَتْهُمْ بالسَّحْرِ وهو كَلَامُ
 تُحَلِّي العُقُولُ، وتُصَفِّلُ الأَنْهَامُ
 لا الدِّينُ يَخْجِزُهُمْ ولا الأَرْحامُ
 لكِ فِي رِقَابِ المُسْلِمِينَ جِسامُ
 مِنْهُ السُّنُونُ العُبرُ، والأَعْوامُ



مُتَشَاوِرٌ حُرِّيَّةِ الْعَضْوِ لَا نِيَّةَ مَجْلِسَيْنِ لَنَا نَبِيٌّ نُوَلِّئُهُ مَضِيَّةَ
 مَدِينَةِ حَرِيِّ أَمْرٍ شَدِيدٍ هُوَ جَدُّ سَيِّدِنَا

الشيخ محمد حسين الغروي النائيني.. رائداً

التعريف به ومصادر دراسته:

معجزة دهره، وفريد عصره، وغرة زمنه، الرائد المجدد الشيخ الميرزا محمد حسين الغروي النائيني بن الميرزا عبد الرحيم النائيني.

أبرز مشاهير العالم الإسلامي في علم الأصول والفقه والنهضة الدستورية.

ولد في ٢٥ / ذي القعدة / ١٢٧٦ هـ في مدينة نائين بإيران، وهي مدينة مزدهرة جميلة تبعد عن يزد حوالي (١١٠) كم. بما يساوي عشرين فرسخاً. وكانت تابعة لأصفهان، ولكنها استقلت -أخيراً- إدارياً.

والميرزا النائيني من أسرة شريفة شامخة الأصل، عريقة المجد، معروفة بالعلم والأدب والثقافة والتحضر.

((وأباؤه وجدته مشاهير هناك، وكان والده شيخ الإسلام في نائين، وكذلك أجداده))^(١).

ومصادر دراسة الميرزا النائيني متعددة في عدة مصادر ضمن صفحات قصيرة خطت بأحرف من نور، أبرزها:

- ١- نقباء البشر/ الشيخ آغا بزرك الطهراني.
- ٢- معارف الرجال/ الشيخ محمد حرز الدين النجفي.
- ٣- مشهد الإمام/ الأستاذ محمد علي جعفر التميمي.

(١) جعفر النائيني / لمحة عن حياة المجدد النائيني / أول كتاب الفتاوى / ٨.

٤- الملحق رقم (٢) لكتاب: النجف في ربع قرن لكمال الدين/ صنعته الأستاذ كامل سلمان الجبوري.

٥- لمحة عن حياة المجدد النائبي/ حفيده جعفر الميرزا علي الغروي النائبي في أول كتاب ((الفتاوى)) للميرزا النائبي وحينما أتحدث في هذه الصفحات عن الرائد المجدد الميرزا النائبي برؤية قلبية مجردة، وفي صفحات جديدة مشرقة، وفي لمسات موضوعية معبّرة، فذلك كلمة نتيجة دراسة معمّقة لهذه المصادر أولاً، وثمره اجتهاد تأريخي في مقارنة الأحداث، وخلاصة تحليل منهجي لما أفدته من سيرة النائبي في ضوء السماع الدقيق من الأعلام والأساتيد والمشايخ رضوان الله عليهم أجمعين.

نشأة الشيخ النائبي العلمية وأساتيده:

نشأ الميرزا النائبي في ظل حياة علمية محضة منذ عهد مبكر، فقد بدا عليه النبوغ والعبقرية وهو في صباه، والتمتع بحمه ذكياً أريباً ولماً يخطط عذاره، فهاجرته من بلده على أصبهان في أول بلوغه، وكانت أصبهان -آنذاك- إحدى حواضر العلم والمعرفة الإنسانية، وفيها درس الحلقة الثانية من مقررات الحوزة العلمية، بعد المبادئ العامة من العربية والمنطق والفقهاء الفتوائى والبلاغة وشيء من الحكمة، وهذه الحلقة تتمثل في السطوح، والمراد من السطوح دراسة الكتب الفقهية والأصولية والفلسفية وسوى ذلك، على متن الكتاب نفسه، يتلو فقراته الأستاذ ثم يقوم بالشرح والتوضيح والتعليق والإشكالات، مع الإشارة إلى من سبق في الرأي، أو عوّل في المطلب العلمي على غيره، أو أضاف إليه من ابتكاراته، وهي الطريقة المنهجية في دراسة البرنامج العلمي للحوزات في أقاليم الدراسة وعواصمها حتى اليوم.

ولدى إكمال الميرزا النائبي متطلبات هذه المرحلة بتفوق وامتياز، حضر حلقات البحث العالي الخارج عند أساطين الفن، واختص بأبي المعالي الكلباسي في بحثه العالي.

((ولكن معظم تلمذته وتعويله - كما كتبه - كان على المحقق الوحيد والخير الفريد الشيخ محمد حسين الأصبهاني - سبط المحقق التقى صاحب التعليقة الكبرى على المعالم))^(١).

وهو غير المحقق الكبير الحجة الشيخ محمد حسين الأصفهاني (ت ١٣٦١هـ) فهو زميله وقرينه وتره، وهو المجاور للإمام علي السلام في النجف الأشرف. ولدى البحث في مظان آثار الميرزا النائيني، يبدو أنه قد تأثر تأثيراً فاعلاً بأستاذه الأصبهاني، وعوّل على مطالبه الأصولية، فأثنى عليه ثناء عاطراً، وقال: ((إنه حاز في علمه وعمله وزهده وورعه، وطول باعه في العلوم العقلية والنقلية ما يبهر العقول، وقد أكمل جميع ذلك ولم يبلغ الأربعين من عمره... وقد حضر - الميرزا - أبحاثه الفقهية والأصولية والكلامية، وكان يكتب في مجلس البحث كل ما يفيد الأستاذ بكمال السرعة، مترجماً له بالعربية، من دون أن يفوقه شيء، وكان الأستاذ والحاضرون يتعجبون من ذلك))^(٢).

وفي ضوء هذا الاندماج المعرفي، نشأت علاقة حميمة بين الأستاذ المحقق وبين التلميذ المتحضر، فكان يحثه كثيراً على حضور بحث والده الفقيه المتبحر الشيخ محمد باقر، وهو يتمتع عن ذلك حياةً نظراً لصغر سنّه، فهو بعدُ لم يبلغ العشرين من العمر، ولكن أستاذه الجليل أذهب خجله وأماط تردده، وذلك باصطحابه إلى مجلس أبيه وجلوسه إلى جنبه، فأفاد منه كثيراً.

ويبدو للبحث أن عمدة تحصيل الميرزا النائيني العلمي كان في أصحابان، إذ أقام فيها عشر سنين ((مكبّاً على الأخذ من أعظم حوزتها العلمية الغنية، وأساطينها في المعقول والمنقول، إلى أن نال الدرجة العليا، ورأى نفسه مستغنياً مكثفياً))^(٣).

(١) جعفر الغروي النائيني / الفتاوى / ٧.

(٢) جعفر الغروي النائيني / لمحة من حياة المجدد النائيني / ٨.

(٣) المصدر السابق.

هجرته إلى العراق:

وحين بلغ الميرزا النائيني هذه المرحلة من النضج العلمي، واحتل المترلة الكبرى لدى الفقهاء والأعظم، فكّر بالرحلة إلى العراق، فنفذ ذلك دون تردد، وهاجر إلى سامراء عام ١٣٠٣هـ حيث يقيم المرع الأعلى السيد المجدد الشيرازي، فحقق المراد ورغبة النفس في الاستزادة من العلم اللباب، وريادة آفاق ذلك، فحضر لدى المجدد الشيرازي درسه العالي، فأتسعت مداركه الذهنية وتفتح على استيعاب إفادات السيد المجدد (ت ١٣١٢هـ) ونفحات أستاذه الأعظم الشيخ مرتضى الأنصاري (ت ١٢٨١هـ) فحاز من ذلك النصيب الأوفر، وفاز بالحظ الأوفى، حتى أثار تبحره في دقائق النظر العلمي، واستحضاره لكبريات مسائله العقلية اهتمام أستاذه المجدد الشيرازي، فقرّب به إليه، واعتمد عليه، حتى عاد جزءاً لا يتجزأ من ظل مرجعيته العليا، فكان مستشاره وأقرب خواصّه، وعدّ بجدارة من أبرز تلامذته، وهو بعد في عنفوان شبابه.

يقول الإمام محمد الحسين آل كاشف الغطاء لدى تأيينه:

((عرفتُ تلك النفس التي هي إلى صقع عالم الملكوت أقرب منها إلى صقع عالم الملك، وبأفق عالم الأرواح المحرّدة، ألصق منها بعالم الأرواح المتعلقة بالمادة.

عرفت الميرزا النائيني في سامراء، وهو يومئذ مطمح الأنظار ومسرح الأفكار وموضع إشارة الأنامل، وكانت له المترلة التي يغبط عليها عند المرجع الأعلى - السيد الشيرازي - إذ كان يعدّه من ذوي الرأي والمشورة، ويحضره في المهمات التي يحضرها أهل الحلّ والعقد.

وكانت كل أحواله وأعماله تدلّ على نفس كبيرة ذات قدسية كريمة، قليلة النظر (أو معدومة المثيل))^(١).

(١) كلمة الإمام كاشف الغطاء في تأيينه / العدد الخاص من جريدة (الكرخ) البغدادية في تابين الميرزا النائيني.

وكان السيد المجدد الشيرازي قدس سره يبحث تلامذته المتميزين على ملازمة جملة من أعلام العصر في البحث والمناظرة والمذاكرة، فكان حضور الميرزا النائيني حضوراً رائداً، وإضافة كبرى، ومؤشراً بارزاً من مؤشرات الإفادة العليا، وكان في طليعة أولئك المتدينين للمذاكرة والمراجعة وإبداء النظر الرفيع:

السيد إسماعيل الصدر والسيد محمد الغشاركي وسواهما، وكان النائيني كأحدهما. حتى إذا استأثرت يد الرحمة بأستاذه المجدد الشيرازي (ت ١٣١٢هـ) بقي الميرزا النائيني في سامراء سنتين لإدارة شؤون الحوزة العلمية بما يستطيع، ثم هاجر منها إلى كربلاء المقدسة عام ١٣١٤هـ بصحبة العالم الرباني المحقق السيد إسماعيل الصدر الذي ارتبط معه بعلاقة متينة الأسباب، ذات هدف مجدد الأبعاد، وهو خدمة مبدأ أهل البيت (عليه السلام)، من خلال التخصص الدقيق بعلمهم الفياض الذي لاتدرک سواحله.

وكان الميرزا النائيني يسعى لتحقيق هذا الهدف السامي، ورأى أن عاصمة العلم هي النجف الأشرف، فليشد الرحال إليها، ((ثم انتقل إلى النجف الأشرف عازماً على الإقامة فيه، ولم يحضر فيه بحث أحد بل استقل بالتدريس والتحقيق والتعميق وتجديد المباني الأصولية، وتأسيسها على أسس قويمية، وتنقيحها بدقة فائقة واتقان عديم النظر، ولأجله عدّ مجدداً لعلم الأصول))^(١).

يقول الشيخ آغا بزرك -متحدثاً عن مغادرة الميرزا كربلاء إلى النجف الأشرف بشيء من التفصيل بحسب مصادره الميدانية: ((وكان الشيخ محمد كاظم الخراساني قد استقل بالتدريس على عهد السيد المجدد، ولما توفي زادت تلامذته وعظم شأنه، وأصبحت بينه وبين الشيخ النائيني رابطة أكيدة واختصاص وثيق، وصار من أعوانه وأنصاره في مهماته الدينية والسياسية، كما

(١) جعفر الغروي النائيني / لمحة عن حياة المجدد النائيني / ١٠ / في أول كتاب (الفتاوى) للميرزا النائيني / مطبعة الأفق / قم / ١٤٢٣هـ.

صار من أعضاء مجلس الفتيا الذي كان يعقده في داره مع بعض خواصه من أصحابه للمذاكرة في المسائل المشككة أو ان تأليفه حاشية ((بجاة الصاد)) ولم يحضر معهد درسه العام، لأنه كان غنياً عنه، وشأنه أرفع من حضاره))^(١).

مرجعيتة المباركة:

لدى تمخّص الميرزا قدس سره للبحث الخارج عام ١٣٣٠هـ — بدأت خطوط مرجعيتة تلوح في الأفق شأن أضرابه من المراجع العظام: السيد محمد كاظم اليزدي، شيخ الشريعة الأصفهاني، الشيخ محمد تقي الشيرازي الحائري، السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني، ولم يكن قدس سره بصدد هذا الأمر، ولكن التكليف الشرعي ليس غير، هو الذي جعله يتصدى لشؤون المرجعية، وقد رجعت إليه في التقليد حواضر العالم الإسلامي، إلى جنب أقرانه من المراجع، ولكن عمدة أهل العلم والفضل كانوا يلتفون حوله التفافاً فريداً، وينتهون الأمة إلى عظيم منزلته ورفيع درجته، فنهض بالأمر قائماً، ونهد به جاهداً، مع عزوفه عن مظاهره، وزهده في الاعتبارات الزائلة، وقد اطلعت على وثيقة خطيرة بخط يده في إشارة لنفسه وإنائه إلى هذا الموضوع جاء فيها: ((وهو تعالى يعلم ما في قلبي أني ما دخلت في هذا الأمر، ولا اقتحمت، ولا اجترأت على التصدي، إلا بعد أن قطعت بوجوبه العيني عليّ كل جهة، ومع هذا استخرت في القرآن الكريم، فكانت الآية المباركة:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّاماً آمِنِينَ﴾^(٢).

فخرت لله ساجداً من هذه العناية والتشريف الذي ما كان يخطر ببالي أن أكون من القرى الظاهرة، فقد ورد عنهم (عليهم السلام)، أنهم القرى المباركة، وأن حملة علمهم هم القرى الظاهرة)) ١ هـ بخطه الشريف قدس سره.

(١) آغا برزك لطهراني/ نقيب البشر / ١ / القسم الثاني / ٥٩٢-٥٩٤.

(٢) سورة سبا/ ١٨.

والمتتبع لأحوال الميرزا طابَ ثراه في تقدّمه عند الميرزا الشيرازي، ولدى تعظيمه عند الآخوند، حتى أنه كان يكتب أجوبة الاستفتاءات والآخوند بمضيها، يعرف مدى أهلية الميرزا للنهوض بشؤون المرجعية التي تصدرها ربع قرن.

ظواهر السلوك في شخصية النائيني:

الحديث عن السلوك العرفاني ذو أبعاد تكاملية في بناء الشخصية المثلى للنوع الإنساني، فقد كان - كما تحدث عن ذلك معاصروه - زاهداً عابداً، ورعاً تقياً، نموذجاً للتواضع الجَمِّ، ومثالاً للسلوك القويم، أخذ نفسه بالشدّة في ذات الله، وابتعد عن المظاهر الزائلة، وأضرب صفحاً عن الاعتبارات الوهمية، ولم يعبأ بما له من شهرة في الآفاق، ولم يذهب مذهب المترفين في الجاه والسمعة والصيت الذائع، هذا مع تلاً لأ نجمه، وبروغ فضله، واشتهار أمره، وبروز أساطين تلامذته من أعيان الإمامية، وأعظام الفقهاء والأصوليين، وأكابر الباحثين والمحققين.

وكان من الأولياء العارفين، وممن اتصف بصفات المتقين الأبرار، وتخلّى بسمات الخاشعين، فهو ذو عبادة خالصة، وتوجه قداسي عجيب، حتى قال آغا بزرك: ((كان إذا وقف للصلاة ارتعدت فرائصه، وابتلت لحيته من دموع عينيه))^(١).

وقد انطبعت هذه الظواهر العظيمة بسيرة تلامذته المقربين، فعاد كلُّ منهم نموذجاً في الزهد ورياضة النفس، وثرى خضوعهم وإنابتهم إلى الله تعالى ظاهرة لاتنفك عنهم، سيما لدى مثولهم بين يدي الله في المشاهد الشريفة، وعند أداء الصلاة، وفي زيارتهم لمراقد المعصومين.

وثمة ظاهرة أخرى تجلّت ملاحظها في الميرزا النائيني، وهي هذا الأدب الرفيع مع العلماء والمتأديين والشعب المسلم، أدباً ومعاملة وتريةً وتهذيباً، مما يطول

(١) آغا بزرك الطهراني/ نقيب البشر/ القسم الثاني/ ٥٩٤.

معه المقام، يضاف إليه مواساة الناس في أفراحهم وأحزانهم، فكأنه جزء لا يتجزأ من تركيبهم الاجتماعي.

والأهم من هذا كله، تربيته لهذه الطائفة الكبرى من تلامذته، والسهرة عليهم جداً مشفقاً موجهاً، وإزامهم بالاشتغال والتحصيل المضني ليلاً ونهاراً، وحثهم على تحمل المسؤولية، حتى بلغوا جميعاً درجات الاجتهاد، وتسمن قسم منهم سدة المرجعية العليا للإمامية في العالم.

وقد تنسب له بعض المكاشفات الروحية، والتشرف بتوجيه الأئمة الطاهرين، والظفر بجملة من الأسرار، وليس ذلك ببعيد على من نذر نفسه لإعلاء كلمة الله في الأرض، وخلق الدعاة والقادة والمجتهدين، وإعداد الجيل المؤهل لحمل الرسالة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها.

تلامذة الميرزا النائيني:

وكان من التسديد الإلهي أن وفق الميرزا النائيني لاحتضان جيل متميز من المحصلين المتخصصين، فنشأوا في مدرسته المتطورة نشأة لها آثارها الإيجابية فيما استقبل من الزمان، فأعدّهم إعداداً خاصاً لاستمرارية المسيرة العلمية في المشاهد المقدسة، وكان ثمرة هذا السعي المتواصل أن انتظم كوكبة لامعة من كبار الفقهاء ومراجع التقليد، حتى تأهل بعضهم لإدارة المنصب في قيادة المرجعية، وآخرون حذبوا على نشر أفكاره الأصولية في التدريس والبحث الخارج، مع صلاحيتهم للمرجعية، ولكنهم فضلوا دعم المسيرة بالزخم العلمي المتدفق على الابتلاء بالقيادة، فهم النور المتوهج الذي يضيء الطريق بين يدي السائرين إلى الغاية المنشودة.

ولقد مضى أكثر من سبعين عاماً على وفاة الميرزا النائيني، ولبت نداء ربها الطبقة الأولى من حملة علمه، وتشتت الطباعة الثانية في ظروف صعبة، فعزّ علينا إحصاء مئات الأساتيد من تلامذته، ومع هذا فإننا نذكر أبرزهم ممن ذاع

صيته، ونثب ما سمعناه من شيوخنا أنهم من تلامذته الأجلاء، أو ما دلت قرائن الأحوال، ومضان كتب الأبحاث الأصولية في تقريراته التي ضبطها تلامذته، أو ما ذكره لي حفيده الحجة المحقق الشيخ جعفر الغروي النائبني دام عزه.

فمنهم على سبيل النموذج هذه الكوكبة من الأعلام:

- ١- الميرزا أحمد الأشتياني.
- ٢- السيد أحمد المستنبط.
- ٣- الشيخ آغا بزرك الأشرفي الشاهرودي.
- ٤- الشيخ آغا حيدر الهمداني.
- ٥- الميرزا أسد الله الحجة الهمداني.
- ٦- الميرزا أسد الله شريعتمدار الهمداني.
- ٧- الشيخ الميرزا أسد الله الزنجاني.
- ٨- الشيخ ميرزا باقر الزنجاني.
- ٩- السيد باقر الشخص الأحسائي.
- ١٠- السيد أبو تراب القزويني.
- ١١- السيد جمال الدين الكلبيكاني.
- ١٢- السيد جواد الطباطبائي التريزي.
- ١٣- الشيخ حبيب آل إبراهيم العاملي.
- ١٤- الشيخ حسين الحلبي.
- ١٥- السيد حسين الموسوي الحمّامي.
- ١٦- الميرزا السيد حسن البجزي.
- ١٧- الميرزا حسن السبزواري.
- ١٨- الشيخ حسين الهمداني.

- ١٩- الشيخ حسن شمس الدين العاملي.
- ٢٠- الشيخ حسن فريد الكلبيكاني.
- ٢١- السيد حسن بحر العلوم الرشتي.
- ٢٢- السيد حسين الموسوي الطوي الخوانساري.
- ٢٣- السيد المرزا حسن اللواساني.
- ٢٤- الشيخ حميد آل ناجي.
- ٢٥- الشيخ خضر الدجيلي النجفي.
- ٢٦- الشيخ صفر علي العراقي.
- ٢٧- السيد صدر الدين الصدر.
- ٢٨- السيد عبد الأعلى السيزواري.
- ٢٩- السيد شهاب الدين المرعشي النجفي.
- ٣٠- الشيخ عبد الرزاق القائني.
- ٣١- السيد أبو عبد الله الزنجاني (مؤلف تأريخ القرآن).
- ٣٢- الشيخ عبد الكريم مغنية العاملي.
- ٣٣- الشيخ عبد النبي العراقي.
- ٣٤- الشيخ علي الغروي العلي باري التريزي.
- ٣٥- السيد علي مدد القائني.
- ٣٦- الشيخ علي محمد البروجردي.
- ٣٧- الشيخ عبد الحسين الحلبي.
- ٣٨- السيد علي الطباطبائي التريزي.
- ٣٩- المرزا علي الغروي النائيني (نجل المترجم له).
- ٤٠- الشيخ علي تامر النجفي.

- ٤١- السيد علي نقي النقوي الهندي.
- ٤٢- الميرزا عبد الله الطهراني.
- ٤٣- الميرزا أبو الفضل الخوانساري الأصفهاني.
- ٤٤- السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي.
- ٤٥- الشيخ أبو القاسم الشاهجراني الهمداني.
- ٤٦- الشيخ محمد إبراهيم الكرباسي النجفي.
- ٤٧- السيد محمد باقر الكاشاني المحلاقي.
- ٤٨- الشيخ محمد تقي الآملي.
- ٤٩- الشيخ محمد تقي البروجردي.
- ٥٠- السيد محمد الحسيني الهمداني (آغا نجفي / صهر المترجم).
- ٥١- الشيخ محمد الكوهستاني البهشمري.
- ٥٢- الشيخ محمد رضا الطبسي.
- ٥٣- الشيخ محمد رضا المظفر.
- ٥٤- السيد محمود الحسيني الزنجاني (إمام الجمعة).
- ٥٥- السيد محمد صادق آل بحر العلوم.
- ٥٦- السيد محمد تقي آل بحر العلوم.
- ٥٧- السيد محسن الطباطبائي الحكيم.
- ٥٨- السيد محمد حسين القاضي الطباطبائي.
- ٥٩- الشيخ محمد طاهر الشيخ راضي.
- ٦٠- السيد محمد حسن فضل الله العاملي.
- ٦١- السيد محمد باقر الشهيدي الكلبيكاني.
- ٦٢- السيد محمود ضيا بري الرشتي.

- ٦٣- السيد محمد الحجة.
- ٦٤- الشيخ محمد علي الكاظمي الجمالي الخراساني.
- ٦٥- السيد مرتضى النكرودي.
- ٦٦- السيد موسى الحصاني.
- ٦٧- الشيخ موسى الخوانساري.
- ٦٨- السيد الميرزا مهدي الحسيني الشيرازي.
- ٧٠- السيد محمود الحسيني الشاهرودي.
- ٧١- الشيخ محمد حسن المظفر.
- ٧٢- الشيخ محمد حسين المظفر.
- ٧٣- السيد نصر الله بني صدر الهمداني.
- ٧٤- السيد هادي الميلاني.
- ٧٥- الميرزا الأصفهاني، وهو من أكابر تلامذة الميرزا النائيني، وهو الذي نشر آراء أستاذه في الحوزة العلمية. بمشهد الإمام الرضا (عليه السلام)، وذلك في حياة أستاذه بعد أن درس عليه عشر سنين، وقد أحدث موجة علمية هائلة، إذ أبدى من نظريات أستاذه ماعرف به علماء خراسان، بأنه يحمل أفكاراً أصولية جديدة، ونظريات تأسيسية ابتكرها الأستاذ المحدد، وبذلك أصبح من مشاهير الأساتيد في الحوزة العلمية. بمشهد.
- وأغلب تلامذة الميرزا النائيني قد نالوا مرتبة الاجتهاد، وبلغ بعضهم مرحلة المرجعية العليا، وقد أكبّ القسم المتميز من هؤلاء على التدريس والبحث الخارج، وقد تراوح الأمد الزماني التدريسي لهؤلاء الأعلام بين الثلاثين والستين عاماً، كالسيد محسن الحكيم، والسيد أبو القاسم الخوئي، والشيخ حسين الحلبي، والميرزا باقر الزنجاني، والسيد محمود الشاهرودي، والميرزا حسن البجنوردي، والسيد هادي الميلاني، والشيخ محمد طاهر الشيخ راضي، والسيد

عبد الأعلى السيزواري، والشيخ أحمد الأشتياني، والسيد باقر الشخص، والشيخ خضر الدجيلي، والميرزا مهدي الأصفهاني، والسيد جمال الدين الكلبايكاني وأضراهم من الأعاضم.

وقد وُفقَ بعض هؤلاء التلامذة إلى طبع تقارير أستاذهم فقهاً وأصولاً، ومن أبرزهم في هذا المضمار:

١- الشيخ محمد علي الكاظمي الجمالي، كتب تقارير بحث الأصول بعنوان «فوائد الأصول» وتقارير بحث الصلاة في الفقه الاستدلالي.

٢- السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي، وقد كتب تقارير بحث الأصول بعنوان «أجود التقارير» طبع عدة مرات.

٣- الشيخ موسى الخوانساري، كتب تقارير بحث المكاسب في الفقه الاستدلالي، وعنوانه «منية الطالب».

٤- الشيخ محمد تقي الآملي، كتب تقارير بحثي الصلاة والمكاسب في الفقه الاستدلالي.

٥- الشيخ حسين الحلبي، دوّن فتاوة على أبواب الفقه العبادات والمعاملات، وحجّر تقارير بحثه الأصولية، ونشرها بين تلامذته، ومن بينهم من هم اليوم مراجع التقليد.

وهذا الشيخ بفطرته وسلامته في المسلك والمنهج قد نذر نفسه للدرس والتدريس والبحث والإفادة، وابتعد عن كل مظاهر الشهرة والإثارة، وخلق جيلاً عملاقاً من المجتهدين الأكابر. وكان مقرّباً كثيراً من أستاذه وقائماً بشؤونه.

نموذج من فتاوى الميرزا النائيني:

لقد أحسن صنعاُ سماحة الأخ العلامة الجليل الشيخ جعفر الغروي النائيني - حفيد المترجم له - بنشر وشرح الجزء الأول من «الفتاوى» لجدّه العظيم التي كانت تدوّن من قبله شخصياً، ويتولى الإجابة بنفسه عما يردّه من مختلف

الأقاليم، وبخط يده الكريمة، وكان قدس سره يتأنف باختيار اللفظ الرصين والعبارة المشرقة لتجيب الجواب.

وكان تلميذه الآية الكبرى الشيخ حسين الحلبي قد «اعتنى بهذه الأجوبة عناية تامة، حيث كان يواظب على استنساخ كل استفتاء تمت الإجابة عليه قبل أن يرسل إلى صاحبه واضعاً كل مسألة في مكانها اللائق وكتابتها المناسب من الفقه»^(١).

ولدى مراجعتي لهذه الفتاوى، وجدتُ فيها معيناً لا ينضب من الذائفة الفقهية والتدقيق العلمي، مما جعلني من النظر العالي والاستدلال العميق في أجزاء كثيرة من هذه الفتاوى.

وقد اخترت نموذجاً لهذا النحو من الاستفتاء وجهه إليه فقيه عصره السيد محسن الطباطبائي الحكيم، وأجاب عليه الميرزا بنفسه، وسأدرجه مع تعليق الشارح، وبه يتجلى ذلك الوجه المسفر لتلك القابلية الفذة التي يمتلها الميرزا النائيني، سأله السيد الحكيم قائلاً: المذكور في نجاة العباد أنه «إذا لم يتمكن المصلي من السجود على الأرض وما يلحق بها، فالأقوى إقرار الجبهة على أي شيء كان كباقي المساجد، لكن الأولى، بل الأحوط السجود على ثوبه القطن أو الكتان ثم على المعادن الأرضية كالفيروزج ونحوه ثم على ظهر الكف» وشيخنا الأعظم قدس سره في حاشيته على قوله «لكن الأولى» قوله رحمه الله «بل لا يخلو من قوة» وأمضاه العلامة المحقق الشيرازي قدس سره، وفي العروة قدّم الثوب من القطن أو الكتان وخيّر مع عدمه بين المعادن وظهر الكف، وجعل تقديم الأول أحوط، وقد أشكل علينا الوجه في كون الترتيب المذكور أقوى وأحوط، إذ ليس في النصوص تعرّض للمعادن عدا النصوص المقتضية لجواز السجود على القير والقفز^(٢)، وهي إن عمل بظاهرها وبني على التعدي

(١) جمفر النائيني / مقدمة الفتاوى ٥/١.

(٢) وهي صحاح معاوية بن عمّار الثلاث وغيرها، راجع الباب ٦ من أبواب ما يسجد عليه من الوسائل.

من موردها إلى سائر المعادن فاللازم الحكم بجواز السجود عليها اختياراً وتقديمها على القطن والكتان، وإن حملت على الضرورة -لمخالفتها للمشهور ومعارضتها بما دلّ على المنع^(١)- فلا وجه ظاهرٌ لجعلها في المرتبة الثانية لأنّ حملها على صورة تعدّر الثوب من القطن أو الكتان بعيدٌ عن سياقها^(٢)، مع أنّ فيه تقييداً لإطلاق ما دلّ على أنّه لو تعدّر السجود على الثوب سجد على ظهر كفه^(٣)، وإن حملت على التقيّة كان حال المعادن^(٤) حال سائر ما لا يجوز السجود عليه عدا الثوب والكفّ، وعليه أيضاً يشكل جعلها في الرتبة الثانية، ومع هذا كلّه فقد أمضيتم ما في العروة ولم تعلقوا عليه شيئاً فالمأمول أن تبينوا لنا وجه الترتيب المذكور ليكون أقوى وأحوط، دام فضلکم.

محسن الطباطبائي الحكيم

ج: في البحث تكلمنا في المسألة طويلاً وأوفيناها حقها، أمّا ما في متن النجاة فمحصله الفتوى بعدم ثبوت بدل بالخصوص بعد تعدّر الأرض وما بحكمها والاحتياط الاستحبابي برعاية الأبدال، وقد قويناها في مجلس البحث^(٥) وأفتينا به في الوسيلة^(٦) وقد أفتى شيخنا أستاذ الأساتيد وسيدنا الأستاذ (قدس سره) بلزوم رعاية الأبدال، وأمّا تقديم المعادن على ظهر الكفّ^(٧) فلأنّ المستفاد

(١) كصحيحة زارة ورواية محمد بن عمرو بن سعيد المانعتين عن السجود على القير والقفر والزفت، ورواية يونس بن يعقوب المانعة عن السجود على الذهب والفضة، راجع البابين ٦ و١٢ من تلك الأبواب.

(٢) كأنه لغلبة تيسر الثوب المذكور فحملها على صورة تعدّره حملٌ على الفرد النادر.

(٣) كما في رواية أبي بصير الواردة في الباب/٤.

(٤) لجواز السجود حال التقيّة على كلّ ما تقتضيه التقيّة ممّا لا يجوز السجود عليه اختياراً من دون فرقي بين المعادن وغيرها ولا ترتيب بينها، راجع الباب ٣ من الأبواب المذكورة.

(٥) أورد تفاصيل ذلك العلامة الأملي (قدس سره) في كتاب الصلاة من تقريرات بحثه الشريف (قدس سره) (٣٦٨-٣٦٩)، وتتضمن إثبات قصور أدلّة الباب عن الدلالة على جعل بدلٍ خاص.

(٦) قال (قدس سره) فيه (٩٨) «ولو لم يجد شيئاً من الثلاثة أو لم يتمكّن من السجود عليه لتقيّة أو غيرها فالأظهر عدم ثبوت بدل لها بخصوصه وإن كان الأحوط أن يسجد على ثوبه القطن والكتان إن أمكته ذلك والأفضل المعادن الأرضية والأفضل ظهر كفه».

(٧) يعني بناءً على اعتبار بدل بالخصوص أو رعاية للاحتياط.

تَمَّا يَدَلُّ عَلَى السُّجُودِ عَلَى ظَهْرِ الْكَفِّ هُوَ كَوْنُهُ الْمُرْتَبَةَ الْأَخِيرَةَ^(١)، فَيَقِيدُ إِطْلَاقَ مَا دَلَّ عَلَى السُّجُودِ عَلَى الْمَعَادِنِ بِمَا يَدَلُّ عَلَى تَعَيِّنِ السُّجُودِ عَلَى ثَوْبِهِ الْقَطْنِ أَوْ الْكَتَّانِ^(٢) وَلَا يَقِيدُ ذَلِكَ الْإِطْلَاقَ بِمَا يَدَلُّ عَلَى السُّجُودِ عَلَى ظَهْرِ الْكَفِّ — لَمَّا بِنَاه —^(٣)؛ وَعَلَى هَذَا فَلَوْ بَنِيَ عَلَى رِعَايَةِ الْإِحْتِيَاطِ بِرِعَايَةِ الْأَبْدَالِ كَانَ مَا فِي النِّجَاحِ أَوْلَى تَمَّا فِي الْعُرْوَةِ، نَكُنَّا مَا عَلَقْنَا عَلَى مَا فِي الْعُرْوَةِ لِأَنَّ سِيَاقَ مَا دَلَّ عَلَى جَوَازِ السُّجُودِ عَلَى الْقَبْرِ وَنَحْوِهِ هُوَ جَوَازُهُ اخْتِيَاراً^(٤) وَلَا بِجَمَالٍ لِلْعَمَلِ بِهَذَا الظُّهُورِ، وَتَقْيِيدِهِ بِصُورَةٍ تَعَدَّرَ السُّجُودَ عَلَى ثَوْبِهِ الْقَطْنِ أَوْ الْكَتَّانِ وَإِنْ كَانَتْ صِنَاعَةُ الْإِطْلَاقِ وَالتَّقْيِيدِ تَفْتَضِيهِ لَكِنْ يَنَافِيهِ ظُهُورُ سِيَاقِهِ^(٥)، وَنَتِيجَةُ ذَلِكَ هُوَ كَوْنُ الْمَعَادِنِ مَعَ ظَهْرِ الْكَفِّ وَسَائِرِ مَا فِي الْعَالَمِ تَمَّا يُمْكِنُ وَضْعُ الْجِبْهَةِ عَلَيْهِ فِي عَرْضِ وَاحِدٍ، فَيَكُونُ نَقْدِيمُ الْمَعَادِنِ عَلَى غَيْرِهِ أَوْلَوِيَّةً اسْتِحْبَابِيَّةً فِي أَوْلَوِيَّةٍ اسْتِحْبَابِيَّةٍ، وَقَدْ اسْتَوْفِينَا ذَلِكَ كُلَّهُ فِي مَجْلَسِ الْبَحْثِ وَأَوْفِينَاهُ حَقَّهُ مِنَ التَّنْقِيحِ، وَاللَّهُ الْعَالِمُ.

رَجَب ١٣٤٨

(١) لَعَلَّهُ بِاعْتِبَارِ كَوْنِهِ جِزْءاً مَلَاصِقاً لِلْمَصْلَبِ لَا يَفْقَدُهُ عَادَةً وَإِنْ فَقَدَ كُلَّ مَا سِوَاهُ وَمِثْلَهُ يَنَاسِبُ وَضْعُهُ فِي الْمُرْتَبَةِ الْأَخِيرَةِ، مُضَافاً إِلَى مَا فِي ذَيْلِهَا مِنَ التَّعْلِيلِ بِأَنَّهَا أَحَدُ الْمَسَاجِدِ الْمَقْصُودِ بِهِ ظَاهِراً — دَفْعَ الْاسْتِعْبَادِ النَّاشِئِ مِنْ تَوْهَمِ لَزُومِ الْمَغَايِرَةِ بَيْنَ السَّاجِدِ وَالْمَسْجِدِ.

(٢) يَمْنَى وَلَا يَقِيدُ إِطْلَاقَ الثَّانِي بِالْأَوَّلِ، وَلَعَلَّ وَجْهَهُ أَنَّ نَصُوصَ الثَّوْبِ الْبَابِ ٤ مِنْ أَبْوَابِ مَا يَسْجُدُ عَلَيْهِ مِنَ الْوَسَائِلِ تَتَكَمَّلُ جَوَازَ السُّجُودِ عَلَيْهِ عِنْدَ تَعَدُّرِ السُّجُودِ عَلَى الْأَرْضِ وَإِطْلَاقِهَا يَشْمَلُ صُورَتِي التَّمَكُّنِ مِنَ الْمَعَادِنِ وَعَدَمِهِ، أَمَّا نَصُوصُ الْقَبْرِ فَهِيَ تَنْفِي الْبِاسِ عَنِ السُّجُودِ عَلَيْهِ مَطْلَقاً وَهَذَا الطَّلَاقُ مُوَهِّبٌ بِعَدَمِ إِمْكَانِ الْأَخْذِ بِهِ فَيَقْتَصِرُ عَلَى الْمُتَيَقِّنِ مِنْ مَوْرَدِهِ وَهُوَ صُورَةٌ تَعَدَّرَ الْأَرْضَ وَالثَّوْبَ جَمِيعاً.

(٣) مِنْ ظُهُورِ نَصُوصِ ظَهْرِ الْكَفِّ فِي كَوْنِهِ الْمُرْتَبَةَ الْأَخِيرَةَ.

(٤) الظَّاهِرُ أَنَّ مِرَادَهُ (قَدَسَ سِرِّهِ) أَنَّ نَصُوصَ الْقَبْرِ لَيْسَتْ فِي مَقَامِ بَيَانِ كَوْنِهِ بَدَلاً عَمَّا يَصِحُّ السُّجُودُ عَلَيْهِ لِتَلَاخُظِ النِّسْبَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ نَصُوصِ بَدَلِيَةِ الثَّوْبِ، بَلْ ظَاهِرُ سِيَاقِهَا كَوْنُهُ بِنَفْسِهِ مِمَّا يَصِحُّ السُّجُودُ عَلَيْهِ اخْتِيَاراً، وَإِذَا لَمْ يَجَلِ لِلْعَمَلِ بِهَذَا الظُّهُورِ فَيَجْمَلُ عَلَى التَّقْيِيدِ وَنَحْوِهَا، إِذِنْ فَلَا خُصُوصِيَّةَ لِلْمَعَادِنِ فِي مَحَلِّ الْكَلَامِ، بَلْ حَكْمُهَا حَكْمُ سَائِرِ مَا فِي الْعَالَمِ وَيَقَعُ الْجَمِيعُ فِي الرُّتْبَةِ الْمَتَأَخَّرَةِ عَنِ الثَّوْبِ.

(٥) ظ: الْمِيرْزَا النَّائِيْبِي: الْفَتَاوَى/ ١٢٧-١٣٠.

وبملاحظة هذه الإجابة على الاستفتاء المذكور، تتجلى عبقرية الشيخ النائيني في خوض مفردات الفقه بأدلته التفصيلية، وتبدو تحقيقاته في هذا النوع من الإفتاء.

وللميرزا تدقيقات أصيلة في هذا الشأن، وقد اشتهر عنه التدقيق والتحقيق في حديث: لاتعاد الصلاة إلاّ من خمس، واستخراج خلل الصلاة منه، وكذا تحقيقه في حمل إشكالية أخذ الأجرة على نيابة العبادات^(١).

والتفصيل المذكور في تقرير المكاسب لتلميذه الجليلين الخوانساري والآملي لمن أراد التدقيق والاطلاع.

وقد حقق الميرزا -قدس سره- في تقسيم العقود إلى إذنية، وعهدية تنجزية، تعليقية، وأشار على أحكام كل قسم منها بذائقة فقهية سليمة. ثم أفاض القول في تحقيق قضايا العقود تحقيقاً فريداً، فبحث حقيقة الفسخ بالخيار، وحقيقة الإقالة، وحقيقة الشرط ضمن العقد بأقسامه، ومن ثم فصل القول في تقسيم إلى ما هو لازم ذاتاً كالنكاح، وأن ما يسمى باللزوم فيه بالحكمي، وما هو جائز ذاتاً، كالهبة، والجواز فيه حكمي، وما لا يقتضي شيئاً منها كالبيع والإجارة، والرزوم والجواز فيه حقي، واختصاص الفسخ والإقالة بهذا الأخير.

ومن جملة مبانيه الدقيقة (قدس سره) بناؤه أن كلّ حكم ترخيصي عُلق على أمر وجودي، فهو يدل بالدلالة الالتزامية على إناطة الرخصة بإحراز ذلك الأمر، وعدم جواز الاقتحام مع الشك فيه، وفرّع على هذه القاعدة فروعاً فقهية مهمة^(٢).

مبتكرات الميرزا في علم الأصول:

يعتبر الميرزا النائيني مجدداً لعلم الأصول دون مغالاة في الأمر، ومتضلعاً بخفائيه الدقيقة، وتطوير تدريسه في المباني والمطالب العليا، ومبتكراً لكثير من أبعاده بما وضعه من قواعد عامة.

(١) ظ: الميرزا النائيني / الفتاوى ١/ ١٥٠.

(٢) ظ: الميرزا النائيني / تعليقه على العروة الوثقى / كتاب النكاح / المسألة ٥٠ / فقد أشار فيها إلى عمدة التفريعات في الموضوع.

يقول الشيخ آغا بزرك عنه:

«أما هو في علم الأصول فأمرٌ عظيم، لأنه أحاط بكلياته، ودققه تدقيقاً مدهشاً، وأتقنه إتقاناً غريباً، وقد رنّ الفضاء بأقواله ونظرياته العميقة، كما انطبعت أفكار أكثر المعاصرين بطابع خاص من آرائه حتى عدّ مجدداً في هذا العلم، كما عدّت نظرياته ممانلة لنظريات الآخوند الخراساني. وإن لبحته ميزة خاصة، لدقة مسلكه، وغموض تحقيقاته، فلا يحضره إلاّ ذوو الكفاءة من أهل النظر، ولا مجال فيه للناشئين والمتوسطين، لقصورهم عن الاستفادة منه، لذلك كان تلامذته المختصون به هم الذين تعلق عليهم الآمال، وهكذا برز فيهم أفاضاً أصبحوا اليوم قادة الحركة العلمية والفكرية والمدرسين المشاهير»^(١).

ويبدو أن بحثه العالي الخارج قد بدأ بعد وفاة زعيم الأحرار المولى الشيخ محمد كاظم الخراساني في ١٣٢٩هـ / ١٩١١م مباشرة، حيث استقل بالتدريس، واشتهر بدقائق النظر والتعمق الأصولي في مرجعية شيخ الشريعة الأصفهاني، ولدى وفاته في ١٣٣٩هـ ذاع صدى الميرزا النائيني في الآفاق، ورجع إليه في التقليد على القوم، وأرباب الفضل، ورجال الأمة، والجماهير في الأقاليم.

وكان وكده في تطور علم الأصول، وتخريج طبقة من العباقرة الذين يمددون من معالم هذا العلم، ولقد قلت في رثاء تلميذه الإمام أبو القاسم الخوئي (ت ١٤١٣هـ):

والنائيني أعدتْهُ ببحوثٍ حياً.. وزدت أصوله تأصيلاً
وذكرت في ترجمته (قدس سره) ابتكاراته في علم الأصول التي هي امتداد
لابتكارات أستاذه الميرزا النائيني (قدس سره)^(٢).

(١) آغا بزرك/ طبقات اعلام الشيعة/ نقيب البشر في القرن الرابع عشر ١/ القسم الثاني/ ٥٩٤-٥٩٥.

(٢) ظ: المؤلف/ أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف/ ٢٢١-٢٢٧.

وهنا أذكر شيئاً من ابتكارات الميرزا في علم الأصول على شكل نقاط، وهي جميعاً على سبيل النموذج والمثال لا الإحصاء.

١- إيجادية المعاني الحرفية: يرى الميرزا قدس سره أن المعاني الحرفية ليست إخطارية كالإسمية، بل هي إيجادية توجد بأدواتها في وعاء الاستعمال كما يوجد المصداق من النداء والخطاب -خارجاً- باستعمال لفظة (يا) وكاف الخطاب. فكلمة (من) لا تحكي عن مفهوم الابتداء الذي موطنه العقل كما تحكي كلمة الابتداء نفسها عنه، وإنما يوجد بها في موطن الاستعمال ربط خاص بين المفاهيم الإسمية المقررة في وعاء العقل، فالكلمتان متغيرتان معنىً هويةً وذاتاً، ونسبة الأول إلى الثاني نسبة المصداق إلى المفهوم^(١).

وقد صنف الميرزا قدس سره في هذه المسألة رسالة مستقلة لم تزل خطية، كما أفاد حفيده الشيخ جعفر الغروي النائيني.

٢- الأحكام الشرعية قضايا حقيقية لا خارجية: وكان من النظر العلمي الدقيق وأهمه عائدية، تلك النظرة التي عليها مدار الأبحاث الأصولية، بل هي أساس الأصول، القول أن الأحكام الشرعية شأنها شأن القوانين الوضعية فهي مجعولة على نهج القضايا الحقيقية، يعني أنها مجعولة حكماً كلياً على موضوعه في الخارج، وقبله لا تحقق للحكم بالنسبة إلى ذلك الموضوع إلا شأناً، وينحل الحكم الكلي الواحد إلى أحكام شخصية متعددة حسب تعدد أفراد موضوعه خارجاً، وقد أنشئت -مسبقاً- جميعها بإنشاء واحد انحلائي، كما يجبر عن كل ماء يوجد في الخارج بأنه باردٌ بالطبع بأخبار كلي واحد، وقد بين (قدس سره) وجوه الفرق بين القضيتين الحقيقية والخارجية، وجعل الخلط بينهما وتحليل مجعولية الأحكام على نحو القضية الخارجية منشأ لوقوع

(١) ظ: محمد علي الجمالي الكاظمي / فوائد الأصول ٤٢/١ وما بعدها طبعة جماعة المدرسين / قم + الخوئي / اجود التقريرات ٢٢/١ وما بعدها طبعة مؤسسة صاحب الأمر / قم.

أخطاء في كثير من المسائل الأصولية، وقد أشار إليها في مواضعها من البحث^(١).

٣- مراتب الحكم التكليفي: وقد حصر الميرزا النائيني مراتب الحكم التكليفي في ثلاث ظواهر: الحكم الشأني، والحكم الفعلي والحكم المنجز. وباعتبار أن الحكم الشأني لا وجود له فعلاً بل قوة، فهو في قوة الوجود لا الوجود ذاته، فنحصر - حيثئذٍ - مراتب الحكم الحقيقي في مرتبتين هما: الحكم الفعلي والحكم المنجز^(٢).

٤- تقسيم الأحكام الشرعية: وقد قسم (قدس سره) الأحكام الشرعية إلى أربعة أقسام:

الأول: ما لا تعلق له بموضوع خارجي كالتكلم.

الثاني: ما له تعلق بموضوع خارجي شخصي كاستقبال القبلة.

الثالث: ما له تعلق بعنوان كلي أُخِذَ بلحاظ صرف وجوده كالوضوء بالماء.

الرابع: ما له تعلق به لكن أُخِذَ العنوان بلحاظ مطلق وجوده، كوجوب الوفاء بكل عقد، وحرمة شرب كل خمرة.

ويترتب على كل من هذه الأقسام أحكام خاصة لاسيما في مسألة تصوير الشبهة المصدقية لكل منها وحكمها.

والشبهة المصدقية هي التي دعت (قدس سره) على بسط الكلام تفصيلاً في هذا المجال، بما لم يُسبق إليه^(٣).

٥- حديث متمم الجمل: يرى الميرزا النائيني (قدس سره) أنه يستحيل كل من الاطلاق والتقييد في الجمل الأول في موارد الانقسامات الثانوية - وهي

(١) الميرزا النائيني / الصلاة في المشكوك / ١٩٢ وما بعدها + الخوئي. أجود التقارير

١٨٦/١ وما بعدها + الجمالي / فوائد الأصول / ١٧٠/١ وما بعدها.

(٢) الميرزا النائيني / الصلاة في المشكوك / ١٩٦ وما بعدها + الخوئي / أجود التقارير

١٨٩/١ + الجمالي / فوائد الأصول / ١٧٥/١.

(٣) الميرزا النائيني / الصلاة في المشكوك / ١٨٨-١٩٢ + ٢٠٠-٢٣٦.

الانقسامات المتأخرة عن الحكم - لمتعلق الحكم أو موضوعه في مرحلتي الجعل والفعلية إن كان انقساماً للموضوع، وفي مراحل الجعل والفعلية والامتنال إن كان انقساماً للمتعلق، ولأجله لا يحصى لتشريع الحكم على نحو يفهم بالملك الواقعي في هذه الموارد عن التوسل إلى متمم الجعل^(١).

وقد توسع قدس سره في البحث في رسالة الصلاة في المشكوك، ووضع ضوابطه العامة^(٢).

فجعل عنوان المسألة كلّ ما يقصر الخطاب الواحد عن استيفاء تمام ما يقتضيه ملاك، وجعل منشأ القصور اختلاف المرتبة، وجعل الاختلاف على خمسة أنحاء، كما صنف الخطاب المتمم نفسه الذي به يتدارك القصور المذكور في ثلاثة أصناف^(٣).

٦-٧ - قاعدتا التراحم والترتب: وقد شيد -أعلى الله منزلته- دعائم القاعدتين المذكورتين، وأحكم أركانهما. أمّا التراحم فقد استوعب أبحاثه ضمن مقامات ثلاثة:

الأول: البحث عن حقيقة التراحم بين الحكمين، ووجوه الفرق بينه وبين تعارض الدليلين.

الثاني: عرض لأسباب التراحم وجمّعها في خمسة أسباب.

الثالث: تحدث بعمق وأصالة عن علاج التراحم من ترجيح أو تخيير مبيّناً وجوه الترجيح المستعملة في هذا الباب.

وأما الترتب؛ فوضعه في خمس مسائل عدد فيها أسباب التراحم باعتبار أن الترتب متفرع على التراحم، وبرهن -أعلى الله مقامه- على إمكان الترتب

(١) ظ: الجمالي / فوائد الأصول ١/١٤٥ وما بعدها + الخوئي / أجود التقريرات ١/١٥٧.

(٢) ظ: الميرزا النائيني / الصلاة في المشكوك / ٢٢١ وما بعدها.

(٣) الميرزا النائيني / الصلاة في المشكوك / ٢٢٢ وما بعدها + يراجع: الخوئي / أجود التقريرات ٣/١٤٢ وما بعدها.

وصحته في بعض مسائله الخمس، بما قلّ نظيره في الدقة والاستيعاب، وقد عرض لهذا كله في مبحث: النهي عن الضد من الأصول في تقريراته.

٨- العلل الشرعية: يعدّ الميرزا النائيني أول من حقق وتعمّق في مبحث العلل الشرعية، ووضع قواعدها العامة لكلتا المرحلتين: الثبوت والاثبات، فقسّم التعليقات الشرعية إلى أربعة أقسام:

١- حكمة التشريع التي لا اطّراد لها ولا انعكاس.

٢- ما هو واسطة في العروض، وفي قوة الكبرى الكلية، فيطرد وينعكس.

٣- ما هو واسطة في الثبوت، وهو قسمان:

أحدهما ما يلحق بحكمة التشريع فليس مطّرداً ولا منعكساً. وهذا هو القسم الثالث.

والثاني: ما هو مثلها في عدم الاطّراد لكنه منعكس، وهو القسم الرابع.

وقد أقام قدس سره البرهان على اختصاص الثاني -الواسطة في العروض- بصلاحيته لشمول غير مورده، وفي مقام الاثبات أبان ما هو الظاهر الأولي للتعلييل الشرعي وجعلهُ الأصل، ثم بيّن وعيّن الضوابط التي توجب الخروج عن هذا الأصل.

وقد أبدى قدس سره في ذلك كلّه مقدرته العلمية الفذة بروح موضوعية، وروحية متواضعة لا يشعر بما ادّعاء أو أنانية، وإنما كان ذلك خالصاً لوجهه تعالى.

فجزاه الله عن الإسلام وأهله، وعن العلم وحملته خير الجزاء^(١).

٩- استصحاب العدم الأزلي:

في موضوع استصحاب العدم الأزلي، أحاط الميرزا النائيني بدقائقه، وأزاح الستار عن غوامضه، وبرهن على اختياره بأقوم برهان وأرصن دليل، وأبان

(١) ظ: الميرزا النائيني / الصلاة في المشكوك / ١٧-٢٣.

مواضع الخلط والاشتباه بأقوى بيان، والمسألة المذكورة في مباحث العام والخاص من الأصول، والميرزا أتى بما فوق المنال في بحثها الذي أظهر فيه تحقيقاً حول أجزاء القضية بما لم يسبق إليه باحث منطقي أو فلسفي^(١).

١٠- الإنسان مختار في أفعاله، في البحث الكلامي الاستطرادي في علم الأصول، وضمن مبحث الطلب والإرادة، إختار صاحب الكفاية قدس سره مذهب بعض الفلاسفة والمتكلمين، وملخصه: أن الإنسان تصدر عنه أفعاله عن إرادة، فهو -إذن- مختار في أفعاله، لأن الاختيار عندهم هو كون الفعل صادراً عن إرادة، وإن كانت الإرادة ضرورية الحصول له ومعلولة لعلل سابقة من تصور وميل وعزم ونحوها.

وهذه العلل أيضاً معلولة لسعادته أو شقاوته المستندة إلى إرادة الله سبحانه وتعالى بنظام الخلقة، لكن بما أن هذا وإن سمي اختياراً، فهو جبرٌ حقيقةً لانتهائه إليه، فلاجله رده الميرزا النائيني، وذهب أن النفس وإن كان يطرأ عليها تلك الكيفيات دون اختيارها، إلا أن شيئاً منها لايلجئها إلى الفعل أو الترك، ذلك لأن لها وراء هذه الصفات صفةً أخرى بها يصدر منها الاختيار، وهي سلطنتها المطلقة على مملكة البدن، وسيطرتهما على قواه الفاعلة، واقتدارها التام على تدبيره وتوجيهه بحكم الضرورة والوجدان، فهي بسلطنتها هذه تختار الفعل وتحرك العضلات نحوه، أو تختار الترك فتمسكها عنه، وبعبارة أخرى: النفس تؤثر تأثيراً مباشراً فيما تختاره، فتكون هي العلة الفاعلة أو التاركة^(٢).

١١- التردد بين الأقل والأكثر: أضاف الميرزا النائيني قدس سره على أقسام الشبهة الدائر أمرها بين الأقل والأكثر قسماً أهمله القوم، وهو ما إذا كان التردد بين الأقل والأكثر ناشئاً عن شبهة خارجية، وخصه بموارد الشك

(١) ظ: الميرزا النائيني / الصلاة في المشكوك / ٤٠٣-٤٥٧.

(٢) ظ: السيد الخوئي/ أجود التقريرات ١/١٢٧ وما بعدها، وهو من إفاضات وتوضيح

الشيخ جعفر الغروي النائيني دام علاه.

في المانعية، وجعل محل البحث في اللباس المشكوك وأشباهه من هذا القسم، واستدل على جريان البراءة فيه بما لا فريد^(١).

١٢ - شذرات أصولية مختارة: المتمعن بآثار الشيخ النائيني الأصولية في إفاضاته وتقريراته يجد تحقيقاته منتشرة في أكثر المسائل، وقلّت مسألة ليس له فيها نظر أو تحقيق أو إفادة أو تدقيق أو استدراك أو تعليق، وقد أفدت كثيراً من تسليط الضوء على ذلك من أخي العالم المدقق المحقق الشيخ جعفر الغروي النائيني حفيد الميرزا. فكان له الفضل في التنبيه عليها والإشارة إليها، وفيما يأتي نماذج من ذلك:

- في مبحث الصحيح والأعم، ذهب قدس سره أن ملاكات الأحكام تكون من قبيل الدواعي دون المسببات التوليدية، ونسبة فعل المكلف إلى الملاك نسبة المقدمة الإعدادية لا السبب التوليدي.

- ذهب (قدس سره) في المبحث عنه: أن باب العقود والايقاعات ليس من قبيل الأسباب والمسببات بل من باب الإيجاد بالآلة.

- وفي مبحث دلالة صيغة الأمر، ذهب أن الأصل في الأوامر الشرعية الوجوب لحكم العقل بوجوب امتثال كل أمر صدر من المولى عزّ وجل ما لم يتم دليل على الترخيص في المخالفة، وعليه فإطلاق الأمر يقتضي الوجوب إلا إذا قامت القرينة على الاستحباب.

- ويرى (قدس سره) أن الأصل - في مبحث التعبدية والتوصلي - هو التعبدية. بمعنى اعتبار المباشرة في العمل، واعتبار صدوره عن إرادة واختيار واعتبار... وأن لا يقع الواجب ضمن الفرد المحرّم.

- وفي مبحث الواجب المشروط، ذهب أعلى الله درجاته: أن القيد في الواجبات المشروطة لا يرجع إلى الهيئة ولا إلى المادة، بل إلى المحمول المنتسب.

(١) ظ: الميرزا النائيني / الصلاة في المشكوك: ٨٨، وما بعدها.

- وفي المبحث نفسه: حقق في مقام البرهنة على امتناع الواجب المعلق.
- وفي مبحث مقدمة الواجب: حقق تحقيقاً استدلالياً على امتناع الشرط المتأخر.
- وفي مبحث الواجب المطلق والمشروط: حقق في مسألة المقدمات المفوتة - وهي المقدمات اللازم فعلها قبل وجوب ذي المقدمة - وحلّ الأشكال بعد تقسيمها إلى أربعة أقسام.
- وفي مبحث الوجوب النفسي والغيري، ذهب إلى قاعدة اتحاد الوجوبين، أو الوجوب والاستحباب مع وحدة المتعلق، وتعددهما مع تعدده.
- وقد فرق (قدس سره) بين موضوعات الأحكام وعلل الشرائع، وبتعبير آخر: فرّق بين شرائط الجعل وشرائط الجمول^(١).
- وذهب بتحقيقه إلى تأخر رتبة المانع من المقتضي مانعية وجود أحد الضدّين للآخر، وامتناع الجمع بين شرطية أحد الضدّين ومانعية الآخر^(٢).
- وفي مبحث (اجتماع الأمر والنهي) كان له القدح المعلن في جملة من التحقيقات وكان منها بناؤه في مبحث النهي عن العبادة والمعاملة على أن حرمة المعاملة توجب الحجر وسلب السلطنة عنها ففسد، ونحوها النذر والشرط ضمن العقد اللازم.
- وذهب قدس سره إلى تقسيم حكم العقل إلى ما له ملاك واحد يعمّ صورة الشك كما في التشريع المحرّم، وإلى ما له ملاك واقع وآخر طريقي^(٣).

(١) ظ: الميرزا النائيني / الصلاة في المشكوك / ١٩٣ وما بعدها + فوائد الأصول.

للجمالي ٢٧٧/١ + الخوئي / اجود التقريرات / ٢٢٥.

(٢) ظ: الميرزا النائيني / الصلاة في المشكوك / ١٢٢ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه + مباحث الأصول العملية في تقرير الجمالي، الخوئي.

- وقد فرّق أعلى الله مقامه بين الموضوع المركب والموضوع البسيط المتترع أو الملازم للمركب، وما هي القاعدة لجريان الأصل في بعض أجزاء الموضوع المركب إذا أحرز بعضها الآخر بالوجدان^(١).
- وقد قسّم (قدس سره) القدرة المشروط بها التكاليف إلى عقلية وشرعية، وبين وجوه الفرق بينهما، وحكم الشك في القدرة بكل من قسمها^(٢).
- وقد حقق طاب ثراه في مسألة قيام الأمارات والأصول مقام القطع، وقد عدّ مراتب أربعاً للعلم، واعتبر الرابعة جهتين قابلتين للجعل التشريعي، أولاهما مجعولة للأمارات والثانية للأصول المحرزة^(٣).
- وقد جعل رفع الله منزلته مراتب الامتثال أربعاً: الامتثال العلمي التفصيلي، والامتثال العلمي الإجمالي، والظني والاحتمالي^(٤).
- وقد حقق (قدس سره) في مسألة الجمع بين الأحكام الواقعية والظاهرية في كل من موارد الأمارات والأصول المحرزة والمحصنة^(٥).
- وقد حقق أيضاً في بيان الفارق بين التخصص والتخصيص، والحكومة والورود، وقسّم الحكومة إلى واقعية وظاهرية^(٦).
- وهذه المسائل الأصولية قد لا يكون بعضها مبتكراً، ولكنه حقق فيها تحقّقاً دقيقاً، بما يعتبر فتحاً أصولياً كبيراً، وغيرها كثير.

حياة الميرزا السياسية:

وهناك جانب مشرق من جوانب الميرزا النائيني يضاف إلى حياته العلمية، ويتمثل هذا الجانب في نضاله السياسي ضد الاستعمار العالمي في أشكاله

(١) النائيني / الصلاة في المشكوك / ٢٧٨ و ٤١٣ وفي التقريرين في مبحث الخاص والعام.

(٢) المصدر نفسه / ٢١٣ + أبحاث البراءة والاشتغال في التقريرين.

(٣) ظ: الخوئي / أجود التقريرات ٢/٢٠.

(٤) ظ: الجمالي الكاظمي / فوائد الأصول ٢/٦٩.

(٥) ظ: مبحث حجية الأمارات في تقرير الجمالي والخوئي.

(٦) ظ: الخوئي / أجود التقريرات ٢/٢٨٣ + ٤/١٩١ و ٢٨٠.

المتنوعة، فقد كان (قدس سره) على مدى إنشغاله بالجدّ والتحصيل والدراسة، ركناً قوياً من أركان التوجيه السياسي الرشيد للطائفة الإمامية والإسلام في العالم، فهو شعلة متوقدة من الوعي والغيرة والتفكير بمشكلات الأمة وتطلعات الوطن. فقد كان زعيم الأحرار المولى الشيخ محمد كاظم الآخوند الخراساني مناهضاً للإستبداد والدكتاتورية، مطالباً بالدستور الذي يقيد رئيس الدولة بمجلس شوروي وقانون يلتزم الإسلام ديناً، والديمقراطية مبدأ، وحكم الشعب بقيادة الفقهاء بمحدود معينة، وذلك في عام ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م.

وكان الميرزا النائيني من دعاة هذا الاتجاه، فوقف إلى جنب الآخوند معاضداً ومسانداً، وألف كتابه الجليل «تنبيه الأمة وتزيه الملة». وسيأتي الحديث عنه. وحينما توج الملك فيصل الأول -رحمه الله- ملكاً على العراق في آب/ ١٩٢١م في ظل الاحتلال البريطاني، وكان الانتداب البريطاني قد رشّح عبد الرحمن النقيب لرئاسة الوزارة فيما يسمى بالاستقلال، وكان المراجع العظام في ريبة من الأمر وشك في النوايا، وحينما أزمعت الحكومة على تشكيل المجلس التأسيسي في ١٩٢٤م وهو عبارة عن مجلس للنواب في انتخاب صوري مزيف، كان الإمام الشيخ مهدي الخالصي (قدس سره) قد أفتى بجرمة الانتخاب وكذلك الميرزا النائيني والسيد أبو الحسن الأصفهاني، والسيد محمد الفيروز آبادي، وبقية العلماء، واعتبروا أن الاستقلال اسمي، وأن الدكتور المزمع التصويت عليه من قبل المجلس قد وضع من قبل الانكليز، فحرّم هؤلاء جميعاً المشاركة في الانتخابات التي يسيّرهما الاحتلال البريطاني. وقام الشيخ الخالصي على الفور بخلع بيعة الملك فيصل الأول، وأعلن ذلك في كربلاء المقدسة لدى إحدى المواسم الحافلة بالزائرين، لأن الملك لم يحقق ولا يحقق طموح الشعب العراقي في الحرية والاستقلال التام، فقررت الحكومة العراقية تسفير الشيخ الخالصي، فقبض عليه عبد المحسن السعدون -رئيس الوزراء العراقي المنتحَر- ووجه له كلاماً خشناً، ونفّذ نفيه من العراق، فذهب إلى الحجاز، ومنها إلى

خراسان، حيث استقر فيها. وتضامناً معه، وقياماً بالتكليف الشرعي، فقد قرر الميرزا النائيني والسيد أبو الحسن مغادرة العراق احتجاجاً على نفي الشيخ الخالصي، فغادراها، وبمعيتهما -على ما سمعت- ثلاثمائة من علماء وأساتيد وطلاب الحوزة العلمية في النجف الأشرف وكربلاء المقدسة.

كان هذا القرار قد أحدث ضجة كبرى في العراق، فهؤلاء المغادرون هم قادة التحرير للبلاد، وقامت المظاهرات على قدم وساق في جنوب العراق والفرات الأوسط والكاظمية المقدسة والمشاهد المشرقة، وبعد حين -تسعة شهور- اضطرت الحكومة إلى إرسال وفد لمفاوضة العلماء لتهدئة الأوضاع واستتباب الأمن، فعاد الميرزا النائيني والسيد أبو الحسن إلى النجف الأشرف، لرعاية شؤون الحوزة العلمية، والقيام بأعباء المرجعية، وإحياء معالم البحث العلمي والتدريس.

لقد احتفى زعيم قم المقدسة ومؤسس حوزتها العلمية آية الله الشيخ عبد الكريم الخائري اليزدي بالميرزا والأصفهاني وقابلهما بالترحاب العظيم، وأمر تلامذته وطلابه والأساتيد بحضور درسي العلمين المذكورين.

ورفض الشيخ مهدي الخالصي (قدس سره) العودة إلى البلاد، وفاجأه القدر، فتوفي متأثراً بآلامه وهمومه وأحزانه عام ١٩٢٥م، وأحدثت وفاته دويماً هائلاً في العراق، وقامت المظاهرات، وأقيمت الفواتح، ورثاه أعلام الشعر العربي، كل ذلك أوجد شقة بعيدة بين الدولة والمرجعية الدينية وحتى اليوم.

إذن عاد الميرزا النائيني إلى النجف الأشرف، واتجه اتجاهها متكاملاً لإعداد الجيل الناهض لحمل الرسالة بأمانة وإخلاص.

وآراء الميرزا النائيني السياسية ترجمها كتابه «تنبيه الأمة وتريه الملة» وقد طبع لأول مرة في النجف الأشرف ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م وأعيد طبعه في إيران عام ١٩٥١م/ ثم أعيد نشره في مجلة الموسم الهولندية^(١).

(١) مجلة الموسم/ برئاسة تحرير الأستاذ محمد سعيد الطريحي/ عدده/ ج٢ / ١٩٩٠م.

وترجمه الأستاذ عبد الحسن آل نجف عن الفارسية، ونشر بتحقيق الأستاذ عبد الكريم آل نجف / ١٤١٩ هـ.

وترجمه أيضاً الأستاذ توفيق السيف / بيروت / ١٩٩٩ م ونشرها أخيراً - اعتماداً على هذا الأصل - الأستاذ المحقق كامل سلمان الجبوري، واعتبرها الملحق رقم (٢) لمذكرات الأستاذ الجليل السيد محمد علي كمال الدين رحمه الله «النحف في ربع قرن» وقد شملت مساحة النشر الصفحات ٤٤٧ إلى ٥٥٢. وكان آخرها مرموقاً: «وبه ختم على يد مصنفه الفقير الجاني محمد حسين الغروي النائيني / في الوادي المقدس الغري على مشرفها أفضل الصلاة والتسليم / في شهر ربيع الأول سنة ألف وثلاثمائة وسبع وعشرين من الهجرة المقدسة / على مهاجرها وآله أفضل الصلاة والسلام».

وقد قرض الكتاب من قبل العلمين البارزين المولى محمد كاظم الخراساني والشيخ عبد الله المازندراني.

١- قال الآخوند الخراساني في قريضه: «هذه الرسالة الشريفة من إفاضات جناب مدار الشريعة، صفوة الفقهاء والمجتهدين، ثقة الإسلام والمسلمين، العالم العامل آغا ميرزا محمد حسين النائيني الغروي دامت إفاضاته، أجل من أن تمجد، وحرى أن تكون دراستها وتدريسها، سبيلاً إلى إدراك أن أصول المشروطة مستمدة من الشريعة الحقّة، وهي مفاد وحقيقة الكلمة المباركة «عمواتكم علّمنا الله معالم ديننا، وأصلح ما كان فسد من دنيانا» أرجو أن يدرك ذلك بعين اليقين إن شاء الله.

ربيع الأول / سنة ١٣٢٧ هـ حرره الأحمق الجاني محمد كاظم الخراساني

٢- تقرّض الشيخ المازندراني: بحمد الله وتأييده، فإن الرسالة الشريفة: (تنبيه الأمة وتزيتها الملة) كما تفضل الآخوند أجل من أن تمجد، وهي كافية لتعزيز اعتقاد المسلمين وتصديقهم وجدانياً، بما هو ثابت من أن جميع الأصول

والمباني السياسية المستفادة والنابعة من دين الإسلام القويم، كافية وفوق ما يؤمل، فله درّ مصنفه المحقق، وجزاه الله عن الإسلام وأهله خيراً، وكثر في الفقهاء والمجتهدين أمثاله، بمحمد وآله الطاهرين، صلوات الله عليهم أجمعين.

في شهر ربيع الأول/ ١٣٢٧هـ — حرره الأحمق عبد الله المازندراني

والرسالة أهميتها القصوى في تلك الظروف التي صحا فيها المسلمون من غفوتهم الغارقة في ظل التخدير السياسي، وتكمن تلك الأهمية في الكشف عن الرأي التشريعي للإسلام في أنظمة الحياة السياسية، وإدارة شؤون الدولة. وقد انتظمت الرسالة في تمهيد ومقدمة وخمسة فصول.

تحدث المؤلف بلغة سليمة في التمهيد عن تأريخ الحروب الصليبية ومقاومتها للإسلام والمسلمين، وأثبت فشلها سياسياً وعسكرياً، وبيّن أسباب ذلك الفشل بما حمل الأوربيين على البحث عن أصول التمرد الإسلامي وسياسة الإسلام، فأفادوا منها علماً وفاعليةً، بينما ابتعد المسلمون عن الكتاب والسنة وسيرة أهل البيت (عليه السلام)، فأصيبوا بالخور والفشل، ثم استعاد المسلمون وعيهم بفضل مراجعهم، وتوّرت عقولهم، وبدأوا يشعرون بالمسؤولية لاستعادة حريتهم وتقرير مصيرهم، «وكان مما أثلج الصدر قيام حجج الإسلام مراجع النجف الأشرف، وهم رؤساء الشيعة الاثني عشرية بأصدار الأحكام التي فضحت الاستبداد... ثم التعقيب عليها بفتوى المشيخة الإسلامية في اسطنبول وهي مرجعية أهل السنة، لقد كانت هذه الخطوة ضرورية لتبرئة ساحة الإسلام المقدس من تلك الأحكام الجورية».

وجاءت مقدمة الرسالة حافلة بتحليل حقيقة الاستبداد ومشروعية دستورية الدولة، والتدليل على أصالة الدستور ومجلس الشورى الوطني، وتوضيح معنى الحرية والمساواة، كل ذلك بقلم مشرق، وأسلوب رفيع، وذهنية عالية، وموضوعات مهمة أساسية استغرقت ثلاثين صفحة من الكتاب.

ثم كان الفصل الأول في التدليل العلمي أن جعل السلطة مكان ولاية، وأن تحولها إلى التمليكية من بدع الطواغيت والظالمين، وفيه مقامان:

الأول: في أصالة تحديد السلطة شرعاً.

والثاني: في درجة محدودية السلطة.

وقد أفاض فيهما القول بما لا مزيد عليه نصوصاً واستنباطاً.

وكان الفصل الثاني خاصاً في بيان التكليف الشرعي في عصر غيبة الإمام عجل الله فرجه، وذهب فيه أن الولايات النوعية (العامة) التي حُلِمَ عدم رضا الشارع بإمامها في زمن الغيبة، تدرج تحت عنوان (الوظائف الحسينية)، وفي رأينا أن قيام فقهاء عصر الغيبة بما نيابة عن المعصوم من الثوابت، وهي القدر المتيقن في مقام (ولاية الفقيه) حتى مع عدم ثبوت النيابة العامة في جميع المناصب، وبالنظر إلى قطعية عدم رضا الشارع باختلال نظام الأمة، وذهاب بيضة الإسلام، فإن عدم رضاه عن إهمال الوظائف المتعلقة بحفظ البلاد الإسلامية وصيانة نظامها، هو -تبعاً لذلك- من أوضح القطعيات.

إن هذه الوظائف، بالنظر إلى تأثيراتها الكبرى على الإسلام والمسلمين، من أهم الأمور الحسينية، بل أهمها جميعاً، ولهذا فإن ثبوت نيابة الفقهاء والنواب العامين للإمام (عليه السلام) في عصر الغيبة، في إقامة تلك الوظائف، من قطعيات المذهب.

وكان الفصل الثالث يدور في فلك متطور في العرض والأسلوب في أن المشروطة في ركنيتها (الحرية والمساواة) الوسيلة المتيقنة والمأمونة لتحديد السلطة في ثلاثة مطالب:

الأول: بحث مبدأ الشورى، مع ملاحظة أن الأحكام الشرعية خارجة عن مقام الشورى، وخروجها من باب التخصص والتخصيص، وأن النبي (صلى الله عليه وآله) كان يشاور في الأمور العامة، وقد يستفاد من الروايات موافقته على رأي الأكرية.

المطلب الثاني: معالجة الحال في الظروف الراهنة المحرومة من الحضور المبارك للمعصوم، والابتلاء بالجهلة والظلمة والفاستدين، وأن التكليف الشرعي يقضي بحفظ الحد الأدنى المتفق عليه بين الأمة، وهو تحديد السلطة، وحفظ أساس الحكم الشوروي بإقامة الهيئة المسددة لسياسة الحاكم، والرادعة له عن ارتكاب الآثام والمظالم.

والمطلب الثالث: تحدث عن إحلال الهيئة المسددة، وهو القدر الممكن في غياب المعصوم كما عليه أصول مذهبنا، والركن الأعظم للقيام بهذه المهمة في ترتيب دستور الدولة.

واعتبر (قدس سره) أن هذه المطلب لا تتحقق إلا بقيام النظام على الأصلين المهمين في الموضوع، وهما: الحرية والمساواة، وكان ما طرحه فصلاً متميزاً فريداً. وكان الفصل الرابع في ردّ الشبهات وموارد الاعتراض -مما لا أساس له- في أفكار الطواغيت والظلمة والمستبدين كمسألتي الحرية والمساواة، ومسألة الدستور بخاصة، وقد تكفل بنقض ما أبرموا، وردّ جميع المغالطات في بيان معنى البدعة أولاً، وبيان تصنيف الواجب إلى واجب بالذات، وواجب لغيره، وذلك لتنفيذ الادعاءات القائلة بأن التقيد بالدستور تشريع في قبال التشريع.

ومن هنا أورد الشبهات التي تمسك بها أعداد النظام الدستوري، كالقول بأن عقد المجلس النيابي تدخل في شأن الأمة!! والقول بأن انتخاب المجلس حقّ لنواب الإمام وحدهم، وردّ ذلك بالأدلة العلمية القاهرة، وبحث ضمن ذلك ولاية المجتهد المطلق وعدول المؤمنين، بما يكفي فيه حصول المتصدي على إذن المجتهد دون أن يباشر المجتهد ذلك بنفسه.

ومن الشبهات التي أثّرت حول الحكم الدستوري ونظامه: عدم انطباق تمثيل النواب للشعب على باب الوكالة الشرعية، وكذلك القول بفساد التعويل على آراء الأكثرية، ففند ذلك. ثم عرض المصنف لمغالطات أخرى أثّرت جزافاً لعرقله الحياة الدستورية، وفنّدها واحدة واحدة.

وكان الفصل الخامس غنياً بالإفاضة في شرائط صحة ومشروعية تدخل النواب في الأمور السياسية، وبيان وظائفهم وما ينبغي توفّره في كل عضو من أعضاء مجلس الشورى من العلم، والتزاهة، والحرص على الدين والوطن، ومن ثم مسؤولية التصويت لأكفاء المرشحين لعضوية المجلس، بعد ذلك عرض لوظائف ممثلي الأمة الأساسية، وحصرها في ثلاث:

١- في الأموال العامة؛ موارد ومصارفها.

٢- تقنين القوانين ومطابقتها بأحكام الشريعة المقدسة على أحكام منصوص عليها، وعلى الشورى، وفي ترجيحات الولاية والعمال والنواب العامين أو المأذونين.

٣- تقسيم قوى الدولة وأعمالها.

وكانت الخاتمة في مقصدين مهمين:

الأول: في استقصاء قوى الاستبداد، وهي: الجهل، والاستبداد الديني، وسيادة التملق للحاكم، وتفريق الكلمة، والقمع والإرهاب، وتطبيع الاستبداد، وحشد قوى الدولة ضد الشعب.

الثاني: في علاج تلك القوى ومكافحة تلك الظواهر.

وهكذا رأينا أفكار الميرزا النائيني في هذه الرسالة تتحدث عن شخصية سياسية ودينية عميقة الجذور في استكناه البعد السياسي والتشريعي للحياة الدستورية، بما أعجب به كبار رجال السياسة وصانعي القرار العالمي.

وقد ظل الميرزا النائيني مجاهداً في هذا المجال، وقد عثر في الوثائق التي تركها تلك المراسلات الصادرة من العلمين الآخوند والمازندراني إلى القادة والأعيان والسياسيين في إيران وسواها، وجميعها من تجميع الميرزا النائيني بقلمه الشريف، وقد أمضاها العلمان المذكوران، وتلك خصيصة أخرى تكشف عن مدى اطمئنانها وثقتها المطلقة بالميرزا (قدس سره).

مؤلفات الميرزا النائيني:

للنائيني عدة مؤلفات قيّمة لها أهميتها الكبرى في مجال تخصصها، أبرزها:

- ١- ذخيرة العباد، رسالة عملية، طبعت في حياته عدة مرات.
- ٢- وسيلة النجاة، رسالة عملية، طبعت في النجف الأشرف / ١٣٤٢هـ.
- ٣- تعليقة على العروة الوثقى للسيد اليزدي / طبعت وحدها / ١٣٤٠هـ / وطبعت مع المتن والأصل / ١٣٤٥هـ.
- ٤- مناسك الحج / علّق عليها السيد محسن الطباطبائي الحكيم تعليقاً استدلالياً في كتابه: مناسك الحج / طبعت عدة مرات.
- ٥- رسالة: الصلاة في المشكوك / طبعت عدة مرات، كان آخرها بتحقيق وشرح حفيده الشيخ جعفر الغروي النائيني / طبع مؤسسة آل البيت لإحياء التراث / ١٤١٨هـ.
- ٦- الفتاوى، صادرة بقلمه وخطه الشريف / استنسخها ورثتها على طريقة كتب الفقيه تلميذه الشيخ حسين الحل / طبع الجزء الأول منها بتحقيق وتعليق حفيده الشيخ جعفر الغروي النائيني / قم / ١٤٢٣هـ.
- ٧- تنبيه الأمة وتزيه الملة / طبعت لأول مرّة في بغداد / ١٣٢٧هـ / أفردها بالحديث عن أفقها الديني وبرنامجهما السياسي، في وجوب إقامة الحكم الدستوري.

وفاته وتأبينه ومدفنه:

كان الشيخ النائيني قد تجاوز الثمانين من العمر، فدهمته أمراض الشيخوخة وأعراض الكبر، وتدهورت صحته، ونقل إلى بغداد للعلاج، وتناوب على علاجه كبار الأطباء، فما أجدى ذلك نفعاً، فوفاه القدر، ولّى نداء ربه يوم السبت ٢٦ / جمادى الأولى / ١٣٥٥هـ = ١٩٣٦م، وحمل جثمانه من بغداد إلى النجف الأشرف بمظاهر التعظيم والتبجيل، ولدى وصوله إلى النجف أغلقت

الأسواق، وعطلت الأعمال، وشيع تشييعاً فحماً شاركت فيه الطبقات كافة من المراجع والعلماء والحوزة والكسبة ووجوه الناس وجماهير الشعب.

وقد تولى غسله العلامة المقدس الورع التقي الشيخ علي القمي قدس سره، وأقام عليه الصلاة المرجع الأعلى السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني، ودفن في الحجرة الخامسة في الصحن الحيدري الشريف على يسار الداخل إليه من باب السوق الكبير.

وأقيمت له مواكب العزاء السيارة، والفواتح الكبرى في النجف الأشرف وكربلاء والكاظمية وبغداد وبقية قصبات العراق بما لا يمكن حصره كثرة. وأصدرت جريدة الكرخ البغدادية عدداً خاصاً في تأبينه، تصدرته كلمة بليغة للإمام محمد الحسين كاشف الغطاء.

ورثاه الشعراء: عبد الحسين الحلبي، محمد رضا المظفر، محمد علي يعقوبي، محمود الحبوبي، مسلم الحلبي، علي الصغير، عبد المنعم الفرطوسي، مهدي الأعرجي، وقد أشار لذلك السيد الأمين في أعيان الشيعة ٥٥/٦-٥٦.

وبين يدي قصيدتان من أروع الشعر العربي في رثائه، الأولى لشيخ الخطباء وكبير الأدباء في عصره الشيخ محمد علي يعقوبي، والثانية لسيدي الوالد الشيخ علي الصغير، وقد ألقيتا في الحفل الأربعيني الذي أقيم في مسجد الهندي في النجف الأشرف.

قصيدة اليعقوبي في رثائه:

الإمام النائيبي^{(١)(٢)}

أأنت عليك للملأ ازدحاماً أم التقوى تُشيعها الأنامُ
نعيتَ فمال بالدنيا اضطرابُ وشبَّ بمهجة الدين اضطرامُ
هو النبأ العظيم فليس بدعاً إذا قعدَ الأنامُ له وقاموا
بكي البلد الأمين عليك شجواً فجوابَ صوته البلد الحرامُ
وراع الخطب فارس فاستشاطت وشاطرت العراق به الشأمُ
بكتك الآية العظمى وغوث الهدى إن نابت النوب العظامُ
وعمَّ بك الأسي شرقاً وغرباً كما عمَّت مواهبك الجسامُ
كأن النعش يوم حُمِلت فيه سحابٌ خلفه البدرُ التمامُ
تمدَّ لحمه الأيدي استلاماً «كما للناس بالحجر استلامُ»
ترف أمامه الأعلام سوداً ومحمَّرُ الدموع لها انسجامُ
أأجنحة الملائك مثقلاتُ به أم تلك أعناقٌ وهامُ
أهلوا التراب منك على محياً به في المحل يستسقى الغمامُ
فطفنا في ضريحك والمآقي تجودُ كأنها الغيث الركامُ
كأن عليه حائمة الأمانِي سروبُ قطاً على وردٍ حيامُ
تَجَهَّم وجهه هذي الأرض حزنأ عليك وطبق الأفق الظلامُ
فلا الإصلاح هاطلة سمأه ولا برقُ الصلاح بها يشأمُ

(١) القيت في تابين كبير علماء عصره الحاج ميرزا حسين النائيني في الجامع الهندي بالنجف وكانت وفاته يوم السبت ٢٦٠٢٦هـ سنة ١٢٥٥م، وعمره ٨٢ عاماً.

(٢) ظ: محمد علي اليعقوبي / ديوان اليعقوبي / ٢٢٢-٢٢٤ / مطبعة النعمان / النجف / ١٩٥٧م.

وصدع العلم ليس له التثام
 تُخَبِّرُ أَنَّكَ البطل الهمام
 وليس تردها بيض ولا م
 وكم للشرك في الدين احتكام
 فأغمد في الثرى ذاك الحسام
 الهدى فلقد هوى منه الدعام
 يد الأيام فانحلّ النظام
 عهدود لا ولا ترعى الذمام
 فلا وصلٌ يدوم ولا انصرام
 صوارمها ولا تحطى السهام
 فهل يجدي العتاب أو الكلام
 على مثل (الحسين) ولا يلام
 ولا الإيمان قام له قوام
 لقاك فكيف يصرعك الحمام
 فطاب أبا علي لك المقام
 وطال على السهى فيها الرغام
 وزاد سواك في الدنيا الحطام
 وكم ذكراً به تحيا الكرام
 مآثر تستفيد بها الأنام
 بأن حمى الشريعة لا يضام

فجرح الدين بعدك ليس يوسى
 فكم لك دونه وقفات عز
 بأقلام تفلّ البيض حدأ
 غداة تحكّم الأعداء فيه
 فكنت له الحسام تذود عنه
 ولا عجب إذا ما مال بيت
 وواسطة القلادة صدعتها
 هي الأيام لم تحفظ لديها
 وحسبك في تصرفها اعتباراً
 لحى الله الحوادث ليس تنبو
 وكم بحشا الهدى منها كلوم
 إذا الإسلام ناح فليس يلحى
 فما شيد الهدى لولا حسين
 أتيج لك الحمام وكان يخشى
 أقت مجاوراً مثوى (علي)
 ثرى حصباؤها شأت الثريا
 ورحت مزوداً عملاً وعماماً
 مضيت وعمرك الثاني سيبقى
 وما الإنسان بعد الموت إلا
 وهان الخطب بعدك مذ وثقنا

فكيف ودونها من حارسيتها
لقد فقد (الحسين) وما المعزى
به الأحكام قد شدت عراها
وكيف تضل قوم عن هداها
ولو تبعوا أبا الحسن اقتداء
سعى للمكرمات وهم قعود
إذا النادي حواه فليس يدري
وقلت لمن يروم علاه عفواً
أبا حسن وأنت لنا غياث
ففيك وقد سلّمت لنا عزاء

* * *

فقيد المسلمين العلامة النائيني

قصيدة سيدنا الوالد الشيخ علي الصغير

في الاحتفال التأييني الذي عقد في

مسجد الهندي في رثاء الميرزا النائيني

وما انطوى منك فردّ فيه بل أمم

أيدي الرجال.. ولم تعثر لها قدم

بطن الثرى... وهو ذاك الصارم الخدم

فمي فقال: وهل بعد الحسين فم

عجبت كيف طواك القيرُ يا علم

وأن أرى اليوم تهلاناً تحفّ به

وأن أرى صارمَ الإسلام يغمده

طلبتُ فيك الرثا في أن يجود به

(١) تخلص فيها لتعزية الإمام السيد أبي الحسن الموسوي الأصبهاني.

ولستُ أحسب أن يجري به قلمي
 تمّافت الملاء الأعلى عليك.. وقد
 فليس نعشك إلاّ كالسفين على
 حفّت به علماء الدين قاطبةً
 ما حيلتي.. قد جرى في ذلك القلمُ
 خاضوا غمار الأسي.. والقلب مضطرمُ
 بحر من الخلق بالأرواح يلتطمُ
 فشيّعوا ذلك الدين الذي علّموا

* * *

وواجين ولم تنبس لهم شفة
 ودّوا -وقد طرق الأسماع نعيك- لو
 إذ كان نعيك في الآفاق طبّها
 تجاوبت فيك أسلاك النعيّ أسى
 خلا النديّ.. فلا ذاك الإمام به
 وأصبح الفضل منشوراً بمضيعةٍ
 فحسبُ ذا الدين ما قاساه من ألمٍ
 ولو أرادوا كلاماً خانت الكلمُ
 عرى مسامعهم من قبله الصمُ
 حزناً.. فكلّ فؤاد ملؤه ضرْمُ
 فمن بلاد بأخرى الحزنُ يصطدمُ
 وغاب عتّا.. فغاب الحكم والحكمُ
 إذ غاب من فيه عقد الفضل ينتظمُ
 بعد (الحسين).. وما يجدي لنا الألمُ

* * *

يا عيلاً كان فرداً في فضائله
 القومُ بعدك في لَجّ الهوى انغمسوا
 تلاقفوا الملاء الأذنى فحسبهم
 تلك الجموع التي في دينها ازدحمت
 وإنها فيك هذا اليوم تنشدنا
 وكان بدر الهدى... إن عمّت الظلمُ
 والناس بعدك عن نهج الرشاد عموا
 هنا.. فما بالهم في القسمة اعتصموا؟
 عليك... ها هي للتأيين تزدحمُ
 وجداننا كل شيء بعدكم عدمُ

* * *



الشيخ محمد جواد البلاغي.. منظرًا

الشهرة والنسب:

الشيخ محمد جواد بن الشيخ حسن بن الشيخ طالب بن الشيخ عباس بن الشيخ إبراهيم بن الشيخ حسين بن الشيخ عباس بن الشيخ حسن مؤلف (تنقيح المقال) بن الشيخ عباس بن الشيخ محمد علي بن محمد البلاغي النجفي الربيعي، نسبة إلى ربيعة القبيلة العربية المشهورة. من مشاهير علماء الشيعة في عصره. علامة جليل، ومجاهد كبير، ومؤلف مكثر خبير^(١).

انحدر من سلسلة علماء أعلام طيلة أربعة قرون متعاقبة، عرفوا بالجدد والاشتغال والتحصيل العلمي العالي، والمثابرة على التفقه بعلوم أهل البيت كابرًا عن كابر، وهم مجموعة من العلماء والأدباء والشعراء والمؤلفين والبلاغيين. وآل البلاغي «من أقدم بيوتات النجف وأعرقها في العلم والفضل والأدب، أنجبت عدة من رجال العلم والدين»^(٢).

نشأته العلمية وأساتيده:

ولد علم الأعلام وحجة الإسلام وأستاذ المراجع العظام الشيخ محمد الجواد البلاغي عام ١٢٨٢ هـ^(٣) في النجف الأشرف موطن آبائه وأجداده بعد هجرتهم إليها من لبنان الأشم، ونشأ بها نشأة علمية متميزة وبعد أخذه

(١) ظ: آغا بزرك/ نقيب البشر ١/ ٢٢٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) وفي معارف الرجال ١/ ١٩٦ أنه ولد في ١٢٨٠ / محمد حرز الدين.

لمقدمات العلوم على خيرة فضلائها، تمحض للدراسات العليا على طائفة كريمة من أعلام عصره، أبرزهم:

- ١- الشيخ محمد طه نجف.
- ٢- الشيخ آغا رضا الهمداني.
- ٣- المولى الشيخ محمد كاظم الخراساني.
- ٤- السيد محمد الموسوي الهندي.
- ٥- الشيخ محمد تقي الشيرازي/ قائد الثورة العراقية.

حتى إذا بلغ مرحلة متقدمة في الشوط الدراسي، عكف على دراسة النصوص، والآثار العالمية للديانات الإنسانية، وتخصص بعقائد الإسلام واليهودية والمسيحية، فكان نسيج وحده في اختيار هذا المنهج، ووحيد عصره في الاستنتاج ودقة النظر، ومرجع المثقفين وقادة الفكر في عقائد الأديان.

ولدى إكمال متطلبات دراسته العليا في النجف الأشرف هاجر إلى سامراء المشرفة في صحبة الشيخ محمد تقي الشيرازي وحضر عليه عشر سنين «وعكف على الدرس والتدريس فيها، وصنف فيها كتابه: داعي الإسلام وداعي النصارى»^(١).

وغادر سامراء لدى الاحتلال الانكليزي لها، وقصد الكاظمية المقدسة، وأقام فيها سنتين يدعو إلى الثورة ومحاربة الانكليز، مطالباً بالاستقلال ومسانداً للأحرار^(٢).

ثم عاد إلى النجف الأشرف مريباً لجيل من العلماء، ومكباً على التأليف والتصنيف والردّ على الشبهات، ومناظرة المنحرفين على الإسلام، ويكفيه فخراً ومترلةً أن من بين تلامذته من تسنّم المرجعية العليا، ومن أبرزهم:

(١) جعفر النقدي/ الروض النضير/ ٢٠٤.

(٢) ظ: علي الخاقاني/ شعراء الغري ٢/ ٤٣٧.

١- السيد محسن الطباطبائي الحكيم (١٣٠٦هـ - ١٣٩٠هـ).

٢- السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي (١٣١٧هـ - ١٤١٣هـ).

وله معهما أحاديث خاصة في التوجيه والرأي والمكاشفة، وكان له الفضل الأكبر في إعدادها إعداداً متميزاً، بما أصبح له أهلاً في مستقبل الأيام.

وقد أفاد العلمان البارزان من سيرة الشيخ البلاغي وزهده وورعه أروع الأمثلة، وأسمى مراتب السلوك والهدي العرفاني. فقد طلب سدنة الروضة الحيدرية من السيد محسن الحكيم في شبابه أن يقيم صلاة الجماعة في الحرم الحيدري الشريف، وأصروا عليه إصراراً كبيراً، وكان السيد الحكيم قدس سره معروفاً بحسن السيرة ونقاء السريرة وطهر الضمير منذ شبابه المبكر.

يقول السيد الحكيم: فقلت في نفسي؛ أستشير أستاذي الشيخ البلاغي في الأمر، وفاتحه في الموضوع، فوجد ذلك ضرورياً لما يعرف من جدارة تلميذه بذلك، ولكن السيد الحكيم راجع نفسه وأعرض عن الأمر، فما أراد الصدارة في عنفوان الشباب.

والسيد الخوئي عاش حياة مُرهقةً من الحرمان، فقرر ترك الدراسة والذهاب إلى بغداد بغية الكسب، ولكنه قرر الاستنارة برأي أستاذه الذي يعبر عنه في كتبه دائماً بـ «بطل العلم المجاهد».

يقول السيد الخوئي قدس سره، ذهبت إلى الشيخ البلاغي في رمضان وأنا مصمم على ترك الحياة العلمية، والتوجه نحو العمل نظراً للضائقة الاقتصادية المضنية، وحينما استقر به المجلس قرب الشيخ البلاغي تساءل عن الحال!! فقال البلاغي: هذا شهر رمضان وأنا صائم، وأحنّ كثيراً إلى شرب قدح من الشاي، وليس إلى ذلك من سبيل، إذ لا يتيسر لي ذلك، ووالدي عندها شيء من السكر والشاي من مالها الخاص، ولا أجرأ أن أطلب منها ذلك، وأنا في حيرة بين الرغبة في الشاي، والاشفاق عن الطلب من الوالدة!!

يقول السيد الخوئي: فقلت في نفسي: هذا أستاذي الأعظم على ما هو عليه من العلم والمترلة الرفيعة، لا يستطيع أن يشرب قدحاً من شاي في رمضان، وأنا أريد أن أترك حياة العلم لأني بائس محتاج!! وقررت حينذاك الصبر على الجوع ومواصلة الدراسة مهما بلغ الأمر.

في هذين المثليين دلالة إيجابية على ما يمتلكه الشيخ البلاغي من حبّ وولاء وريادة لدى هذين السلمين، باعتباره موجّهاً ومرشداً ودليلاً إلى النهج القويم.

خَلَقَهُ وَخَلَقَهُ:

وصف الشيخ جعفر آل محبوبة ذلك فقال: «كان نحيف البدن، واهن القوى، يتكلف الكلام، ويعجز في أكثر الأحيان عن البيان -أيام شيوخوته-... وكان لئيم العريكة، خفيف الروح، منبسط الكف، لا يمزح ولا يجب أن يمزح أحد أمامه، تبدو عليه هيئة الأبرار، وتقرأ على أساريه صفات أهل التقى والصلاح.

له في الحسين(عليه السلام) عقيدة راسخة وحبّ ثابت، فكم له أمام المناوئين للحسين(عليه السلام) من مواقف مشهورة، ولولاه لأمات المعاندون الشعائر الحسينية والجالس العزائية، ولكنه تمسكّ بها والتزم بشعائرها، وقام بها خير قيام.

وله اليد الطولى في تحريض رجال الدين على إنقاذ الدار التي اتخذها البايون في كرخ بغداد بمحلة الشيخ بشار كعبة لهم يقدسونها، وجعلها حسينية تقام بها شعائر أهل البيت(عليهم السلام) حتى اليوم»^(١).

السيرة العطرة:

هذا المناخ يدعوننا إلى متابعة سيرة هذا البطل المناضل في حياته الخاصة كما سمعتها من معاصريه ومشايخنا الماضين، وكما قرأنا في كتب التراجم.

هناك إجماع في الحوزة العلمية أن الشيخ البلاغي كان نادرة من نوادير الزمن في تصرفاته ومقرراته الخاصة والعامة. فهو في شبابه المبكر «فاضل

معاصر، مجدّد بتحصيل العلوم، وأديب شاعر مصنّف، وهو من بيت كلهم علماء أتقياء... وله شعر حسن الانسجام»^(١).

وهو في كهولته «عالمٌ عيلم مهذب، وفاضل كامل مذب، وآباؤه كلهم من أهل العلم»^(٢).

وهو في كهولته كان قد «صرف عمره في طلب العلم وفي التأليف والتصنيف، وله عدة مؤلفات في الردود»^(٣).

وهو في سيرته المتواضعة مثال يقتدى به في السلوك العرفاني، بعيد عن الاعتبارات الوهمية الزائلة، قريب من الواقع في رياضة النفس ونكران الذات، يقضي شؤونه الخاصة بنفسه دون الاستعانة بأحد، ويشرف على قضاياها الجزئية شخصياً، فلا يكلف أحداً.

وهو في حياته العلمية رمز من الرموز الكبيرة، يحب العزلة ولا يشعر بالاغتراب، واستغل ذلك للعمل الجاد المثمر، والنضال العلمي الحثيث، فلا يرى إلاّ كاتباً في طرس، أو باحثاً في درس، أو مفكراً في مسألة، أو محرراً لرسالة، أو مجيباً عن أسئلة.

وكان مع أترابه وأقرانه دمث الأخلاق، نقيّ السيرة، عفّ اليد واللسان، رقيق الحاشية، يميل إلى الترسل والبساطة، ويتمتع بالوفاء الخالص.

وكان لاتصاله الوثيق بالسيد محمد سعيد الجبوي النجفي قائد الجهاد ضد الإنكليز، الأثر البارز في روحه الفذة، فقد كان عرفانياً رائعاً، وسلوكياً شامخاً، وإنساناً متكاملأً، يضاف إلى هذا كله؛ تأثيره بمناخه الأدبي، فعاد شاعراً من فحول شعراء العربية، وإن زهد بالشهرة والصيت الذائع، لأنه يحيا حياة العازفين عن حبّ الظهور.

(١) علي آل كاشف الغطاء/ الحصون المنيعه ١٨٦/٩.

(٢) جعفر النقدي/ الروض النضير / ٣٠٤.

(٣) محسن الأمين الحسيني العاملي/ اعيان اليعه ٦٨/١٧.

وكان معاصره الشيخ آغا بزرك الطهراني، قد قيّمه تقييماً دقيقاً في قدراته وقابلياته ونضاله في سبيل الإسلام، فقال: «وكان من أولئك الأفاضل النادرين الذين أوقفوا حياتهم، وكرّسوا أوقاتهم لخدمة الدين والحقيقة، وقد وقف قبالة النصارى وأمام تيار الغرب الجارف، فمثّل لهم سمو الإسلام على جميع الملل والأديان، حتى أصبح له الشأن العظيم والمكانة المرموقة بين علماء النصارى وفضلائها»^(١).

ويقول السيد محسن الأمين الحسيني العاملي زميله ورفيقه في النضال العلمي: «صاحبنا في النجف أيام إقامتنا فيها، ورغب في صحبة العاملين فصاحبنا وخالطناه حضراً وسفراً عدة سنين إلى وقت هجرتنا من النجف فلم نر منه إلا كل خلق حسن وتقوى زعادة، وكل صفة تحمد، وجرت بيننا وبينه بعد خروجنا من النجف مراسلات ومحاورات شعرية ومكاتبات، في مسائل علمية، وكان شريكنا في الدرس عند مشايخنا في النجف»^(٢).

لم يحاول الشيخ البلاغي مجدداً دنوباً على الإطلاق، وكان مجده الشامخ في قلمه السيال، ولم يطلب جاهاً فله الوجاهة في خشوعه وإنابته وتضرّعه إلى الله تعالى، ولم يتصدر للزعامة وهو أهل للزعامة الدينية، واكتفى بالصلاة جماعة في مسجد قرب بيته، فتأتم به طائفة من الأعلام، فإذا انتهى من ذلك بدأ بتدريس محاضراته في القرآن الكريم بأسلوب جديد وعرض جديد، يمثل ذلك كتابه النفيس: آلاء الرحمن في تفسير القرآن، ومما يؤسف له أنه لم يكمل، فقد فاجأه الموت قبل إتمامه.

وتحدث عنه معاصره الشيخ جعفر محبوبة مؤرخ النجف الأشرف، فقال: «هو ركن الشيعة وعمادها، وعزّ الشريعة وسنادها، صاحب القلم الذي سبّح في بحر العلوم، الناهل من موارد المعقول والمنقول، كما من صحيفة حبرها،

(١) آغا بزرك/ نقيب البشر ١/ ٢٢٣ وما بعدها.

(٢) محسن الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ١٧/ ٦٨.

وألوكة حرّرها، وهو بما حَبَّر فضح الحاخام والشماس، وبما حرر ملك رقّ الرهبان والأقساس، كان مجاهداً بقلمه طيلة عمره، وقد أوقف حياته على الذبّ عن الدين، ودحض شبه الماديين والطبيعيين، فهو جُنّة حصينة ودرع رصينة، له بقلمه مواقف فلت جيوش الألداد، وشتت جيوش العادين على الإسلام والطاعنين فيه، وله إلمامٌ ببعض اللغات الأجنبية، وهو مع تبخره في العلوم الروحية ذو سهم وافر من النظم، فهو شاعر محسن مجيد»^(١).

ويقول الأستاذ علي الخاقاني:

«ومن نظر سيرة المترجم له يجده قد تأثر بسيرة الأولياء الذين جاؤوا ومضوا ولم يكن لهم من قصد سوى القيام بما يجب عليهم من خدمة البشر والعقل والحق، وقد كان (قدس سره) مثال هذه السيرة التي تقمصت الحق وهدفت خدمته، فقد تخصص للدفاع عن الإسلام الذي سما على جميع الأديان، وذبّ عنه أمام تيار الغرب الجبار، فكان يستمد الصمود من مبدئه، والشجاعة من موجدته، وقف وقفة خلدته في قلوب خصومه النصارى فضلاً عن المسلمين، وعرفه علماءهم أكثر من معرفة أبناء وطنه له»^(٢).

النضال العلمي في مسيرة الشيخ البلاغي:

كان نضال الشيخ البلاغي العلمي منسقاً مع نضاله الاقتصادي، فقد عاش حياة الفقر والحرمان شأنه بذلك شأن المكافحين الذين لا يجدون إلى سدّ الرمق سبيلاً، وكان رائده المركزي الدفاع عن الإسلام أولاً، وإغناء التراث بأصيل الأفكار متحدياً العقبات والأزمات.

بدأ قدس سره مسيرته العلمية بالدرس الحوزوي الجادّ، حتى إذا تكاملت أدواته في التحصيل تفرّغ للتصنيف والتأليف، فكان في آفاق عصره يمثل الآراء الجديدة المتطورة فيما تناول من بحوث طريفة، كانت مفاجأة للمناخ العام،

(١) جعفر محبوبية / ماضي النجف وحاضرها ٦٢/٢.

(٢) علي الخاقاني / شعراء الغري ٤٣٩/٢.

وقد يكون فيها حرق لنواميسي بيئة النجف الأشرف في اقتصارها على الفقه وأصوله، أو على التفسير وشؤونه، أو على علم الدراية والرواية والرجال، وهو وإن برع في هذه المجالات كافة، إلا أنه جرّد من نفسه مناضلاً منظّراً عن مبادئ العقيدة الإسلامية ضد الحملات الصليبية المنظمة، وفي قبال المدّ الصهيوني المتصاعد، فتفرغ لدراسة اللغة العبرية ميدانياً، وأتقنها إتقاناً تاماً من خلال إقامته ببغداد، جاور فيها اليهود، فبرع في تعلم لغتهم عملاً بما ينسب إلى أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام)، أنه قال: «من تعلّم لغة قوم أمن مكرهم» وهكذا كان.

لقد درس الشيخ البلاغي التلمود اليهودي بروية، وأناة، فردّ على الدسّ الصهيوني في أبعاد شتى. وخبر التبشير المسيحي فأوقف نفسه على صدّ الهجمات الظالمة، وتفنيد التّزعات المشبوهة، وكشّف الانحراف المستهدف بتلك الكراريس والنشرات والمؤلفات التي تناولت الإسلام بالتحجّيج.

وقد تابع (قدس سره) دعوات الزندقة والكفر والإلحاد، فجاهها بالإبطال، وهو يقع الحجة بالحجة، ويعاود الدليل بالدليل، وقد دافع من هذا الحلال عن التوحيد دفاع المستميت، ونفى الإشراف والتثليث، وحمل على الشرك الخفي والجلي، ونزّه الباري عن التشبيه والتجسيم ودعاوى الصورة.

وكان في هذا المجال قد نهض بعبء المسؤولية الكبرى، وأداء الأمانة الفادح، فكم من موقف له مع المتطرفين من اليهود والنصارى ردّهم فيه على الأعداء، وكم من شبهة لدى المنحرفين أوقفهم في تفكيكها على الصواب.

ودعا إلى وحدة المذاهب الإسلامية، وحمل على سياسة التفريق بين المسلمين حملة شعواء، ودافع عن مبادئ أهل البيت (عليهم السلام)، ونشر مرتكزات التشيع على أساس سليم، فأبطل فتاوى الوهابيين، وسفّه أحلام النواصب، وهو بذلك يحمل لواء لإصلاح بيد، ويرفع راية الإسلام بيد أخرى. وليس غريباً

عليه بنضاله هذا أن يعهد إلى الأذهان جهود المسلمين الأوائل، وينشر في الآفاق علوم الأساطين ومعارفهم الكبرى، فكم من مبحث نشره باسم مستعار، وكم من مؤلف لم يذكر فيه اسمه، رائده بذلك الوصول إلى حقائق الأشياء وإيصالها للمجتمع الإسلامي دون دواعي الشهرة ومظاهر البروز.

«ولقد سئل يوماً عن سبب ذلك، فقال: المقصود من عملي إبراز الحق والدفاع عنه من أي طريق كان، فلا فرق بين أن أكون قد جئت به أنا أو غيري، فالغاية العمل»^(١).

والخاقاني قد أفاد هذا من الشيخ آغا بزرك من دون الإشارة إليه. يقول الشيخ آغا بزرك: «وقد كان من خلوص النية وإخلاص العمل بمكان، حتى أنه كان لا يرضى أن يوضع اسمه على تأليفه عند طبعها، وكان يقول: أنا لأقصد إلاّ الدفاع عن الحق، ولا فرق عندي بين أن يكون باسمي أو اسم غيري، ومع كل ذلك أصبح ناراً على علم، وبلغت شهرته أقاصي البلاد، وذلك لما عاجله من العضلات العلمية والمناقشات الدينية التي أقيم لها الوزن الراجح في عواصم أوروبا. وقد اتصل به أعلام (لورنדה) وغيرها، وكانوا يفزعون إليه في المسائل العويصة، ومن المستفيدين منه «المستر خالد شردراك» فإنه كان يعول على المترجم له في المشاكل. وقد ترجمت بعض مؤلفاته إلى الإنجليزية للاستفادة من مضامينها الراقية»^(٢).

وكان تطلعات الشيخ البلاغي في مؤلفاته وبحوثه تتسم بالأصالة والإبداع، وكان وراء ذلك الهدف المركزي الأول المتمثل بالنصح لأمة محمد (ﷺ)، والإخلاص للمبادئ الإسلامية العليا؛ وهكذا كان في دفاعه عن الهدى، ودعوته إلى دين المصطفى، وذوده عن حياض الإسلام.

(١) علي الخاقاني/ شعراء الغري ٢/٤٢٩.

(٢) آغا بزرك/ نقباء البشر ١/٣٢٤.

وكانت روحه السلوكية في رياضة النفس لائحة السمات والمعالم على النهج الذي اختطه فيما كتب وصنّف، وكان صداها متجاوباً فيما ابتكر وجدد، فهو لا يرى نفسه شيئاً، وهو يقهرها على الاتصاف بسيرة الأبرار والصالحين سلوكاً وعملاً «كان متواضعاً للغاية يمارس حاجياته بنفسه، ويختلف على الأسواق لاتباع ما يلزم له»^(١).

وبهذا يقترن الغرض السلوكي بالغرض العلمي الذي تمحض له.

مؤلفات البلاغي وآثاره:

يمكن تصنيف آثار الشيخ البلاغي ومؤلفاته إلى ثلاثة مجاميع رئيسة:

١- كتب التخصص الدقيق في علوم الشريعة الفراء.

٢- كتب الرد على الشبهات وأعداء الإسلام.

٣- كتب الدفاع عن مبدأ أهل البيت (عليهم السلام).

وهذه الحقول الثلاثة قد استوعبها البلاغي في مجاميعه التأليفية النادرة، وهو حينما يجاهد لإخراجها قد لا يستطيع طبعها، فبقي أكثرها مخطوطاً، وطبع قسم منها.

«كان في كل كتاب يكمل عنده لا يستطيع طبعه وإخراجه، حتى بلغ به الحال غير مرة أن باع آثا بيته لطبعة ولانتفاع الناس به»^(٢).

وينبغي أن نشير إلى أن كتب العلامة البلاغي في عصره كانت تمثل قفزة نوعية في عالم التأليف، فقد سلك فيها منهجاً جديداً في البحث والأفكار، اعتمد أسلوب الجدل الحرّ في قضايا العصر الساخنة، حتى عدّ فيها من الخالدين.

يقول المحقق الثبت الشيخ آغا بزرك (قدس سره):

(١) علي الخاقاني / شعراء الغري ٢ / ٤٤٠.

(٢) المصدر السابق.

«وفي الحقيقة لم يمت من خلف ما خلفه المترجم من الآثار التي تهتدي بها الأجيال، ويحتج بها الأبطال، فإن في مؤلفاته ثمرات ناضجة قدمها المترجم لرواد الحقيقة»^(١).

وإنني أهاب بأسرة آل البلاغي، وشباهم اليقظ أصحاب مشاريع خيرية ودينية عديدة، أن يتوجهوا إلى هذه المؤلفات الفريدة بإحيائها نشرأً يتناسب مع أهميتها التراثية، وبعنوان «موسوعة الشيخ البلاغي» أو «الأعمال الكاملة للشيخ البلاغي» وترصف جميعها في طبعة أنيقة يتداولها الجيل الناهض المتحفز، سيما وأن أغلبها مخطوط، وأن المطبوع منها لا تتوفر نسخه، وفي هذا العمل إحياء معنوي للعلامة البلاغي، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾.

وفيه إثارة لأجداد هذه الأسرة العريقة في العلم والشرف. وفيه أيضاً بعث للتراث الإمامي المتطور.

ونحن بدورنا في هذا المبحث الاستذكارى للعلامة البلاغي (قدس سره) الشريف، نشير إلى جملة هذه المجموعات الخالدة بحسب الإيجاز والاختصار، ونرمز إلى المطبوع منها بحرف (ط) وإلى المخطوط بحرف (خ).

المجموعة الأولى: وهي تتضمن كتبه في تفسير القرآن العظيم والفقاه والأصول وأجوبة المسائل الشرعية، وأبرزها:

١- آلاء الرحمن في تفسير القرآن/ طبع منه الجزء الأول والثاني والثالث/ وهو من أنفس التفاسير لغة وأسلوباً وطرحاً.

٢- أجوبة المسائل البغدادية في أصول الدين/ ط.

٣- رسالة في وضوء الإمامية وصلاتهم وصومهم -ط- بالانجليزية.

٤- الأصل العربي للرسالة المطبوعة بالانكليزية -خ-

- ٥- العقود المفصلة في حل المسائل المشكّلة /ط/
- ٦- تعليقة على مباحث البيع من مكاسب الشيخ الأنصاري /ط/
- ٧- أجوبة المسائل التبريزية /خ/.
- ٨- رسالة في القبلة، وتعيين بعض البلدان المهمة في العالم بحسب الاختلاف بخطوط الطول والعرض /خ/.
- ٩- رسالة في مواقيت الإحرام للحج والعمرة /خ/
- ١٠- رسالة في ذبائح أهل الكتاب /خ/.
- ١١- رسالة في التفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري /خ/.
- ١٢- رسالة في حرمة مسّ كتابة المصحف للمحدث /خ/
- ١٣- رسالة في أحكام الغسالة /خ/
- ١٤- رسالة في الخيارات /خ/
- ١٥- تعليقة على كتاب الشفعة من جواهر الكلام للشيخ محمد حسن الجواهري /خ/
- ١٦- رسالة في منجزات المريض /خ/
- ١٧- رسالة في إقرار المريض /خ/
- ١٨- رسالة في الرضاع /خ/
- ١٩- رسالة في فروع الرضاع على المذاهب الخمسة /خ/
- ٢٠- رسالة في التقليد /خ/
- ٢١- رسالة في الأوامر والنواهي /خ/
- ٢٢- رسالة في العول والتعصيب /خ/
- ٢٣- رسالة في صلاة الجمعة /خ/
- ٢٤- رسالة في اللباس المشكوك /خ/

٢٥- تعليقة على العروة الوثقى للسيد محمد كاظم اليزدي /خ/
وهذه الكتب تكشف عن مدى القدرات الهائلة في التفسير وفروع الفقه
وأحكام الشريعة التي ضبطها العلامة البلاغي ضبطاً، وهي دليل اجتهاده المطلق من
دون ريب.

المجموعة الثانية: وهي تنتظم جهود الشيخ البلاغي في الردود على
الشبهات، وقضايا اليهودية والمسيحية والتبشير وأعداء الإسلام وأبرزها:

٢٦- الهدى إلى دين المصطفى -جزءان- في الردّ على عبدة الثالوث /ط/
٢٧- أنوار الهدى في إبطال بعض شبه الإلحادية /ط/
٢٨- الرحلة المدرسية أو المدرسة السيارة في ثلاثة أجزاء، في الردّ على
الملل الخاطئة، طبع مرتين/ وترجم إلى الفارسية وطبع.

- ٢٩- نصائح الهدى /في الردّ على البابية/ ط/
٣٠- أعاجيب الأكاذيب /في مفتريات النصارى/ ط/
٣١- التوحيد والتثليث /في الردّ على النصارى/ ط/
٣٢- الشهاب /في الردّ على كتاب (حياة المسيح) /خ/
٣٣- المصاييح /في الردّ على المذهب القادياني/ خ/
٣٤- الردّ على كتاب (ينابيع الكلام) لبعض المسيحيين /خ/
٣٥- رسالة في الردّ على: جرجيس سائل وهاشم العربي /خ/
٣٦- رسالة في الردّ على كتاب (تعليم العلماء).

المجموعة الثالثة: وهي تنتظم عدة مؤلفات للعلامة البلاغي في الدفاع عن
مبدأ أهل البيت (عليهم السلام)، وردّ افتراءات أعدائهم.

- ٣٧- البلاغ المبين /في الآلهيات/ ط/
٣٨- إبطال فتوى الوهابيين بهدم قبور أئمة البقيع /ط/

٣٩- رسالة في إبطال فتوى الوهابيين أيضاً /ط/

٤٠- إلزام المتدين بأحكام دينه /خ/

هذه أهم مؤلفات العلامة البلاغي جهدت باستخراجها من كتب التراجم والرجال والأدب، واعتمدنا في أغلبها على ما ذكره الشيخ آغا بزرك في نقباء البشر ١/٣٢٤-٣٢٥.

وهي ثروة فكرية فارعة، ضمت أشتاتاً من العلوم والمناظرات والمحاورات والأدلة والحجج والبراهين في مجالاتها المختلفة.

البلاغي في شاعريته الفذة:

يعدّ العلامة البلاغي في طليعة شعراء عصره، ولم يكن الشعر بمهمة أساسية في مسيرته الثقافية، ولكنه شهر الشعر سلاحاً في معركته ضد الانحراف والشبهات المعاصرة، وكان في ذلك شاعراً جزلاً متميزاً، وسأورد بعض شعره في هذا المجال وأمثاله.

فله قصيدة حافلة بالحجاج المنطقي، أجاب فيها أحد شعراء بغداد، وهو يناقش أمر الحجة المنتظر (عج) عام ١٣١٧هـ وإليك الأصل، ونعقبه برّد البلاغي عليه:

أيا علماء العصر يا من لهم خسر	بكلّ دقيقٍ حار في مثله الفكر
لقد حار مني الفكر في القائم الذي	تنازع فيه الناس، والتبس الأمر
فمن قائلٍ في القشر لبّ وجوده	ومن قائل قد ذبّ عن لبّ القشر
وأول هذين الذين تقررا	به العقل يقضي والعيان.. ولا نكر
وكيف وهذا الوقت داعٍ لمثله	ففيه توالى الظلم وانتشر الشر
وإن قيل من خوف الطغاة قد اختفى	فذاك لعمري لا يجوزه الحجر
وإن قيل من خوف الأداة قد اختفى	فذلك قول عن معائب يفتّر
ومن عيب هذا القول لاشك أنه	يؤول إلى جنب الإمام وينجر

له الأمر في الأكوان والحمد والشكر
به أحد إلا أحو السفه الغمر
على غيرهم حاشا فهذا هو الكفر
له الفضل عن أم القرى وله الفخر

فها أنا مالي فيه فهي ولا أمر
فما راعني منهن سهل ولا وعر
من الليل تغليسا إذا عرس السفر
وما صدّها عن قصدها مهمه قفر
بصدر مذيع عي عن كتمة السر
حين مشوق هاج لوعته الذكر
إذا حاجها شوق الديار فلا نكر
مباح وأجفاني عليها الكرى حجر
غرام به ينحط عن كاهلي الوزر
لحي آل المصطفى فهو لي عذر
مودتهم لا ما يقلده النحر
ولولا مزاج الحب ما ساغ لي در
بينهم والبين مطعمه مر
فعن أعيني غابوا وفي كبدي قرّوا
ومن غائب قد حان من دونه الستر
وما يصنع الوهان إن خانهُ الصبر
من البين لا يأتي على قعرها سير

وإن قيل أن الاختفاء بأمر من
فذلك أدهى الداهيات ولم يقل
أيعجز رب الخلق عن نصر حزبه
وما أسعد السرداب في سرمن رأى

وقد ردّ عليه البلاغي:

أطعت الهوى فيهم فعاصاني الصبر
أنستُ بهم سهل القفار ووعرها
أخا سفر سيان أغتئم السرى
بذاملة ما أنكرت ألم الجوى
يضيّق بها صدر الفضا فكأفها
تحن إذا ذكرتها بديارهم
وشمالة أديتها بصبايبي
أروح وقلبي للواعج والجوى
وأحمل أوزار الغرام كأنه
وكم لذّ لي خلغ العذار وإن يكن
علقت بهم طفلاً فكانت تمائي
ومازج دري حبهم يوم ساغ لي
نعمت بحبيهم ولكن بليتي
ونائين تدنيهم إلي صبايبي
فمن نازح قد غيب الرمس شخصه
أطال زمان البين والصبر خاني
إلام وكم تنكى بقلبي جراحة

فكم سائلٌ عنه تسيلُ مدامعي
 فيا سائلاً سمعاً لآيةٍ مُعجزِ
 إذا رضعت صعب الفكر تهدي فقد كبا
 فما الحجر في التقليد إلاّ حجارة
 لتدرك فيه الحسن والقبح مثل ما
 فإن قلت بالعدل الذي قال ذو الأُهي
 ودنت بتزييه الإله وإنه
 وجانبت قول الجبر علماً بأنه
 وأقررت لله اللطيف بأنه
 وأوجبت باللطف الإمام وأنه
 وعانيت فيمن مات فهو لذي الحجى
 تؤسس ببيان الصواب على التقى
 وفي خير الثقلين هاد إلى الذي
 إذا قال خير الرسل لن يتفرقا
 وما إن تمسكتم تنبيك إنهم
 ولما انطوى عصر الخلافة وانتهى
 وزاد يزيد الدين نقصاً وبعده
 تنادي لإحياء الهدى عترة الهدى
 وكم بنلوا في الوعظ والزجر جهلهم
 وكم ندبوا لله سرّاً وجهرة
 إلى أن تغانوا كابرأ بعد كابر
 ولا مثل يوم الطفّ يوم فجيعة

بتذكاره وكفأ كما يكفُ القطرُ
 بآياته لا ما يزخرفه الشعرُ
 (لألك) في دحض العثار بك الفكرُ
 وليس بغير الجد يصفو لك الحجرُ
 يحسّ بحس الذائق الحلو والمرُ
 به وله يهدي بمحكمه الذكرُ
 غني فلا يلجيه في فعله فقرُ
 ينوبُ أصول الدين من وهمه كسرُ
 حكيم له في كلّ أفعاله سرُ
 به من عصاة الخلق ينقطع العذرُ
 شفاء إذا أعبى بأدوائه الصدرُ
 ويطلع من أفق اليقين لك الفجرُ
 تنازع فيه الناس والتبس الأمرُ
 فكيف إذن يخلو من العترة العصرُ
 هم السادة الهادون والقادة الغرُ
 فلف بساط العدل وابتدأ الشرُ
 دهى بالوليد القرذ أم الهدى عقرُ
 فما عاقهم قتل ولا هالمهم ضرُ
 ولم يجد بالغاوين وعظ ولا زجرُ
 وقد خلصا منهم له السر والجهرُ
 وما دولة إلاّ وفيها لهم وترُ
 لذكراه في الأيام ينقصم الظهرُ

إذا سفحت من ذوبها الأدمع الحمرُ
إليه وآذان الورى صكها وقرُ
ويظهر من مكنون أسمائه وفرُ
عصائب يغريها به البغي والغدرُ
خليل فأضحى ربح همهم الخسرُ
وكانوا بما هموا لجدهم العشرُ
كعيسى ويحيى آيةً وله الفخرُ
من العلم لا ساجي العباب ولا نزرُ
أهل بعد هذا في إمامته نكرُ؟
يراه له في علمه وله الجهرُ
وفيه لآل المصطفى يدرك الوترُ
يشد له بالروح في ملكه الأزُرُ
ويعلوها قسطاً ويرتفع المكرُ)
على قتله وهو المؤيده النصرُ)
(إلى وقت عيسى يستطيل له العمرُ)
وعن أمره منه النهوض أو الصبرُ
ولكن بأمر الله خير له السترُ
غداً يَحْتَشِيهِ من حوى السر والبحرُ)
وتعنو له حتى المثقفة السمرُ)
فرب اختفاء فيه يستترل النصرُ
يفر أخو بأس ليملكه الكرُ
على موعد فيها إلى رهم فروا

يذيب سويدا القلب حزناً فعاذر
ومذ أعذروا بالنصح لله والدعا
وشاء إله العرش أن يعضد الهدى
تألب أحزاب الضلال لقتله
وهوا به خبطا كموسى وجده الـ
فأغشاهم عنه وغشاه نوره
وقام خمسين بالإمامة آية
إذا أم معصومٍ من الآل زاخِرٍ
وكان كداوودٍ فسل هيثميكُم
وغاب بأمر الله للأجل الذي
وواعده أن يحيى الدين سيفهُ
ويخدمه الأملاك جنداً وأنه
(وإن جميع الأرض ترجع ملكه
(وإن ليس بين الناس من هو قادرُ
فأيقن أن الوعد حقٌ وأنه
فسلم تفويضاً إلى الله صابراً
ولم يكن من خوف الأداة اختفاؤه
(وحاشاه من جبن ولكن هو الذي
(ويرهب منه الباسلون جميعهم
أكل اختفاء خلت من خيفة الأذى
وكل فرار خلت جنباً فرمما
فكم قد تمادت للنبيين غيبة

وإن بيوم الغار والشعب قبله ولم أدر لم أنكرت كون اختفائه أتخصر أمر الله بالعجز أم لدى (فذلك أدهى الداهيات ولم يقل ودونك أمر الأنبياء وما لقوا فمنهم فريق قد سقاهم حمامهم (أعجز رب الخلق عن نصر حزبه وكم محتف بين الشعاب وهارب (فهلا بدا بين الورى متحملاً وإن كنت في ريب لطول بقائه أيرضى ليب أن يعمر كافر ودونك أبناء النبي به تزد فكم في (ينابيع المودة) منهل وفي غيره كم من حديث مسلسل ومن بين أسفار التواريخ عندكم وكم قال من أعلاكم مثل قولنا فكم في يواقيت البيان كفاية وذي روضة الأحياب فيها مطالب الـ

غناء كما يغني عن الخير الخيرُ
بأمر الذي يعيا بحكمته الفكرُ
إقامة ما لفقت أقعدك الحصرُ
به أحد إلاّ أخو السفه الغمرُ)
ففيه لذي عينين يتضح الأمرُ
بكأس الهوان القتل والذبح والنشرُ
على غيرهم كلا فهذا هو الكفرُ)
إلى الله في الأجيال يألفه النسرُ
مشقة نصح الخلق من دأبه الصبرُ
فهل رابك الدجال والصالح الخضرُ
ويأباه في باق ليحمي به الكفرُ
بأحاديها خيراً وآحاديها كثرُ
غير به يشفى لوارده الصدرُ
به يفتن الساهي ويستبصر الغرُ
يؤلف في تأريخ مولده سفرُ
به عارف بحر وذو خيرة حبرُ
يقلد من فصل الخطاب^(١) بها النحرُ
سؤول وفي كل الفصول^(٢) لها نشرُ

(١) تضمن هذا البيت ذكر أربعة كتب (١) اليواقيت للشعراني (٢) البيان للكشي الشافعي

(٣) كفاية الطالب، أيضاً له (٤) فصل الخطاب للخواجة بارسا البخاري الحنفي.

(٢) وهذا البيت تضمن ذكر ثلاثة من الكتب (١) روضة الأحياب في سيرة النبي

والأصحاب، تأليف السيد جمال الدين عطاالله (٢) مطالب السؤول لمحمد بن

طلحة الشافعي (٣) الفصول المهمة لنور الدين الصباغ المالكي..

نبوة فيها وهي تذكرة^(١) ذكر
 على كل تأريخ بتاريخه نصر
 شفات لدى مرآة أسراره السر^(٢)
 بسبع لياليها له ارتفع الستر
 وكل لديكم عارف ثقة بر
 ذري وفي أنجباره لكم خير
 (له الفضل عن أم القرى وله الفخر)
 على الناس من أم القرى يطلع البدر
 غدا أفقاً من خطه يضرب الستر
 سحاب ومنها يشرق البر والبحر
 وتستتبت الغبرا ويستكشف الضر
 بهم تدفع الجلى ويستترل القطر
 يحج وفيه يسعد النحر والنفير
 وزمزم والأستار والخيف والحجر
 كما غاب بين الناس إليس والخضر
 ففيه توالى الظلم وانتشر الشر
 لعمرك (قول عن معائب يفتري)
 لعلم عليم عنه لا يعزب الذر
 يكون إذا ما جاء بالعجب الدهر

مناقب آل المصطفى لشواهد الـ
 وذا الشيخ أضحي في فتوحاته^(٣) له
 ولاح بمرقاة الهداية في المكا
 وللحسن الشيخ العراقي قصة
 وصدقه الخواص فيما يقوله
 وعنه شفاها قد روى أحمد البلا
 وما أسعد السرداب حظاً ولا تقل
 لئن غاب في السرداب يوماً فإنما
 ولم يتخذة البدر برجاً وإنما
 وها هو بين الناس كالمس ضمها
 به تدفع الجلى ويستترل الحيا
 كما قيل في الأبدال والقطب أنهم
 ولا عجب إن كان في كل حجة
 ويعرفه بيت الحرام وركنه
 ولكنه عن أعين الناس غائب
 وقولك (هذا الوقت داع لمثله
 يعيبك فيه السامعون فإنه
 فما أنت والداعي فدعه مسلماً
 وقد جاء في الآثار أن ظهوره

(١) وفي هذا البيت ذكر لثلاثة كتب (١) المناقب لأخطب خوارزم (٢) شواهد النبوة للجامي

شارح الكافية (٣) تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي.

(٢) الفتوحات المكية لمحي الدين ابن العربي.

(٣) وفي هذا البيت ذكر أربعة كتب (١) المرقاة لعلي المتقي (٢) هداية السعداء للقاضي الدهلوي

(٣) المكاشفات للمولى علي أكبر المؤودي (٤) مرآة الأميرة للعارف عبد الرحمن.

من القذف بعد المسخ والخسف ما يعرو
ويحملها من جهلها المركب الوعر
على دينه ضعفاً كما يقبضُ الجمرُ
وينفخُ من حافات زاهره العطرُ
بكل رباط فيه يتسم الثغرُ
حميداً.. ومن (عبد الحميد) لها نشرُ
وذي علماء الأمة الأنجمُ الزهرُ
(ولا يرتضيه العبد كلاً ولا الحرُّ)
يكلّ بمضمار الجياد بك الفكرُ
به العقل والنقل اليقنان والذكرُ
وأهم في عصرهم لهم الأمرُ
أحاديث يعي عن تواترها الحصرُ
هو القائم المهدي والواتر الوترُ
بنور الهدى.. الحمدُ لله والشكرُ^(١)

ويعرو أناساً قد تمادوا بغيهم
وتغدو الورى إذ كان يقتادها العمى
حيارى بلا دين.. وذو الدين قابضُ
فكيف؟ وهذا الدين يزهر روضه
وهاهم ملوك المسلمين.. وعدلهم
وذي راية التوحيد يخفق ظلها
وهذا أمير المؤمنين وعدله
فدع عنك وهماً همت في ظلماته
وإن شئت تقرب المدى فلربما
فمذ قادنا هادي الدليل بما قضى
إلى عصمة الهادين آل محمد
وقد جاء في الآثار عن كل واحد
تعرفنا ابن العسكري وأنه
تبعنا هدي الهادي فأبلغنا المدى

وله قصيدة أخرى في ذكرى ميلاد صاحب الأمر، مطلعها:

حيّ شعبان فهو شهر سُعودي وعد وصلي فيه وليلة عيدي
وله قصيدة في معارضة ابن سينا في النفس التي مطلعها^(٢):

هبطت إليك من المحل الأرفع عنقاء ذات تعزّزٍ وتمتّع
فقال رحمه الله في مطلع قصيدته^(٣):

نعمت بأن جاءت بخلق المبدع ثم السعادة أن يقول لها ارجعي

(١) علي الخاقاني / شعراء الغري ٢/ ٤٤٣-٤٤٩.

(٢) المرجع نفسه ٢/ ٤٤٢.

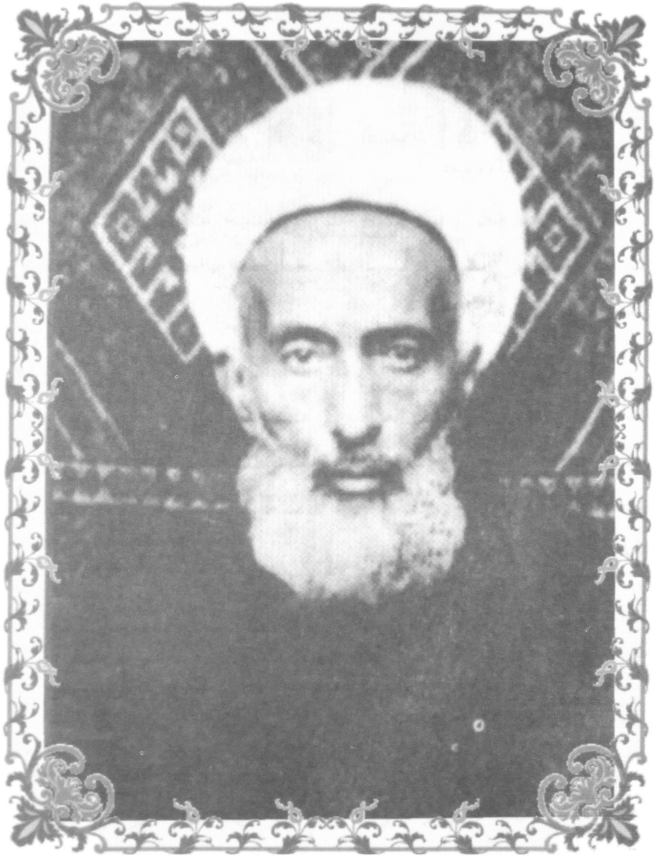
(٣) المرجع نفسه ٢/ ٤٤٩.

وفاته:

توفي الشيخ البلاغي يوم الاثنين ٢٢ شعبان / ١٣٥٢ هـ وصار ليوم وفاته دويّ في النجف عند العلماء وأهل الفضل والدين، وشيّع بأحسن تشييع وتوقير، ورفعت أعلام الحزن أمام نعشه الطاهر، وجيء بجثمانه إلى الصحن الحيدري الشريف، وصلي عليه، وجددوا به عهداً بمرقد أمير المؤمنين (عليه السلام) ودفن في الحجرة الثالثة من الصحن من الربع الجنوبي الغربي^(١).

* * *

(١) محمد حرز الدين ٢٠٠/١ معارف الرجال: تحقيق محمد حسين حرز الدين / طبعة قم / ١٤٠٥ هـ.



الشيخ عبد الكريم الجزائري.. مجاهداً

الولادة والنسب:

الشيخ عبد الكريم بن الشيخ علي بن الشيخ كاظم بن الشيخ جعفر بن الشيخ حسين بن الشيخ محمد بن الشيخ أحمد (صاحب آيات الأحكام) ابن إسماعيل النجفي الجزائري.

من أبرز زعماء عصره، وألمع قادة النجف الأشرف، ومن العلماء الأبرار العاملين، وصفوة المجاهدين العراقيين. يحظى بتأييد شعبي عظيم، ويتمتع بسمعة وطنية إجماعية، يسحر الجماهير ببيانه، ويستقطب الجموع الثائرة بأدائه، لم يلن عوداً للطغاة، ولم يتنازل لحظة واحدة للمستعمرين، حتى عاد مثلاً للثائر الصامد المجاهد.

ولد في النجف الأشرف ١٢ / جمادى الآخرة / عام ١٢٨٩ هـ كما حدث هو بذلك نقلاً عن خط والده رحمه الله.

أسرة آل الجزائري:

من أعرق البيوت العربية المعروفة في النجف الأشرف علماء وعملاً وأصالة وشهامة، وأنبهها عفةً وورعاً وقداًسة «ظهر فيهم عدد كبير من الفقهاء الأعلام والأدباء والشعراء، من لدن عصر جدهم الشيخ أحمد المتوفى في سنة ١١٥١ هـ»^(١).

(١) آغا بزرك/ نقباء البشر / ١ / القسم الثالث / ١١٧٣.

والمترجم له أكبر علماء هذا البيت الشريف ممن عاصرنا، ورث ذلك عن آبائه وأسلافه الأعظم، وجده الأعلى الشيخ أحمد الجزائري مؤلف قلائد الدرر المعرف بـ«آيات الأحكام» مفخرة هذا البيت رفعة ومجداً وتأصيلاً.

وآل الجزائري أسرة نجفية سكنت النجف الأشرف منذ عدة قرون، هاجرت إليه من قصبه «الجزائر» جنوب العراق، واستقرت بجوار أمير المؤمنين (عليه السلام) لطلب العلم، فيهم الشباب الإسلامي والعربي المتحمس، وفيهم العلماء والمؤلفون والشعراء والكتاب، ونبغ منهم الكثيرون في فنون شتى ممن عاصرناه، لاسيما العلم البارز الشيخ محمد الجواد الجزائري أخو المترجم له، فقد كان بطلاً جريئاً، ومناضلاً صلباً، وعالماً فحلاً، وشاعراً كبيراً، وأديباً ممتازاً، له «حل الطلاسمة» في الرد على إيليا أبي ماضي في طلاسمة، و«نقد الاقتراحات المصرية» في تيسير اللغة العربية، و«فلسفة الإمام الصادق» وسوى ذلك من الآثار ودواوين الشعر.

كان ثائراً جريئاً ضد الاستعمار البريطاني، وذرورة في الاتجاه الوطني الخالص، حكم عليه بالإعدام من قبل الانكليز عام ١٩١٨م باعتباره العضو البارز في جمعية النهضة الإسلامية، وأحد رجال ثورة النجف الأشرف ضد الانكليز، وخفف عنه الحكم بالسجن والإبعاد إلى المحمرة، نتيجة تدخل زعيم الثورة العراقية، الشيخ محمد تقي الشيرازي الحائري، وتوفي عام ١٩٥٩م، ودفن في النجف الأشرف بمقبرة الأسرة، الواقعة في أول شارع مسجد الجزائري في محلة العمارة من النجف، والتي أزيلت آثارها ضمن التخطيط الطاغوتي لأكساح معالم النجف الأشرف في الثمانينات من القرن العشرين، فدخلت ضمن الشارع العام.

أساتيدته وحياته العلمية:

يقول الشيخ آغا بزرك:

«في تلك المعاهد العلمية الدينية العالية التي كان يديرها الكاظميان الخراساني واليزدي وأضرابهما من الفحول والأساطين والمحققين؛ درس المترجم

له وتلقى، وفي تلك النوادي الأدبية وحلقات السبق التي كان يتبارى فيها أمثال السيد إبراهيم الطباطبائي -بحر العلوم- والسيد جعفر الحلبي، والسيد محمد سعيد الحيوبي ونظرانهم من النوابغ نشأ وتأدب، وفي ذلك العصر الذي ازدهرت فيه الحياة العلمية في النجف الأشرف، وغصت بطلاب العلم، وشيدت فيه المدارس الدينية، وراجت أسواق العلم والأدب، ظهر المترجم له مشاراً إليه بالبنان، مرموقاً بين أجدانه من الفضلاء والأدباء ووجوه أهل العلم. وقد أطلق اسم (العشرة المبشرة) على عشرة أشخاص، معظمهم من أعلام الأدب، كانوا صفوة ممتازة، والمترجم له واحد منهم، وهو آخرهم وفاة^(١).

وبعد دراسة الشيخ الجزائري مقدمات العلوم العربية والبلاغية والمنطقية اتجه نحو الفقه والأصول وعلوم الشريعة، فحضر الأبحاث العالية لدى مراجع عصره، وأبرزهم:

١- الشيخ محمد طه نجف.

٢- الشيخ محمد كاظم الآخوند الخراساني.

٣- السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي.

٤- الشيخ حسين آل صاحب الجواهر.

٥- الشيخ فتح الله الأصفهاني المعروف بشيخ الشريعة.

ولدى تكامل شخصيته العلمية استقل بالدرس والتدريس في البحث الخارج، وقد تخرج في بحثه هنا كوكبة من الأعلام، وطائفة كبيرة من أفاضل العصر العرب والمهاجرين.

وأقام الجماعة إماماً في مسجد آل الجزائري المبارك في محلة العمارة، وقد أزيلت آثاره لدى الحملة الإجرامية الكبرى في تغيير معالم النجف الأشرف العبادية والعلمية والأثرية بدم أكثر محلة العمارة الحافلة بالعلماء وكبار القادة

(١) آغا بزرك/ نبقاء البشر/ القسم الثالث/ ١١٧٥.

الروحيين، فهدمت الدور والمدارس العلمية والمساجد والمؤسسات باسم الإعمار الكاذب، إذ لازالت النجف القديمة خرائب كما أراد لها الطفأة وإلى اليوم.

«وكان باب داره يفتح من أول الصباح، ولا يغلق إلا بعد مضي ساعات من الليل، يرتاده طلابه في مجلس درسه الصباحي في الفقه، فينهلون من معينه العذب، ويستزيدون من طلعه البهية وخلقه الرضي، ويختلف طبقات الناس من ذوي الحاجات، فيستقبلهم بنفسه ضاحكاً مرحباً، ويأدر على قضاء حوائجهم مهما استعصت، وفي أي جهة كانت فيخرجون بقلوب فرحة ووجوه ضاحكة، وقد قام للكثير من النحفيين وذوي البيوت والشرف، وأهل العلم منهم خاصة، بخدمات كثيرة لا يأتي عليها عدّ، فقد أعانهم بجاهه على الدهر، وخلّصهم من الظلمة... وكان لتواضعه وأدبه النفسي، وأخلاقه الفاضلة، أثار فقال في نفس جليسه ومصاحبه»^(١).

وقد وصفه معاصره الشيخ جعفر آل محبوبة بقوله:

«هو اليوم من نوابغ العلم، وأعلام النجف المشاهير، ومن رجال الإصلاح، له مكانة سامية وشأن رفيع في نفوس مواطنيه، وله اليد في القضية العراقية، وأحد المراجع والمستشارين فيها، له حوزة علمية يحضرها بعض طلاب العلوم الدينية»^(٢).

وقد حضرت مجلسه هذا في الأعوام الأخيرة من حياة الشيخ الجزائري، فرأيت البشر الطافح على حدّ سواء، ولمست آثار الإصلاح بارزة السمات في التخاطب وآثار الحديث، ورأيت أصوات التدريس عالية في النقاش والاستدلال والمناظرة، وأعجبت بآداب المجلس في عاداته وتقاليده العربية الأصيلة، ووقفت

(١) آغا بزرك/ نقيب البشر ١/ القسم الثالث/ ١١٧٨.

(٢) جعفر محبوبة/ ماضي النجف وحاضرها/ ٨٦/٢.

مندهشاً عند ظاهرة عريقة لدى العلامة الجزائري في استقباله للشباب والتبسم بوجوههم، والاعتداد بهم، فهو يراهم أمل المستقبل للإسلام والوطن، وهما شغله الشاغل، وهدفه المركزي الرائد، وثمة ظاهرة أخرى، فهو يرحب بالكبير والصغير بعبارات مهذبة نابعة من القلب، ويعظم أهل الدين تعظيماً بالغاً، ويلاحظ من حضر مجلسه من مختلف الطبقات بعناية فائقة، فيسأل عن الحال، ويكثر من الدعاء، ويشجع الشعراء والأدباء، ويعنى بحملة الرسالة ودعاة الإصلاح، ولا يمل ولا يكلّ من تلبية الطلبات في قضاء الحوائج وإغاثة المهوفين، ولا يمتنع من الوساطة في سبيل ذلك لأعلى مركز في الدولة، وله بذلك ثلاث وسائل: إرسال الموفدين من قبله للتحدث في الأمر الذي يوصي بإنفاذه، استعمال جهاز التلفون والاتصال مباشرة بالمسؤول الذي يتعلق الموضوع به، كتابة الرسائل إلى من يعينهم الأمر بذلك، وهو يتقرب إلى الله بهذه الأعمال التي كشف بها الكروب وآغات المحرومين.

وكان على كثرة مشاغله، وتعدد تطلعاته، واختلاف واجباته، وتراكم مهماته القيادية والإصلاحية، مكباً على التحصيل والاجتهاد العلمي، مشعراً ساعديه للاشتغال بفقهاء أهل البيت وعلم الأصول، وقد ذكر له مترجموه جملة من الرسائل والآثار منها:

- ١- تعليقة على الرياض.
- ٢- تعليقه على مكاسب الشيخ الأنصاري.
- ٣- شرح مباحث الظن والقطع من رسائل الشيخ الأنصاري.
- ٤- شرح على العروة الوثقى لأستاذ السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي، وصل فيه إلى آخر كتاب الحج^(١).

* * *

(١) ظ: جعفر محبوبية / ماضي النجف وحاضرها ٨٧/٢.

مميزاته وخصائصه:

أجمع المتحدثون عن العلامة الجزائري، والمشهدون لآثاره في البرّ والإحسان والنبيل والفضل والخلق القويم، وكما رأته شخصياً أنه ذلك الرجل الأمثلة في المنهج والمسار، والعقري المستقيم في الخلق والأدب والكمال، ذلك أنه «امتاز بصفات عدمت عند الكثير من إخوانه الذين عاصرناهم، فهو صلب في رأيه، رقيق في شعوره، دقيق في حسّه، يرصد النكتة، ويوجه الناس مهما غلظوا إلى حيث يهوى ويشاء من الحديث، ويهيمن على أحاسيس جلسائه كإنسان تعمق في نفس كلّ منهم، فجاد بها حسب مقياسها وقابليتها»^(١).

وذكره صاحب الحصون النبعة فاعتبره لطيف العشر، حسن المذاكرة، قويّ الحجة، صادق للهجة، مع تقىّ وديانة، وتمسك بالشرع والأمانة»^(٢).

ورأته فوق هذا كله: مناراً يستضاء به في شمائله، وشعلة متوقدة من الذكاء والحيوية ودقة النظر، وليس من الفضول أو المغالاة أن تجده قوي الشكيمة، رابط الجأش، لا تهزه الصدمات، ولا تثنيه العقبات، أريحي الطبع، هادئ المزاج، مطمئن الضمير، عفاً اليد واللسان، تغلب عليه روح الفكاهة البريئة، فإذا جدّ الجدّ عاد ابن مجدها نضالاً وصيالاً، كثير الاعتداد بالأخوة الصادقة، بعيد النفس عن المطامع والمكاسب، شديد التعلّق بالمبدأ، جمّ الإذلال للذات، يتواضع وكأنك قرينه، ويتغافل وكأنك حبيبه، ترفع عن صفائر الأمور، وتمسك بالأعالي من الآمال. يقطر غيرة وحمية، ويتفجر حماساً ووطنية، ما من عقبة إلاّ اقتحمها، ولا عظمة إلاّ اخترقها، ثبت الجنان صلب العقيدة، هو بين إخوانه كأحدهم، له ما لهم وعليه ما عليهم.

وإذا أخذ في الحديث والبيان، فهو سريع البديهة، رائع الأسلوب، مشرق العبارة، يتصدر ديوانه العلمي فيخوض غمار المسائل، ويترأس محافل قومه فلا

(١) علي الخاقاني / شعراء الغري ٥/٥٠٦.

(٢) علي كاشف الغطاء / الحصون النبعة ٩ / ورقة ٣٢٢.

يصدر إلا عن الرأي الصراح، نشأ في مجبوحه من المجد الشامخ، وتفتأ ظلال الشرف التليد، لم تحدعه المناصب في شبابه، وقد رشح لوزارة المعارف العراقية في أول وزارة بعد الاحتلال البريطاني فرفض ذلك، ولم يصنع للمطامح وقد واتته فتأبى عليها، سلك مسلك الزاهدين في الحياة، وعاش طاهر الذيل من أوضار الدنيا، له من تقواه خير حافظ، ومن نبلة أروع خدين، يؤثر الآخريين ولا يستأثر بشيء، ويشارك الناس آلامهم وأفراحهم، نذر نفسه للبلاد، وسعى في مشاكل العباد، لم يبخل بجأه على أحد، ولم تطلب إليه الشفاعة فنكص، وهكذا كان رحب الصدر والفناء، مبذول الجاه والوساطة، لا يكل عن الإحسان، ولا يتوانى في المعروف، مسارعاً لاستباق الخيرات، ومواظباً على قضاء الحاجات، وهنا يلتقي لدى العلامة الجزائري الهدف الديني بالهدف الاجتماعي، ويبدو المحور الانقاضي معانقاً للمحور التشريعي، فلله درّه، وعلى الله أجره.

يضاف إلى هذا كله شدته في ذات الله، وثباته على القول الثابت، وهو مما شاع ذكره، وفاح نشره، وبقي فخره.

يقول الشيخ آغا بزرك أعلى الله مقامه متحدثاً عن هذا الملحظ: «من موافقه المشرفة ما حدث بينه وبين الشيخ خزعل الكعبي أمير عربستان الذي كانت له به أوثق الصلات والعلائق، وكان يكنّ للمترجم له حباً واحتراماً لاحد له، فقد دعاه للوقوف بوجه الانكليز ومحاربتهم، فأبى إلا أن يمآلهم، فقطع صلته به، وأبرق له بقوله: (فرق بيني وبينك الإسلام) وله مثل ذلك كثير مع الذين تساهلوا في أمر الدين والوطن»^(١).

وهذا النوع من الصلابة لا يتوافر إلا عند أولئك القلائل الأفذاذ الذين نذروا أنفسهم للإسلام، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، والنحف تعلم

(١) آغا بزرك/ نقيب البشر ١ / القسم الثالث / ١١٧٦.

بطبقتها الصلة الوثقى بين الشيخ الجزائري والشيخ خزعل، ومدى الارتباط بكل شيء في سبيل المبدأ.

وكان العلامة الجزائري جريئاً مع المسؤولين، محاسباً لهم، لاتأخذه في الله لومة لائم، ولا يثنيه عن قول الحق خوف أو اضطراب، همه المصلحة العليا، وعمله لخير البلاد، وتمحضه للصالح العام، ولا تنازل عن هذه الثوابت الخيرة في مسيرته النضالية وجهاده المستميت.

يقول الشيخ آغا بزرك في هذا الملحظ: «لقد عرف المترجم له في النجف والعراق طويلاً كزعيم ديني وقائد محنك، واحتل في التأريخ صفحات ناصعة البياض، فبالرغم من أن داره كانت خلال السنين الطوال مهبط الملوك والأمراء والزعماء والقادة، ومختلف الرجالات والكبراء، لم يسمع عنه أنه جرّ لنفسه مغنماً أو هادن ظلاماً، أو تواضع لحاكم، أو أساء تصرفاً، أو رضي لنفسه السكوت عما كان يراه ويسمع به.

وكان يحضر مجلسه عند زيارة المسؤولين له أهل العلم وأعيان البلد، فكان لايفتر عن تقديمهم وتحميلهم مسؤولية تصرفاتهم، وإسداء النصح والتوجيه لهم، وحثهم على خدمة البلد، ورعاية الدين وأهله، والشعب ومشاكله.

وكان مرجعاً لمختلف طبقات الناس وللمراجع وزعماء الدين أيضاً، فما حدثت حادثة إلاّ وتهافتوا على داره، وبحثوا المشاكل معه، واسترشدوا برأيه في معالجة الأمور، وكان شديد الرأي أصيل التفكير، طويل الأنأة بعيد النظر، يقطاً محنكاً، وكان الحجة السيد أبو الحسن الأصفهاني - المرجع الأعلى في عصره- في أوج عظمته وزعامته يكبره ويستشيره في أموره. ويستأنس برأيه في كثير من الأمور العامة، وظل مرهف الحسّ سالم التفكير إلى أيامه الأخيرة»^(١).

(١) آغا بزرك/ طبقات اعلام الشيعة/ نقباء البشر ١/ القسم الثالث/ ١١٧٧-١١٧٨.

ولمة ناحية أخرى، أن الفقيه على منزلته الرفيعة، كان يسكن داراً متواضعة في محلة العمار في الشارع المسمى باسمه، وكان أيضاً في حالة اقتصادية صعبة، مكتفياً بما قلّ وأغنى، في كفاف من العيش، وضحك من الرزق، زاهداً قانعاً، شاكراً ذاكرأ، صابراً محتسباً، لا يفتأ لسانه لهجاً بذكر الله تعالى، مسبّحاً بحمده، شأنه بذلك شأن علمائنا الأبرار، فكان بحق من أوتاد الأرض الذين يستدفع بهم البلاء والعناء.

وكان مع ضائقته المالية أبيّ النفس كريم اليد، فإذا وصل إليه شيء من الحقوق الشرعية، قسّمه بين تلامذته، وأنعش به الفقراء والمساكين، ولم يدّخر شيئاً على الإطلاق.

العلامة الجزائري في جهاده الوطني:

وقد اندمج الشيخ الجزائري اندماجاً كلياً في حومة الجهاد الوطني، وشارك مشاركة ظاهرة في حركة الحرية والدستور منذ عهد المولى الشيخ محمد كاظم الآخوند (ت ١٣٢٩هـ) وحارب إلى جنب المجاهدين الأحرار ضد الاستعمار البريطاني لدى دخوله العراق في ١٩١٤، واستقر في محافظة العمارة عام ١٩١٥م بعد انسحاب العراقيين والعثمانيين من القرنة إثر هزيمة الجيش العثماني، وخطط أو وافق أو دعم ثورة النجف الأشرف ضد الإنكليز في ١٩ / آذار / ١٩١٨م، وكانت جمعية النهضة الإسلامية يجناحيها العسكري والروحي تسترشد بنور آباءه الصائبة، وساند قائد ثورة العشرين الشيخ محمد تقسي الحائري الشيرازي وكان من المقرّبين إليه، وشاور قادة الثائرين في كيفية الانقضاض على الاحتلال البريطاني، والتقى زعماء العشائر في الفرات لإعلان الثورة، وشارك بفاعلية قصوى من أجل حصول العراق على الاستقلال السياسي، وكان أبرز رجالات ثورة العراق هذه في ١٩٢٠م ومن المخططين لها والعاملين في صفوفها، والمكتوبين بجمراتها، والمدافعين الحقيقيين عن الشعب

العراقي بيده ولسانه وماله، ولقي من جراء ذلك أصناف المموم والغموم، وتعرض لأشتات المكاره والابتلاءات، كل ذلك بإزاء أداء رسالته الإصلاحية في الإخلاص للدين والوطن والأمة، فقد نصح لأمته، وناضل من أجل وطنه.

يقول الأستاذ علي الخاقاني: «فهو عربي بزعته، ومسلم في دعوته، وجعفري في مذهبه، يريد العروبة والإسلام، والإسلام للوحدة، والمذهب للهداية، والجميع لله سبحانه».

جاهد الانكليز على حدود العراق، وطاردهم في جبهة الحويزة، وبذر البذرة الأولى في تشكيل الحكومة العراقية، فكان موفقاً في جهاده، منصوراً في مطاردته، مباركاً في بذرته»^(١).

ولعل الشيخ آغا بزرك طاب ثراه من أولئك القلائل الذين عرضوا لجهاد العلامة الجزائري في صفحات مشرقة من أضواء نضاله الفكري والبطولي والعسكري والاجتماعي في تكتيف معمق، وشذرات معبرة، فقال:

«والمترجم له -الجزائري- من رجالات العراق البارزين والتمنحنيات الإسلامية المعروفة، وحياته حافلة بالمفاخر والمآثر والكفاح والجهاد في سبيل ربّه وأمته ووطنه، وفي الحقيقة إنها سجل يوضح جانباً من تأريخ العراق في الخمسين سنة الأخيرة، لأنه شارك في معظم الأحداث مشاركة فعّالة، وعمل على معالجة كثير من المشاكل والوقائع بحكمة وإخلاص، وقد مرّ عليه نصف قرن وهو أحد أقطاب النجف، ورجال الرأي، وقادة الفكر، وأبطال الجهاد، وأعيان العلماء».

لمع اسم المترجم له أول ما لمع في معركة المشروطة والاستبداد، فقد كان ممن انحاز إلى جانب الحجة الخراساني، الذي تزعم الفريق الأول، وكان من مؤيديه وأعوانه، ويعرف معاصروه دوره في تلك المعركة

(١) علي الخاقاني / شعراء الغري ٥/٥٠٦.

جيداً، وعندما أعلنت الحرب العالمية الأولى ودخل الأتراك الحرب إلى جانب الألمان، بادرت القوّات البريطانية في عبادات لاحتلال جنوب العراق، وعندها أفتى علماء النجف الأشرف بوجوب الدفاع عن بيضة الإسلام، والوقوف في وجه الكفّار، وبالرغم من الظلم والاستبداد الذي عاناه العراقيون زمناً طويلاً من الأتراك، فقد وقفوا معهم جنباً إلى جنب، وانتظموا في جبهات حربية قادها المجتهدون بأنفسهم، ونزلوا معها ساحات القتال، كجبهة الشعبية التي قادها السيد محمد سعيد الحبوبي وأعوانه، وجبهة القرنة التي قادها السيد علي الداماد والمترجم له بإشراف شيخ الشريعة الأصفهاني، وغيرهما من الجبهات ذات النطاق الواسع».

«وقد كان المترجم له في طليعة العلماء الذين اشتركوا في الصف الأول من المجاهدين، كما عمل على إثارة المتنفذين ودعاهم للوقوف في وجه الانكليز المحتلين لما كان يتمتع به من كلمة نافذة في الأوساط الدينية والوطنية والعشائرية... وظلّ كذلك يخوض غمار الأحداث في تلك الظروف الراهنة حتى قامت الثورة العراقية، فكان من رجالها البارزين، ومن مستشاري الحجة الشيخ محمد تقي الشيرازي، ومن الوسطاء بينه وبين رجال العشائر والوجوه والأعيان، لأنه كان مسموع الكلمة - كما قلنا - مطاعاً لدى الكلّ لما عرفه الجميع من إخلاصه وتجرده للمصلحة العامة، وهو أحد الأربعة الذين انتخبهم النجفيون للمطالبة بحقوقهم، وانتدبهم لتمثيلهم، وعرض مطالبهم على حكومة الاحتلال البريطاني»^(١).

(١) انتخب الشعب العراقي من خلال قيادته الروحية في النجف الأشرف خمسة من

العلماء والوطنيين ليكونوا مندوبين عن الشعب في طلب الاستقلال، وهم:

- ١- الشيخ عبدالكريم الجزائري.
- ٢- الشيخ عبدالرضا الشيخ راضي.
- ٣- الحاج محمد جعفر أبو الثمن.
- ٤- الميرزا أحمد نجل زعيم الأحرار المولى محمد كاظم الخراساني.
- ٥- الشيخ إسحاق نجل الميرزا حبيب الله الرشدي.

وكان العلامة الجزائري منذ شبابه المبكر مجاهداً وطنياً مخلصاً، ولدى إعلان الجهاد ضد الانكليز في النجف الأشرف، وتحرك المحاور الثلاثة لمحاربة الانكليز في الشعبية والكوت والأهواز، التحق بجهة الأهواز بعد انسحاب العراقيين من القرنة في ١/حزيران/١٩١٥م واستقر هو والشيخ مهدي الخالصي، والشيخ جعفر الشيخ راضي، والشيخ حسن علي القطيفي والسيد محمد نجل السيد محمد كاظم اليزدي، وقد مكثوا في لواء العمارة، وشكلوا جبهة ثالثة لقتال الانكليز هي جبهة الحويزة والأهواز. وقامت بينهم وبين الانكليز عدة حملات انتصر فيها الثوار على الانكليز.

وقد ذكر الأستاذ السيد محمد علي كمال الدين رحمه الله إحدى هذه الحملات فأطراها بقوله:

«وحرّي بنا أن نظري الأعمال التي قام بها البطل الشيخ عبد الكريم الجزائري، فقد كان محور هذه الحملة، وقائد سياستها»^(١).

ولدى هزيمة الثوار بالشكل المعروف الذي ذكرناه في حديثنا عن السيد محمد سعيد الحويبي، عاد العلامة الجزائري إلى النجف الأشرف، ليعمل من جديد في خط آخر هو خط ثورة النجف الأشرف ضد الاحتلال البريطاني في ١٩/ آذار/ ١٩١٨م.

وقد اعتبر السيد عبد الرزاق الحسن العلامة الجزائري من مؤيدي «جمعية النهضة الإسلامية» التي أسسها أخوه البطل المجاهد الشيخ محمد الجواد الجزائري والسيد محمد علي بحر العلوم ورفاقهما، والتي هدفت إلى تخليص العراق من براثن السيطرة الأجنبية، وتأييب المسلمين على الأجانب الكافرين، ضماناً لاستقلال البلاد وتحريرها من ربة الاستعمار^(٢).

(١) محمد علي كمال الدين / النجف في ربيع قرن / ١٧٤.

(٢) ظ: عبد الرزاق الحسيني / ثورة النجف / ٣٠-٣٤ باختصار وتصرف.

وكان للعلامة الجزائري دور التوجيه والنصح الكريم لثوار النجف ضد الحاكم البريطاني الكابتن مارشال عام ١٩١٨م، إذ اخترق الثوار الحصار المضروب على النجف و«عملوا الاتصالات اللازمة مع بعض الأبرار المتحمسين للثورة، ومن أبرزهم: العلامة الهمام الشيخ عبد الكريم الجزائري، والشيخ محمد رضا الشبيبي، والعلامة السيد عيسى كمال الدين، والسيد محمد سعيد كمال الدين، والسيد محمد علي بحر العلوم، واتصلوا بغيرهم من الوطنيين المخلصين، وأعارفين تماماً بمقاصد ومرامي الانكليز... وأن على العلماء الأبرار والوجوه الفاضلة أن يثبوا الوعي بين سواد أبناء البلدة»^(١).

وعدّ الأستاذ كامل سلمان الجباري العلامة الجزائري: «في طليعة المجاهدين في الحرب العالمية الأولى، وكان إلى جانب الدولة العثمانية في حربها الطاحنة ضد الانكليز في العراق، ولما تخلّت من العراق الذي أصبح تابعاً للانكليز، انضمّ إلى قادة الرأي العام في العراق في مناوئته سلطات الاحتلال، وبذل النفس والنفيس في إنقاذ العراق من هذه الخنة؛ وكان من أقطاب ثورة العشرين، وكان عضواً في الثوار، وعوناً لكبار العلماء»^(٢).

أما الأستاذ محمد علي كمال الدين رحمه الله، فقد عدّ العلامة الجزائري أهم عضو في الطبقتين الروحية والمتجددة في النجف الأشرف اللتين تكونتسا لإنقاذ البلاد من الاحتلال، وقد أعطى قائمة بأسماء رجال الطبقتين من الثوار المطالبين باستقلال العراق وإعلان ثورة العشرين، بل كان أيام الثورة محور الحركة ومجرى التفكير للثورة والثوار والعلماء والمجتهدين والمتقنين، يسانده في جهاده هذا الشيخ جواد الجواهري وزعماء القبائل مع أفراد الطبقة الأولى^(٣).

(١) مذكرات حميد عيسى حبيبان/ ضمن النجف الأشرف ومقتل الكابتن مارشال/ تأليف كامل سلمان الجبوري/ ٤٦١/ دار القارئ/ بيروت/ ٢٠٠٥م.

(٢) كامل سلمان الجبوري/ النجف الأشرف ومقتل الكابتن مارشال/ ٢٤٤.

(٣) ظ: محمد علي كمال الدين/ النجف في ربيع قرن/ ٢٤٤/ تحقيق: كامل سلمان الجبوري/ دار القارئ/ دار المواهب/ بيروت/ ٢٠٠٥م.

وذلك أن الثورة العراقية بقادتها، قد أسست لها مكتباً سرّياً في أحد دواوين الصحن الحيدري الشريف، وفي مكتبة الأستاذ عبد الحميد زاهد أحد شباب الثورة، وقد تكونت في هذا المكتب فكرة الثورة ونضجت عام ١٩٢٠م، وعند ذلك تشكلت في النجف الأشرف أربع طبقات للرأي والتخطيط والعمل والتنفيذ بعد الاتصال المباشر بزعماء الفرات الأوسط.

وهذه الطبقات: الطبقة الروحية، وطبقة المثقفين، وطبقة التجار والوجوه والأعيان، وطبقة الشباب والمحررين.

وكان العلامة الجزائري لولب الطبقتين الأولى والثانية.

واجتمع علماء النجف الأشرف في دار شيخ الشريعة ليلة السادس عشر من شهر رمضان ١٣٣٨هـ. أ. كتبوا وثيقة لانتداب هؤلاء العلماء لتمثيل الفرات الأوسط والعراق تمثيلاً قانونياً صحيحاً أمام حكومة الاحتلال في العراق»^(١).

وكان العلامة الجزائري هو المتحدث باسم الشعب العراقي أمام الحاكم البريطاني في عدة مواقف حاسمة، وكان قوله الفصل الذي لم يستطع الحاكم السياسي الانكليزي مقاومته، سيما في الاجتماع الأول الذي مثل به المنذوبون العراق أمام السلطة البريطانية. فقد طلب الحاكم السياسي البريطاني لعموم لواء النجف والشامية، عدم الهياج والبلاد، ومنع المظاهرات، فجاهه الجزائري بقوله: «إن دوي المحافل في النجف دوي مشروع من كل الوجوه، لم يقصد منه إثارة القلاقل وتعكير صفو السلام، فالنجف لا تريد في قيامها الجديد أن تجدد عهد الحركات الأولى!!

النجف تريد أن تحتفظ اليوم بأصول المدنية الحقّة، فإذا كان النداء لطلب الاستقلال، والاهتاف لتأييد الحكومة العربية، مخالفاً للقوانين الدولية، فلماذا

(١) محمد علي كمال الدين/ النجف في ربيع قرن / ٢٥٣ / تحقيق الجبوري.

لاتعدّه الأمم الأخرى كذلك حينما يقع مثله في بلادها. وإني أؤكد لحضرتكم أنا لانستطيع كمّ الأفواه وحبس الأصوات، كما أنا لانسأل عن وقوع الحوادث والاضطرابات إذا لم تحقق الحكومة تحقيق رغبات الأمة.

قال الحاكم السياسي: قد يتعذر على الحكومة تحقيق آماني الأمة على الفور.

قال الجزائري: لا بدّ من تنفيذ المطالب المندرجة في الطلب، وإلاّ فإن المغبّة سيئة والعاقبة وخيمة»^(١).

ولم تنفع كل الاحتجاجات، وكذبت وعود البريطانيين، وفقد الشعب العراقي الثقة بالمتحليين، فصمّم العلماء والزعماء والمتقفون وأهل الرأي من الشعب على التخطيط إلى الثورة، ففأتمّوا بذلك الشيخ محمد تقسي الحائري الشيرازي، فألزمهم بالمطالبة بحقوقهم سلمياً أولاً، ثم بالتوسل بالقوة الدفاعية إن لم يستجب الانكليز لذلك، واعتبر الثوار هذا الإعلان من قبل الشيرازي إفتاءً بالثورة، فقامت الثورة في النجف الأشرف وكرلاء المقدسة والفرات الأوسط، بإطلاق الرصاصة الأولى التي حرر بها زعيم الطوالم من السجن الشيخ شعلان أبو الجون في ٣٠ / حزيران / ١٩٢٠ م.

وكان ذلك اليوم إعلانها الفعلي والعملي فقامت على قدم وساق، واستجاب لها الشعب العراقي لاسيما الفرات والجنوب والكاظمية وبغداد استجاب تتراوح بين التأيد والحماس، وبين حمل السلاح والانخراط بصفوف المجاهدين.

وكان دور العلامة الجزائري مشرفاً في الإشارة والإرادة والقيادة والاندماج الكلّي، وانتهت الثورة بتشكيل حكومة عربية بإشراف دار الاعتماد البريطاني، وكان الاستقلال شكلياً، بإرادة بريطانية وإدارة عراقية، ولكنها ضعيفة مسيرة غير مخيرة، فكثرت الاضطرابات والمظاهرات والاحتجاجات، وحرّم علماء النجف الأشرف انتخاب المجلس التأسيسي، وعارضوا الحكم البريطاني المغلّف،

(١) المرجع نفسه / ٢٦١.

وقاطعوا الدولة بكل مرافقها لاسيما بعد تسفير الشيخ مهدي الخالصي، وسفر الميرزا محمد حسين النائيني، والسيد أبو الحسن الأصفهاني. عن معهما من العلماء وحوزة النجف الأشرف.

وكان الجزائري ساخطاً على الحكم، ناقماً على رجال الدولة من بغداد ولواء الدليم، معلناً غضبه في أكثر من مناسبة، معبراً عن معارضته من خلال مواقف حاسمة، سجلت استنكاره حيناً، وأصحرت بتوجهه الرفض حيناً آخر. وبالإمكان تلخيص ذلك الاستنكار وهذا الرفض بمشاهد حيّة نابضة على شكل نقاط رئيسة، منها:

١- اعتذاره عن قبول منصب وزارة المعارف في أول وزارة عراقية، واستهجانه لهذا التكليف الذي لايناسب مقامه الروحي.

٢- رفض المجلس التأسيسي الكاذب الذي شكّل في ١٩٢٤م في وزارة عبد المحسن السعدون، وإعلان تحريم المشاركة فيه.

٣- استنكر (قدس سره) المعاهدة البريطانية العراقية التي عقدت عام ١٩٣٠م، وكانت تكبيراً للشعب العراقي في حريته وكرامته وثوراته واستقلاله، يجعل العراق مرتبطاً بتبعية الانكليز رغم الاستقلال المزيف، وكان إنكاره هذا علنياً أمام وفود الأحزاب القومية والوطنية التي قابلته في داره في النجف الأشرف.

٤- تجاوبه مع حركة الفريق بكر صدقي، لاتأيدها لها، ولكن لغرض معارضة نوري السعيد ونظامه ورجال الدولة.

٥- تأييده المطلق لحركة الضباط الأربعة بقيادة رشيد عالي الكيلاني ضد الانكليز عام ١٩٤١م، بما أعلنت عنه من رفض الوصاية البريطانية وتشكيل حكومة الدفاع الوطني، وأبرق لرئيس الوزراء الكيلاني مباركاً همضته بفك العراق من الارتباط بالسلطة البريطانية، وتخليص الشعب من الاستعمار

والتبعية، ولما قضى على الحركة من قبل الوصي على عرش العراق الأمير عبد الإله، وهرب منفذوها إلى الخارج، لم تستطع الحكومة أن تتعرض للعلامة الجزائري ولا العلماء الآخرين بسوء، نظراً للمنزلة العليا التي يحتلوها في نفوس طبقات العراقيين كافة، وحذراً من الاضطرابات.

٦- رفض الشيخ الجزائري معاهدة «بورتسموث» التي ربطت شؤون العراق ببريطانيا، وأنحى بالأئمة على الحكومة العراقية لاستخذائها أمام الانكليز.

٧- استنكر العلامة الجزائري قرار التقسيم لفلسطين، وقيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م، وأهاب بالجيوش العربية أن تحرر فلسطين من براثن الصهيونية العالمية، ودعا الحكومات إلى مدّ العون والمساعدة المالية والعسكرية والسياسية لشعب فلسطين من أجل إنقاذها من الخطر المحدق، وإرجاع أراضي فلسطين إلى أهلها الشرعيين.

٨- شجب العلامة الجزائري الاعتداء الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م من قبل فرنسا وبريطانيا وإسرائيل، وأضرب عن التدريس والصلاة جماعة كبقية مراجع النجف الأشرف، وبارك قيام المظاهرات الوطنية المستنكرة للاعتداء.

٩- آذر جميع الأحزاب القومية والوطنية في العراق لإنقاذ الشعب من الاستعمار الانكليزي على أيدي العراقيين الخونة من السائرين بركابه، وأنكر على البريطانيين تدخلهم في شؤون البلاد، وطالب الحكومات المتعاقبة بالعدل والإصلاح، ورفض كل أشكال القمع والإرهاب والعنف والطائفية والعنصرية الذي تمارسه السلطات ضد أبناء الشعب العراقي.

١٠- أيد ثورة الرابع عشر من تموز بحذر، ودعا زعماءها إلى العمل في سبيل المصلحة العامة، وأنذرهم عواقب الظلم والطغيان، وأبرق بذلك إلى الزعيم عبد الكريم قاسم، فكانت العناية بذلك كبيرة إذ أجابه الزعيم ببرقية شكر جاءت فيها العبارة الآتية:

تسلّمت برقيتكم الأبوية أيها المجتهد الأكبر.

١١ - حرّم الشيوعية والانتساب إلى الحزب الشيوعي عند المدّ الفوضوي في العراق ١٩٥٩م، واستنكر إعدام الضبّاط الأحرار، وقاطع الدولة ورجال الثورة. وعلى إثر ذلك ضويق ولده الوحيد الأستاذ الشيخ أحمد الجزائري، وهو شاب متيقظ ينبض بالطاقة والحيوية، أديب، شاعر، جريء، وقف في صدّ المبادئ الهدامة، ودعا إلى عروبة العراق وأصالته القومية، وكان على خطر من موقفه، فغادر العراق والتجأ إلى القاهرة، فاستقبله الرئيس جمال عبد الناصر بالحفاوة والتقدير، ومكث هناك ثلاث سنين حين فاجأه القدر بمحادث مؤسف، وتوفي بعد والده بقليل في يوم الأحد ١٩ / رجب / ١٣٨٢هـ، وكانت ولادته عام ١٣٤٢هـ فكان عمره الطاهر أربعين عاماً، ولدى وفاته غمر الأسى والأسف النجف، وقد شيع تشييعاً رسمياً حافلاً في القاهرة، وصلى على جثمانه الإمام الأكبر محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر، ودفن في القرافة مقبرة القاهرة الكبرى، وأدرج في الخالدين.

شاعرية العلّامة الجزائري وشعره:

لم تزل النجف الأشرف حاضرة الشعر العربي، كما هي عاصمة العلم الشرعي، ومن الطبيعي أن تجد الشعر والنثر يسيران جنباً إلى جنب مع العلم والفنون الأخرى، ولا غرابة أن تجد نظم الشعر سحية فطرية عند الشباب النجف بعامة، ولدى رجال الدين بخاصة، فقلما تجد بيتاً يخلو من ديوان المتنبي، أو الشريف الرضي، أو البحرني، أو مهيار الديلمي، وسوى ذلك. ومحافل النجف العلمية، وجمعياتها الأدبية، ومجالسها العامة، تعير للشعر أهمية كبرى، باعتباره إحدى لمسات تراث الأمة، ففيه محل الشاهد، وبه عظة المعتر، وفيه الحكمة السائرة، ومجالاته كثيرة في النصف الأول من القرن العشرين، وأهمها مدح أهل البيت (عليهم السلام) ورتاؤهم لاسيما الإمام الحسين (عليه السلام)، ومحافل التأبين، ومناسبات الأعراس والقدوم من الحج، وقضايا الوطن والبلاد العربية.

والمترجم له في شبابه كان شاعراً شأنه بذلك شأن أقرانه من فضلاء الحوزة العلمية، سيما وقد أدرك السيد الحبيبي، والسيد إبراهيم الطباطبائي بحر العلوم، والشيخ محسن الخضري، والشيخ جواد الشبيبي، وأضرابهم من شعراء الطبقة الأولى في النجف الأشرف، وقد تأثر بذلك تلقائياً، ونظم الشعر عفويًا، وله بذلك موشحات راقصة على غرار الموشحات الأندلسية، وقصائد عمودية ضمن أوزان الشعر العربي.

وسوف أضع يدي على نموذج من موشحاته، ونماذج قصيرة من شعره، وجميع ذلك من الشعر المقبول، فهو لم يتمخض للشعر شأن الشبيبي والخواهري مثلاً، وإنما نظمه في أول شبابه بدوافع عقائدية أو أدبية أو أخوانية.

نموذج من موشحاته:

للجزائري عدة موشحات تمثل آفاق الشباب في الحب البريء، وله موشح رقيق نظمه باقتراح من صديقه الشيخ خزعل الكعبي أمير المحمرة، جاء فيه:

زارني يخلتس الليل البهيم	من خوف رقيب
ذو قوام هو إن مرّ النسيم	كالغصن الرطيب
وغدا يفتر عن در نظيم	بالثغر الشنيب
وتغني لي بالصوت الرخيم	مثل العنديل

شادن رقّ علينا بالوصال	من بعد الصدود
وأتى يسعى ولكن بالخيال	من خوف حُـسود
وعلينا عينه ترمي نبال	شـققت للكـبـود
هو قد قيد قلبي بجبال	لكـن من جـعـود

قلبي في يديك
أشكوك إليك
ما في شفقتك
فالأمر إليك

يا ملكاً لابساً تاج الكمال
كلما تخلف وعدي بالمطال
فاسقني من ريقك العذب الحلال
وأحيني من بعد صدّ الوصال

* * *

تحيمي وتميتت
منهن دهيئت
مذ فيك بليت
إذ فيك رميتت

باللما العذب وفي سود الجفون
وآبلائي أنا من هذي العيون
زادني حبك وجداً وشجون
ورمت عيناك لي سهم المنون

* * *

فالقلب رهين
ولسدان وعين
من ماء معين
يحتسز السوتين
كالبدر المنير
كالغصن النضير
كالظي الغرير
قلبي كالأسير

لاتلمني يا عدولي في هواه
رشأ بالحسن يوماً ما حكاه
هل لظام ما حوته شفتاه
جرّدت لي سيف غنج مقلته
لاح للنّاظر في طلعتيه
وغدا يحتال في قامته
ورنا نحوي في مقلته
رشأ قده صار في أسرته

* * *

من در لمناه
إذ تشبه فناه
ظنته إلاه
من فرط سنانه

قد سقاني حمرة تحيي النفوس
وجلاها للندامى كالعروس
لو رأّت نور محياه المحوس
قد كسى الأعمار حسناً والشموس

برزت كالشمس من برج الخدور
وتجلت إذ جلت ليل الشعور
وتجلى لعيون الصب نور
حبذا للصب يوماً لو تزور

* * *

رببات الحجال
من فرط الجمال
من حسن الدلال
من خمر حلال

سلبت في شعرها مني الشعور
قد كساها الله نوراً فوق نور
وعليها فلك الحسن يدور
قد أدارت خمرة تشفي الصدور

نماذج من شعره:

له قصيدة تفيض بالحب والتقدير والإكبار في رثاء المجدد السيد حسن الشيرازي عام ١٣١٢م وهي:

ورزؤك هَوْنُ النَّوْبِ الصَّعَابَا
فيا أخطى الرميّة من أصابَا
كأن البعث قد حان اقترابَا
تحسّى منه كل الناس صابَا
أراب الدين منه ما أرابَا
اتخذت من التراب إليك غابَا
به كل بوالديه مصابَا
بغيبتك الشريعة والكتابَا
تود بأن تشاطرك الذهابَا
لأجريت الدموع حشى مذابَا

مصأبُك طبّق الدنيا مصابَا
أصبت بسهم واثرة المنايا
فما للناس قد صعقت حيارى
أرى كأساً سقيتُ الحتف فيه
فيا لله من جليلٍ مُلَمِّمٍ
تغيّب بدر أوج المجدلما
أرى السهم الذي أرداك أضحي
فيا علم الشريعة قد فقدنا
ويا نفس الإمامة كل نفس
فلو أن الدموع تبل وجداً

ولو رد المنون هديل نُوح
فكم عَضَّتْ أناملها المعالي
بفقدك ارتجحت باب الأمالي
لطوقت الرقاب نداءً وعزاً
لقد عَمَّرتَ إقليم المعالي
أنصفاً إن كفك وهي غيث
تتوب عن الغمام لهم نوالاً
فكيف يطيب بعد نواك عيش
على أعتاب من تقف المطايا
ومن يرجى لحادثة الليالي
فليت نوى بك اليوم استقلت
لقد ضيقت طارقة المنايا
وقد خرّبت أهلة المعالي
ذهبت بصارم يأبي انغماداً
به الكون اطمأن وليس نكراً
وأشرق فيه وجه الدهر بشراً
تعوّد لا يرد سؤال داعٍ
أبحراً دون ساحته وقفنا
إذا وردوا نذاك رأوك ببحراً
نضبت فما لظائمة المعالي
ملأت بذكرك الآفاق حمداً

لصيرت الحنين عليك دابا
عليك وكم قرعن عليك نابا
وكنت لكعبة المعروف بابا
ويوم رحلت أذلت الرقابا
وبعدك عاد مبنها خرابا
على العافين نودعها الترابا
وما ناب الغمام لها منابا
ومن جدوي يديك العيش طابا
رجا أو باسم من نحدو الركابا
إذا ما الدهر بالحدثان نابا
ظللنا في مجاهلها اغترابا
بموقع هولك الخطط الرحابا
كأنك قد نعقت به غرابا
وصيرت التراب له قرابا
إذا ما بعده رام انقلابا
وأظلم بعد رحلته اكتئابا
فأسرع مذ دعا الختف الجوابا
فما عمنا للجتته عبابا
ولو وردوا سواك رأوا سرايا
يسيع لها على الظمأ الشرابا
ونحن اليوم غملؤها انتخابا

وله مؤرخاً صنع باب الإامين العسكريين في سامراء عام ١٣٤٣هـ

لذَّ يباب النجاة باب الهادي
 كم لركب الزوار فيه مناخ
 هو باب الرجا إلى مرتجيه
 لحمى العسكري منه دخول
 بضريح أضحي مزاراً وملجأ
 ضمَّ قبرين، بل وبدرين يهدى
 فهما جُنَيّ ودرعي وحرزي
 وإماماي.. قد طويت على هـ
 وبوادي ولاهما همت شوقاً
 أهل بيت الوحي الألى غرس الله
 فحقيق إذا لجأنا ولدنا
 فهو باب النجاة للخلق أرخ

فهو باب به بلوغ المراد
 قد حدهم من جانب الله حادي
 وأمان اللاجي وري الصادي
 وضريح الإمام نجمل الجواد
 وأماناً لحاضر ولبادي
 بهما الخلق في طريق الرشاد
 وملاذي ولاهما وسنادي
 ذا ضميري... في مبدأي ومعادي
 لستُ ممن يهيم في كلّ واد
 ولاهم وحبّهم في فؤادي
 بفنا العسكري... وباب الهادي
 (وهو باب به بلوغ المراد)

وله مؤرخاً عام صنع باب المراد لرواق الإمام علي (عليه السلام)، وذلك عام

١٣٤٣هـ، وقد كتب على الباب نفسه:

قف باب المراد باب عليّ
 هو باب الله الذي من أتاه
 واخلع النعل عنده باحترام
 قد لجأنا بحبّ من حلّ فيه
 أنا في الحبّ والولا رافضيّ
 يا سفين النجاة لم أرَ إلّا
 يا إمام الهدى ببابك لدنا

تلق للأجر فيه فتحاً مينا
 خائفاً من خطاه.. عاد أميناً
 فهو أضحي سرّ الإله دفيناً
 ويقيناً من العذاب يقيناً
 لم أجد غير حبّه لي دينا
 أملي فيك للنجاة سفينا
 من ذنوب أبكين منّا العيوننا

لك جئنا.. فاشفع لنا وأجرنا يوم لا مال نافع أو بنونا
 فتح الله للورى بعلي باب خير يأتونه أجمعينا
 قل لقصّاد بابيه ادخلوه بسلام لكم به آميننا
 فهو بابّ به الرجا أرخوه (ذاك باب المراد للزائرينا)^(١)

وفاة العلامة الجزائري وتأبينه:

كان الشيخ الجزائري قد عانى أواخر عمره المبارك من أعراض الشيخوخة، فاهارت قواه، وتدهورت صحته، يضاف إلى ذلك أنه كان كثير التحسّر على لقاء ولده الشيخ أحمد، ويحنّ إليه حنيناً عميقاً، ويسأل عنه الراحل والغادي، ويأسف أن لا يحضر موته، ولا يشاهد طلّعه، ولا يحظى بقربه، وتداعت الأسباب والمؤثرات، وقد تجاوز التسعين من عمره الحافل بجلائل الأعمال، ولزم فراش المرض مدة طويلة، حتى لبّى نداء ربّه يوم الأحد ٥/صفر/١٣٨٢هـ — الموافق ٧/تموز/١٩٦٢، فارجت النجف الأشرف بعموم طبقاتها، وأغلقت المدينة أسواقها، وعطّلت العلماء أبحاثها، وخرجت النجف على بكرة أبيها لتشييعه، فشيع تشييعاً ضخماً عظيماً في ظروف عصيبة، ودفن في مقبرة الأسرة في محلة العمارة في الشارع الذي آخره مسجده، مقابل الزقاق المتصل بمسجد الشيخ صاحب الجواهر، وقد شملها الهدم المتعمد، فأصبحت في الشارع العام.

وأقيمت له فواتح كثيرة، أبرزها فواتح المراجع العظام، وفاتحة الأسرة، وفواتح الحوزة العلمية والكسبة والتجار والطبقات الأخرى.

وفي ذكرى الأربعين أقيم له احتفال تأبيني مهيب في ذكرى الأربعين، شاركت في إحيائه وفود الفرات وزعماء العشائر، وشخصيات بغداد، يتقدمهم العلماء الأعلام، والهيئة العلمية، وجماهير الأمة، وذلك في مسجد الجزائري، وقد أبته قادة الفكر، ورجال السياسة، وأعلام الأدب أمثال: علامة العراق

(١) ظ: نماذج أخرى والنماذج نفسها في شعراء الفري ٥/ ٥١٠-٥١٨ للأستاذ علي الخاقاني.

الشيخ محمد رضا الشبيبي، والزعيم الوطني الشيخ محمد مهدي كبة، والأستاذ الدكتور عبد الرزاق محي الدين، ورثاه من الشعراء: الشيخ محمد علي اليعقوبي، والشيخ عبد الغني الخضري، وكاتب هذه السطور، وسوى هؤلاء من الأدباء والكتاب والشعراء، وهي تعدد مآثر الفقيه ومواقفه النضالية الحافلة. وأشادت بذكره الصحافة العراقية، ومجّدت ذكره، وأشادت إلى حياته الجهادية، وأبانت بعض الصفحات المشرقة من نضاله في سبيل الإسلام والأمة والوطن.

وأرّخ عام وفاته صديقنا الأستاذ السيد محمد سن الطالقاتي بقوله:

يا ضيعة الإسلام في فقدٍ مَنْ	كان لأهل العلم نعم الزعيم
صرح من المجد هوى للثرى	ودوحة الفضل غدت كالريم
مضى الذي كان لأهل النهى	وقادة الرأي الملاذ العظيم
خلف أهل الدين أيدي سبا	من بعده.. والحزن فيهم مقيم
بدر سماء العلم والمجد فذ	أرخته (غاب بعبد الكريم)

— ١٣٨٢هـ —

قصيدة المؤلف في رثاء العلامة الجزائري:

كان المؤلف شديد التأثير بالشيخ الجزائري منهجاً وسلوكاً، وكان الشيخ يشمله بحبه وعطفه الأبوي، ويقربه إليه، فكان من الوفاء المحض أن يشارك بهذه القصيدة التي كان لها دويٌّ في محافل الأدب، وعنوانها:

«فقيه العروبة والإسلام»

فجعتَ بخطبك الجليلِ البلادا	وأنكلتَ العقيدة والجهادا
فقدنا أمة.. ولربَّ فردٍ	بفادجِه نقيس الافتقادا
وربَّ فجيعَةٍ فجعت أوفاً	وربَّ رزية رزأت عبادا
سبقتَ إلى الكفاح، فكنت فذاً	صلياً... واكب المحن الشدادا

وسرت لغاية قصوى تحاشى
وأعلنت الجهاد على طغاةٍ
وثرث.. فكنتَ أصدقَ من ينادي
وكنتَ البدرَ متقدماً ضياءً
وكنتَ أجلاً بانٍ يعربي

* * *

فقيدي العرب.. والوطن المفدى
حميت الدين من غدر ومكرٍ
وقدتَ من «الفرات» جنود حقٍّ
أحللوا «ثورة العشرين» ناراً
وخاضوها معارك دامياتٍ
فكم لك من مواقف خالدياتٍ
كانك مذ وقفتَ بهم خطيباً
كمي شق مدرجة العوالي
ورأي العبقري إذا تمادى
ورب فتى أحاط بما تمنى

* * *

أبا النجف الأغرّ دجتَ خطوبُ
أرتنا كيف تعلني من طعامٍ
بها الطغيان يمتشدُّ احتشاداً^(١)
وترفع من جابرة عمادا

(١) المورد بكامله يشير إلى اضطهاد الفقيه طيلة الفترة المظلمة التي مرت على العراق أثناء المد الفوضوي، فقد احتجز في داره قرابة ثلاثة أشهر، وبلغت المضايقة ذروتها عند وفاة شقيقه البطل المجاهد العلامة الشيخ محمد جواد الجزائري الذي حكم عليه بالإعدام من قبل الانكليز، وتخلص من بعد اللتيا والتي... وقد فرق تشييعه، واستهين بمظاهر مراسيمه الجنائزية في ١٩٥٩م.

فطارلت الهجان به الجيادا
تضام..!! وأنت تحرسه اعتدادا
ألفت لحفظ ساكنه السهادا
إليك بأن تزار وأن تعادا
وقد منعوا عليك الارتيادا
عليك.. لما أطقت الاضطهادا
فعد الموت قد ظلموا «الجوادا»
ولم تقفوا لشعبكما سنادا

* * *

به يبدو لنا العجب إزيادا
سحائب أمطرت كمدأ معادا
وهزّ تلاطم الموج الجمادا
مخدرّة.. وأحلاماً بدادا
بسوق العقل مذ أضحي كسادا
وعثنا في عقائدنا فسادا
تلاقفها انعكاساً واطّرادا
فلما استمطرت مطرت جرادا»

* * *

إذا ضلّ الشباب خطيئاً وحادا
تسير إلى الأمام بكم رشادا
وهبوا من رقادكم شدادا
ومزرعةً قد احتشدت قتادا

خلا الميدان من قصبٍ وسبقٍ
أفي النجف المقدس وهو حصنٌ
يعقك ساكنوه.. وأنتَ برٌّ
وضايقتك «الرفاق» فلا طريق
غداة عليك قد ضربوا حصاراً
ولولا فرض تجربة أطلت
لئن ظلموا علاك وأنتَ حيٌّ
كأن لم تعملوا جنباً لجنبٍ

ومن عجب الزمان.. وكل آينٍ
تمادى الحكم واندلعت لهيباً
لقد بلغ الربى سيل الرزيا
ونحن نعيش أعصاباً عجافاً
فقدنا الوعي جوهرة وعقدأ
تركنا ديننا سفهاً وجهلاً
وعدنا كالسفينة في خضمّ
«فكنا كالزروع شكت محولاً

شباب الدين والأمل المرجى
لكم من سفر «أحمد» معجزات
فسيروا للجهاد بلا توائنٍ
ولا تمنوا.. فدرب الحقّ دام

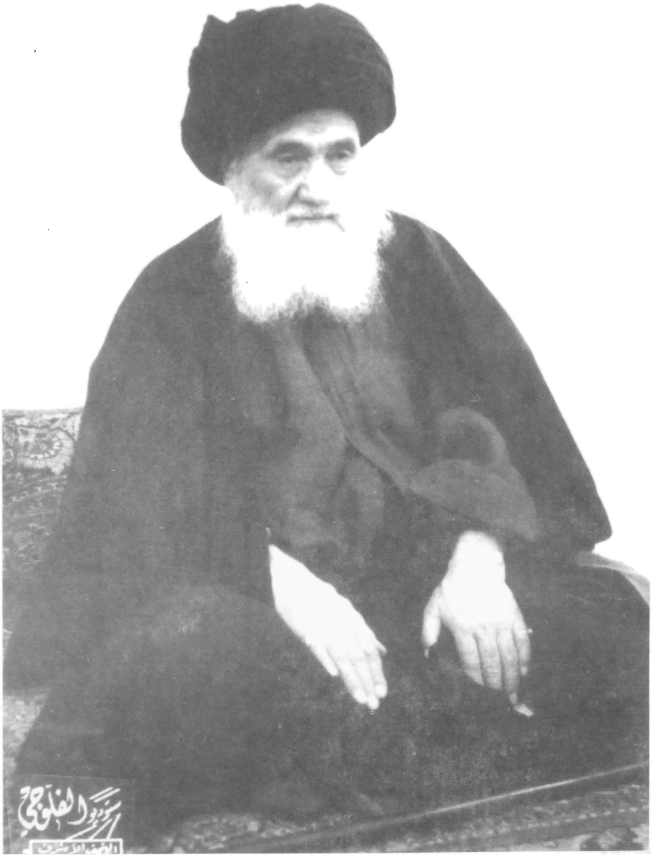
وجدت النصر جمعاً واتحاداً
 يد التزعجات.. فالتمسوا الحياداً
 وتطمع أن ترى قنصاً مصاداً
 تكابر في محاججة عناداً
 ينيران المغاور والوهاداً
 وكان لجرحنا الدامي الضماداً
 ضماناً، واجتماعاً، واقتصاداً

ولا تتفرقوا زمرأ.. فإني
 ومهما صافحت.. شرقاً وغرباً
 مصائد تستجد بكم شباكاً
 وهيهات التلوث في مبادٍ
 ثقافة «أحمد» وهدى «علي»
 كتابُ الله تُقفنا عقولاً
 وأكرم بالشرعية من نظام

محمد حسين علي الصغير

النجف الأشرف

* * *



السيد حسين الموسوي الحماي .. حوزوياً

هو السيد حسين السيد علي السيد هاشم الموسوي الحماي النجفي ينتهي نسبه إلى الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام).

فقيه معظّم، وأصولي بارع، وأستاذ ملهم، أحد أئمة الدين، ومن أبرز مراجع التقليد في النجف الأشرف.

ولد في النجف الأشرف عام ١٢٩٨هـ - ١٨٨١م في أسرة كريمة تعمل بالكسب وتحترف التجارة.

وكان أبوه رجلاً جزلاً متورعاً، واسع الأفق، متنوّر التفكير، فطلب إليه المترجم له أن يتخذ مسلكاً جديداً في حياته لا علاقة له بمسلك أسرته الشريفة، ذلك المسلك هو الاتجاه لطلب العلم، والسعي لمدارج الكمال المعرفي في ظل مبادئ أهل البيت (عليهم السلام)، والخوض في غمار بحرهم الفياض بالعلوم الإلهية والأحكام الشرعية. فأذن له بذلك مغتبطاً، وشجعه عليه مستبشراً.

نشأته العلمية:

اتجه الشاب نحو الدرس الحوزوي في النجف الأشرف، وقد شدّ أزره أبوه مباركاً، فقرأ العربية والمنطق والبلاغة والفقہ الفتوائي، وأتقنها اتقاناً عجبياً ولم يتجاوز العشرين من عمره الشريف، وتفرغ للفقہ والأصول وعلم الحديث في السطوح والسطوح العالية، وسرعان ما بزغ نجمه وبرز اسمه، وتلأأ توهجه، وإذا بالشاب من أبرز فضلاء الحوزة العلمية في النجف الأشرف.

جاء في إحدى ترجماته: «لبس العمة، ودخل في سلك الروحانيين وطلاب العلوم الدينية، وأفردت له غرفة في المدرسة البادكوبية، بإشارة من مؤسسها السيد حسين الترك حيث أن السيد الحمّامي من العرب، والمدرسة منشأة باسم الترك من أهالي أقفقاز، وبادكوبا، وآذربيجان، ومكث فيها مايقارب خمساً وعشرين سنة، وهو يزاول الدرس والتدريس وكان مولعاً بطلب العلم... ومن شدة حرصه على طلب العلم أنه كان يذهب إلى أهله في ليلة الخميس والجمعة فقط، وبقيّة الأسبوع يبقى في المدرسة ليلاً ونهاراً حتى في أوقات أكله ومنامه»^(١). وما إن وجد السيد الحمّامي قدس سره من نفسه القابلية على مواصلة الدرس العالي والبحث الخارج حتى لازم مراجع عصره، وحضر أبحاثهم، وانخرط في سلوكهم، وعمل إلى جانبهم، ولمس منهم أساتيد شعلت من الذكاء، وكتلة من الجد والاجتهاد، فقرب منهم مترلة، واحتل مقامه الأسمى.

قال الحجة المحقق السيد محسن الأمين العاملي متحدثاً عنه:

«وواصل الدرس والتدريس بتقدّم حتى جاءت الحرب العالمية الأولى، فكان من العلماء الذين لبّوا داعي الجهاد، وسار تحت لواء السيد مهدي الحيدري حتى نهاية تلك الأحداث التي استمرت ستة أشهر، فعاد إلى النجف منصرفاً إلى ما كان عليه»^(٢).

وقد وصفه الدكتور محمد هادي الأمين أنه:

«فقيه أصولي، عالم فاضل مجتهد، من كبار العلماء، ومراجع العصر، وأهل الفضل والكمال والتدقيق، ومن سادات العلماء المرزبين الناهين، يمتاز بطهارة الضمير، وطيب السريرة، وصفاء القلب»^(٣).

(١) مجلة الموسم الهولندية/ إصدار محمد سعيد الطريحي/ ٩٨٨/ العدد السابع/ المجلد الثاني/ المؤسسة العالمية لتوزيع الكتاب/ بيروت/ ١٩٩٠م.

(٢) محسن الأمين الحسيني العاملي/ أعيان الشيعة ٦/ ١٢١. تحقيق: السيد حسن الأمين/ دار التعارف للمطبوعات/ بيروت/ ١٩٨٦م.

(٣) محمد هادي الأميني/ معجم رجال الفكر والأدب في النجف خلال ألف عام ٤٥١/١/ الطبعة الثانية/ ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

كان السيد الحماي مثلاً نموذجياً للعالم الحوزوي المتخصص، وبقي على هذه المنهج لم يحد عنه طرفة عين أبداً حتى وفاته، وسبب ذلك عشقه الواقعي لحياة العلم الخالص، فوهب للعلم حياته، فأعطاه ثماره، وألقى عليه بظلاله، فكانت نشأته في هذا الضوء نشأة مباركة، وتوجهه لايشوبه شيء من نوازع الدنيا، أخلص لله في نيته، فأثار دربه بالعلم.

أساتيدته وشيوخه:

كانت توجهات السيد الحماي طاب ثراه متنوعة الجوانب، منفتحة على سيل من العلم لاينضب، فنهل من ذلك المعين الدافئ شتى المعارف الحوزوية الضرورية للطلاب اليقظ المتحفز، مما لايدّ له من الانكباب عليها والتخصص بها، فكان الفقه والأصول أول أهدافه، والحكمة والفلسفة من متمات مسيرته، وقد درس ذلك على أعلام عصره، وأبرزهم:

١- زعيم الأحرار المولى الشيخ محمد كاظم الآخوند الخراساني.

٢- المرجع الأعلى السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي.

٣- آية الله الشيخ فتح الله الأصفهاني المعروف بشيخ الشريعة.

٤- الميرزا محمد الطهراني.

٥- الشيخ علي النوري.

٦- السيد علي أصغر الهزار جريبي.

٧- الفقيه المتبحر الشيخ علي باقر الجواهري.

وهذه الصفوة المختارة من الأساتيد هم مدار البحث العالي في التدريس؛ وقادة الحوزة العلمية في الإفادة والإبداع، ودعائم الفلسفة الإلهية والحكمة في الإنارة المعرفية.

ويبدو أن عمدة حضوره في البحث الخارج كانت تتقلب بين المولى الآخوند، والسيد الطباطبائي اليزدي، وشيخ الشريعة.

يقول السيد محسن الأمين الحسيني العاملي:

«وظلّ ملازماً درس الخراساني اثنتي عشرة سنة، وبعد وفاته لزم درس اليزدي ثماني سنين، ثم لزم درس شيخ الشريعة حتى وفاته، كما حضر مدة درس الشيخ علي الجواهري.

وبعد وفاة شيخ الشيعة استقل بالدرس والتدريس طيلة عشرين سنة»^(١).

ومهما يكن من أمر، فقد كان أساتيدته يقدرونه حق قدره، لاسيما المولى محمد كاظم الآخوند صاحب «كفاية الأصول» إذ بدا عليه أنه كان يغتبط بإفاضة تلميذه، ويعتزّ بسماع جدله ومحاورته ونقاشه، فقد سمعت أنه في إحدى هذه المباحثات استمع إليه مسروراً وهو يناظر أحد زملائه بحضور أستاذه، فأعجب بذلك، ولما خرج السيد الحمامي قام الشيخ الآخوند وودع ووضع شيئاً في جيبه، ولما خرج تفقد هذا الشيء وإذا به ثلاث ليرات عثمانية، وهو مبلغ ضخّم آنذاك، ويعتبر تعبيراً عن الرضا عن تلميذه، وأنه ممن ينبغي أن يشجع ويلتزم.

خصائص السيد الحمامي ومميزاته:

عرف عن السيد الحمامي قدس سره -و كما رأيتُه- إنساناً متواضعاً، ورجلاً مجبولاً على فطرته، فهو ذو نفس ولوية وذات قدسية، يقطر العرفان والسلوك في إشاراته، ويتدافع الإيثار والبرّ في منهجه، لم يعرّ الدنيا أيّ اهتمام، ولم يسعّ إلى الجاه طرفة عين أبداً، ولم يغتبر بالمظاهر البرّاقة، وزهد في الاعتبارات الزائلة شأنه بذلك شأن علمائنا الأبرار قدس الله أسرارهم.

ولو أردت أن أعطيك صورة متكاملة عن ذلك دون مبالغة، لقلت: إنه مترسل في حديثه، ذو سريرة طاهرة، وأخلاق مرضية عالية، وشمائل إنسانية متدفقة، صابر، ذاكر، محتسب، زاهد، منيب، قانع، فقير، محتاج، قد لا يجد إلى قوت يومه سبيلاً.

(١) محسن الأمين/ أعيان الشيعة ١٣١/٦ طبعة دار التعارف/ بيروت.

روى الحجة السيد محمد تقي بحر العلوم قدس سره، أنه في أحد الأيام لم يجد في داره ما يتغدى به، وكان بحاجة إلى الطعام، فقصد السيد الحمّامي في داره عسى أن يجد عنده شيئاً مما يسدّ به الرمق، وطرق الباب، وفتح السيد الباب، وإذا به في ساحة الدار، وبين يديه كتاب «جواهر الكلام» وهناك خسفٌ في الدار ظاهر للعيان، فسأله عن سبب مجيئه في الظهر، فأخبره بالحقيقة، فقال: وأنا لاغذاء لديّ على الاطلاق، وأنا جالس هنا لحراسة أولادي من الوقوع في هذه الحفرة الكبيرة، إذ انخسفت (البالوعة) ولا مال لدي لإصلاحها.

هذا الرجل قريب من نفوس الجماهير، محبوب لدى الخلائق، ذو بسملة ملائكية، وترحيب كريم، وبشر طافح على الوجه، يحترم كل أحد، ويحجّل كل إنسان في منظور واحد يتمثل بحسن الظاهر والورع، والحمل على الصحة، وذلك سيماء الصالحين.

وكان شديد الإيثار، يؤثر على نفسه وهو في خصاصة، فقد جمع له أهالي محلة العمارة في النجف الأشرف عدة مراتٍ مبالغ من المال لشراء دار له، فهو لا يمتلك داراً، ولكنه كان يصرف ذلك المال في شؤون المحتاجين، وتلبية رغبات الفقراء، وسدّ متطلبات رجال الدين، فقد أجرى على الجميع مراتٍ شهرية منظمّة -قدر الإمكان- مما يرده من الحقوق الشرعية على ضآلتها، ولكنه يوصلها إلى أهلها ومستحقيها دون احتجان.

ولم تكن طريق السيد الحمّامي معبّدة بالورود، فقد كانت المعيشة في ضنك مرهق، والحياة الاجتماعية في فقر شامل، وهو في حياته ضمن مجموعته العلمية، وكالآخرين في قوت بسيط، وضائقة مالية، وكان يكفي بالترز القليل لإعالة أهله وعائلته الكبيرة، ولم ينعم بالرفاهية إلاّ لماماً آخر حياته.

يقول صديقنا العلامة الجليل الشيخ محمد جواد مغنية طاب ثراه -وهو يتحدث عن أيام تحصيله العلمي لدى السيد الحماي-: «درستُ ست سنوات متوالية عند السيد الحماي لم أحضر خلالها على أستاذ غيره، ولازمته ملازمة الظلِّ لصاحبه، وكان أستاذي أفقر أستاذ في النجف الأشرف، وكنت أنا أفقر تلميذ فيها، وكنتُ أشعر أنني من أحبِّ تلاميذه إليه، وأقرهم لديه.. كان أستاذي على حاجته وكثرة عياله يبدو منطلقاً دائماً، مرحاً ساخراً، وكثيراً ما أن يتخذ من حاجته موضوعاً للتفكّه والتسلية.

لقد كافح السيد الحماي بقوة وتقى، وصبر على الفقر والألم، مجاهداً في سبيل العلم والدين أكثر من خمسين سنة، وكان نتيجة هذا الصبر الطويل والجهد المتواصل أن ابتمت له الأيام بعد العبوس، ولانت له الدنيا بعد الشدّة، وأطاعته الظروف بعد النشوز، فأصبح عالماً، وأستاذاً، ورئيساً، ومرجعاً للطائفة، وآتاه الله من فضله ما يرضيه ويكفيه، فوقى ديونه، ووسع على عياله، واشترى داراً، وأعان تلاميذه بما تيسر»^(١).

السيد الحماي في لمحات من مسيرته العلمية:

أكبّ السيد الحماي على الدرس والتدريس طيلة ستين عاماً من الزمن، أخذ لنفسه ما شاء، وأعطى لغيره ما استطاع، وهو يث الوعي، وينشر العلم، ويهدي إلى الصراط المستقيم، بإرادة صلبة، وسعي حثيث. لم تشغل السياسة باله، ولم يجعل نصيباً لها من وقته، ورأى أمنيته المنشودة تربية جيلٍ فاضل متكامل، وما عثم أن التزم طبقة من الروحيين تدريساً مضمياً في السطوح في شبابه، والسطوح العالية في أوائل كهولته، حتى نبغ منهم أفراد كثيرون، اعتبروا دعاة مرشدين، وعلماء ناهجين، وزعماء مكانة في المجتمع العراقي، وأدباء مبدعين في محافل النجف الأشرف.

(١) محمد جواد مغنية / تجارب مغنية / ٤٢-٤٤ / بيروت / ١٩٨٠م.

وكان قدس سره يجيى ليله بالمطالعة والتحضير والعبادة والإنابة، ويتابع أبحاثه بالمراجعة والتدقيق إلى ما بعد منتصف الليل، ويسرج نهاره بالإفادة والإضاءة والتدريس القويم، وما رؤي في محفل ديني، أو محضر اجتماعي، إلا وهو يناظر ويحاور ويجادل ويناقش ويقرر، وحلقات درسه الأولى تغصّ بفضلاء العصر، وأعلام النجف، وشباب الحوزة العلمية من عرب ومهاجرين، فإذا انتهى من درس في السطوح والسطوح العالية بدأ الدرس الآخرون وكان هذا ديدنه قبل طلوع الشمس إلى قبيل الزوال. وفي أيام التعطيل يؤم مجالس النجف العامرة -آنذاك- وصوته يدوي بأمهات المسائل؛ والإشكالات العلمية ترد عليه من رجالات العلم، فيجيب جواب الواثق من وجهة نظره، المستدل على رأيه بالحجج والبراهين القاطعة، وكأنه في حلبة سباق يحرز بها قصب السبق، وفي ميدان حجاج يحقق فيها مطالب العلم اللباب، فتنتصت له القلوب قبل الأسماع، وتصغي له العقول قبل الأجسام، فهو ابن بجدتها وفارس حلبتها.

وكم رأيت وهو يغوص في بحر العلوم يستخرج جواهره ولآله، في صوت جهوري وبُحِيّةٍ محبوبة وبيان مشرق، وكأنك في الرعيل الأول من تلامذة الأئمة (عليهم السلام)، وهم ينشرون علمهم، ويؤدون الأمانة إلى أهلها، وهو فوق هذا كله منضبط النفس، قويّ الشكيمة، لا يقترب من المزاج ولا يخلط الحدّ بالهزل، بل حياته كلّها جدّ وكدّ وجهد، لم يبذر أيامه، ولم يفرط بشيء من وقته الثمين، فهو بين تحرير المسائل وتبحير الأحكام، وإرشاد الضالّ وقمع الضلال، وكان في هذه المسيرة النموذج الأرقى للمرجع المتوّر الحدب المشفق على إقامة صرح الإسلام، وإشادة معالم الدين، وإحياء سنن النبي وآله الطاهرين. وقد عدّ -بحقّ- الأستاذ محمد علي جعفر التميمي بأنه:

«زعيم أهل الفضل، يدير شؤون أهل العلم وطلاب الدين المقدس بصدر رحب، وأخلاق قدسية سامية، جذابة للنفس بروحانيتها، فهو أبّ ديني لأهل

العلم، ومربّ أخلاقي للحوزة العلمية، وإلى مقامه السامي تقصد العلماء، وتوجه الطلاب من مختلف الأقطار الإسلامية، فهو كعبة آمال العلماء، والمقصود المنشود لأهل الفضل من المهاجرين لطلب العلم للإفادة من فاضل علمه وغزير فضله، وترتشف من مناهل فيض أخلاقه، وعبير قدسيته»^(١).

فلله درّه أباً ومرتبياً، قد شمر عن ساعديه للنضال العلمي، وكرّس حياته كلها للمناخ الحوزوي، لا يشبه عن ذلك عائق، ولا يقصّر به شوط طويل، فكم من عقبة في طريقه، وكم من مشكلة بإزائه، وهو صلب العود، قد توكل على الله تعالى فكلا العقبات والنكبات، وجعل الآخرة بين عينيه، فتجاوز تلك المصاعب والمتاعب ليوم الخلود الأبدى، فكان مثلاً مصداقياً لآية النفر في القرآن العظيم، حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(٢).

مرجعياته الدينية:

حينما توفي المرجع الأعلى السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني ٩/ذي الحجة/ ١٣٦٥هـ = ١٩٤٦م سعى أهل العلم والفضل والمروءة أن يؤدي السيد الحماّمي طاب ثراه، الصلاة جماعةً بمقامه من الصحن الحيدري الشريف على يمين الداخل إليه من باب الفرج الذي يلي سوق القاضي في النجف. فكان ذلك موضع ترحيب الحوزة العلمية، وأقام السيد الحماّمي الجماعة، واثمّ به أهل العلم وجهاهير الناس، وكان أحد مراجع التقليد، يُعاود بالمسائل الشرعية، وتعرض عليه الاستفتاءات، ويرجع إليه طائفة من المؤمنين في أحكام الحلال والحرام؛ وقد نهض بهذا العبء الثقيل إلى جانب المراجع العظام: السيد محسن

(١) محمد علي جعفر التميمي/ مشهد الإمام/ ١٦٥.

(٢) سورة التوبة/ ١٢٢.

الحكيم والشيخ محمد رضا آل ياسين، والآغا السيد حسين البروجري، والسيد عبد الهادي الشيرازي، والسيد محمود الشاهرودي وبقية أساطين المرجعية العليا قدس الله أسرارهم.

وكان السيد الحماامي في ترسله المعروف، وسلامته الذاتية، ذا بصيرة نافذة وهمة عالية، فاستقبل مهماته الجديدة بصدر رحب، واستجابة مرنة للتكليف الشرعي، لا أكثر ولا أقل.

وتعدد المرجعية من آلاء الله تعالى على الإمامية، ففي كل عصر من عصور التاريخ، ومنذ المرجع الأعلى الأول بالمعنى الدقيق الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان العكبري الكاظمي البغدادي (ت ٤١٣هـ) وإلى عصرنا الحاضر، نجد في الميدان العلمي أكثر من مرجع واحد، ونلمس أكثر من ساعٍ إلى الكمال المرجعي، لثلا يتعطل الشرع وتخبو أشعة أهل البيت (عليهم السلام)، وهذا هو التنافس المشروع والعمل المقبول، قال تعالى: ﴿لِيُثَلَّ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾^(١) فالعلم فوق الجميع، ومن ركب إليه الطريق السوي، وفقه الله إليه، أما المرجع الأعلى، فظهوره واضح للعيان بشهادة أهل الخبرة، وبالشيوع العام لدى أهل العلم، وبذلك يكون تكافؤ الفرص. وليس ذلك من التفرق المزعوم كما يذهب إلى ذلك أعداء الإسلام، بل هو من الرحمة التي جلل الله بها هذه الأمة، فجعل الدعوة كثيرين، والمراجع متعددين، والعلم مشاعراً بين العلماء، فمن نبغ فيه، فهو أهل لاحتلال المرتبة العظمى في شؤون الدين والدنيا، وليس ذلك حكراً على أحد على الإطلاق.

ومهما يكن من أمر، فقد برز السيد الحماامي طاب ثراه، كأحد المراجع البارزين، فأصدر تعليقاته على «وسيلة النجاة» للسيد أبي الحسن الأصفهاني، فأخذها المقلدون بعين الاعتبار، واستقبلها رجال الدين بالنظر العلمي، وكثر

(١) سورة الصافات/٦١.

مقلدوه في القصبات والأقاليم، فأصدر رسالته العملية في العبادات والمعاملات، وأسماها «هداية المسترشدين» ونفدت طبعها الأولى، وأعيد طبعها مراراً لاتساع دائرة مقلديه.

وكان السيد الحَمَامِي قدس سرّه يميل إلى الانزواء وعدم الظهور، لانشغاله التام في الدرس والتدريس الذي استوعب ليله ونهاره، ولدى الاصطدام بالحقيقة الواقعة نهض بالأمر، ونهد بالمسؤولية، فكان مرجعاً مثالياً بطبيعته الفطرية. ما كان يَطْلُبُهَا.. ولكن مِِنْحَةً والله يعطي عبده تفضيلاً ولكنه لم ينسَ مشروعه العلمي، فدأب على البحث الخارج في «جامع الهندي» فقهاً وأصولاً ودرايةً، فكان رجل الفقه المتميز، وبطل العلم الذي يشار إليه بالبنان.

«تخرّج في كلية درسه فطاحل العلماء، وجهابذة أهل الفضل، وهي تنتشر في بقاع الأرض لتقوم بواجبها الديني، وما فرض عليها الشرع الشريف من تبليغ الأحكام»^(١).

وكان بحثه العالي للدرس الخارج قد استمر أكثر من ثلاثين عاماً، فقهاً وأصولاً.

ولا أنسى ذلك اليوم الذي حضر بحته فخامة الدكتور محمد فاضل الجمالي رئيس الوزراء العراقي الأسبق عام ١٩٥٤م، كما حضر بحث الإمام الحكيم والإمام الخوئي، فخرج الدكتور الجمالي منبهراً، وأبدى رأياً جليلاً في هذا النوع من الدراسة، واعتبرها أرقى الدراسات الأكاديمية في العالم، كما ذكر ذلك بمذكراته.

وهي شهادة رجلٍ علمٍ ذي اختصاص بالتربية والتعليم لها قيمتها الموضوعية، وأهميتها الخاصة.

(١) محمد علي جعفر التميمي / مشهد الإمام / ١٦٥.

تلامذة السيد الحمّامي:

نخرّج في حلقة السيد الحمّامي قدس سره في البحث الخارج طائفة كبيرة من العلماء والدعاة وأهل الفضل، «وقد كثر تلامذته لما وجدوه فيه من سعة العلم وحسن البيان، فاثالوا عليه من مختلف البلدان الإسلامية العربية والفارسية والتركية والهندية واللبنانية والسورية... - وكان أول هذا الدرس في مسجد الشيخ الجواهري قدس سره- ثم انتقل إلى جامع الهندي، فجعل درس الأصول ليلاً، ودرس الفقه نهاراً، وهو إذ ذاك يباحث الخارج، ومكث مدة عشر سنوات، حتى شيّد الجامع المعروف بـ«جامع المراد»، فنقل درس الفقه صباحاً إليه، لأن الجامع شيّد باسمه، وتوسعت تلامذته حتى أصبح طلاب درسه يتجاوز الثلاثمائة أو الأربعمائة طالب»^(١).

ولم ندرك الطبقة الأولى منهم تاريخياً، وانقرضت الطبقة الثانية، ولانعرف أسماء المهاجرين من الطلاب والمشتغلين، ولانعرف -أيضاً- أسماء الطلبة الإيرانيين لمناداتهم بالشهرة من دون الاسم، ولست في أسنان أولئك التلامذة، وسأدون أسماء من أدركتهم من تلامذته، ممن ارتسمت أعيانهم في الذاكرة، وما لا يدرك كله لا يترك كله.

- ١- السيد أحمد الصافي النجفي.
- ٢- الشيخ أحمد الشيخ عبد علي زائر دهام.
- ٣- الشيخ أحمد سعد الساعدي.
- ٤- الشيخ باقر شريف القرشي.
- ٥- الشيخ باقر أبو خمسين الهجري.
- ٦- الشيخ جواد الساعدي.
- ٧- الشيخ جواد سميسم

- ٨- السيد جواد الموسوي.
- ٩- الشيخ جعفر محبوبة.
- ١٠- الشيخ جعفر يونس.
- ١١- الشيخ حسين زائر دهام.
- ١٢- الشيخ حسن شومان.
- ١٣- الشيخ حسين شرع الإسلام.
- ١٤- الشيخ حسن الشميساوي.
- ١٥- الشيخ حبيب العادلي.
- ١٦- السيد حيدر الحلو.
- ١٧- الشيخ خضر الحساني.
- ١٨- الشيخ سالم سميسم.
- ١٩- الدكتور عبد الرزاق محي الدين.
- ٢٠- الشيخ عبد الجليل العادلي.
- ٢١- الشيخ عبد المنعم الكاظمي.
- ٢٢- الشيخ عبد المنعم العكّام.
- ٢٣- الأستاذ عبد الكريم الدجيلي.
- ٢٤- الشيخ عباس العادلي.
- ٢٥- الشيخ عبد الحميد الصغير.
- ٢٦- السيد عبد الكريم الحماامي (نجل المترجم له).
- ٢٧- الشيخ عبد الهادي حموزي.
- ٢٨- السيد عبد الرزاق كمونة.
- ٢٩- السيد عبد علي الحلو.

- ٣٠- الشيخ عبود الخاقاني.
- ٣١- الشيخ عبد علي سميسم.
- ٣٢- الشيخ علي الصغير (درس عنده ربع قرن في السطوح والسطوح العالية والبحث الخارج).
- ٣٣- الشيخ علي ثامر.
- ٣٤- الشيخ علي حرز الدين.
- ٣٥- الشيخ علي الشيخ حسين سميسم.
- ٣٦- الشيخ علي الشيخ عبود سميسم.
- ٣٧- الشيخ غني العادلي.
- ٣٨- الشيخ فاضل جيوان.
- ٣٩- الشيخ قاسم محي الدين.
- ٣٩- الشيخ قاسم محي الدين.
- ٤٠- الشيخ كاظم ثامر.
- ٤١- علامة العراق الشيخ محمد رضا الشيبلي.
- ٤٢- شاعر العرب الأكبر الأستاذ محمد مهدي الجواهري.
- ٤٣- السيد محمد علي الموسوي الحمامي (النجل الأكبر للفقيد).
- ٤٤- الشيخ محمد جواد مغنية.
- ٤٥- الشيخ محمد حسن حيدر المظفر.
- ٤٦- الشيخ محسن زائر دهام.
- ٤٧- الشيخ محمد زائر دهام.
- ٤٨- الشيخ محمد تقى زائر دهام.
- ٤٩- الشيخ محمد حسين زائر دهام.

- ٥٠- السيد محسن الموسوي الحمّامي (بجّل المترجم له).
- ٥١- الشيخ محمد حسين سميسم.
- ٥٢- الشيخ محمد حسين حرز الدين.
- ٥٣- الشيخ محمد الشيخ جعفر حيدر.
- ٥٤- السيد محمد السيد عبد الحكيم الصافي البصري.
- ٥٥- الشيخ محمد حسين الشيخ راضي نصار.
- ٥٦- الشيخ موسى الشميساوي.
- ٥٧- السيد نعمة الصافي.
- ٥٨- الشيخ نوري الجزائري.
- ٥٩- الشيخ هادي الشيخ شريف القرشي.
- ٦٠- السيد هادي عرب.
- ٦١- الشيخ هادي سميسم.
- ٦٢- السيد يوسف الحلو.

هذا عدا المهاجرين من اللبنانيين والسعوديين والبحرانيين والإيرانيين والباكستانيين، ممن لأعرف أسماءهم، أو لاتحضرني أسماءهم.

مؤلفات السيد الحمّامي:

تنوعت آثار السيد الحمّامي قدس سرّه في التأليف، فشملت الفقه والأصول والفلسفة، وأبرزها:

- ١- هداية المسترشدين/ رسالته العملية/ طبعت مراراً.
- ٢- حاشية على «وسيلة النجاة» للسيد أبي الحسن الأصفهاني/ طبعت عدة مرات.
- ٣- تعليقة على كتاب «الذخيرة» مطبوع.

- ٤- مناسك الحج/ مطبوع.
- ٥- تقارير علم الأصول لدروس أستاذه المولى الشيخ محمد كاظم الخراساني/ غير مطبوع.
- ٦- حاشية على رسالة الميرزا الشيخ محمد حسين الغروي النائيني «ذخيرة العباد»/ غير مطبوع.
- ٧- تقارير أساتذته في الحكمة والفلسفة/ غير مطبوع.
- ٨- المسائل النجفية/ كتاب استدلالى لإجابة الأسئلة الفقهية والأصولية التي بعث بها إليه بعض علماء النجف الأشرف/ أجاب عليها استدلالياً/ غير مطبوع.
- ٩- حاشية على كتاب أستاذه الآخوند الخراساني «كفاية الأصول» غير مطبوع.
- ١٠- حاشية على مكاسب الأستاذ الأعظم الشيخ الأنصاري/ غير مطبوع.
- ١١- تقارير في الفقه الإمامي/ تلقاها عن أستاذه في البحث الخارج/ السيد محمد كاظم اليزدي وشيخ الشريعة الأصفهاني/ غير مطبوع.
- ١٢- كتاب سؤال وجواب/ يشتمل على طائفة كبيرة من إجاباته عن مختلف المسائل الفقهية/ ورثه على منهج كتب الفقه في العبادات والمعاملات/ غير مطبوع.

وفاة السيد الحمّامي وتأبينه:

اعتلت صحة السيد الحمّامي فجأة، فنقل إلى بغداد فوراً، وأدخل المستشفى للعلاج، واعتنت به الدولة عناية خاصة، فأفردت له جناحاً مستقلاً في مستشفى الشعب، إلا أن أعراض الشيخوخة وكثرة هوموم قد تغلبت عليه، فلبى نداء ربه ليلة الثلاثاء ٢٣/ جمادى الأولى/ ١٣٧٩هـ - ١١/٢٧/ ١٩٥٩م، وأذيع نبأ وفاته في الإذاعة العراقية، ونعته الصحف البغدادية، فحفّ الناس إلى تشييعه، ونقل جثمانه إلى النجف الأشرف، وشيّع

تشييعاً جماهيرياً ضخماً، شارك فيه المراجع العظام والعلماء الأعلام، ورجال الدين، وطبقات الشعب كافة، وأغلقت الأسواق والمتاجر، وعطلت الدروس والبحوث في الحوزة العلمية، وبعد أن صلى عليه ولده الكبير السيد محمد علي الموسوي الحمامي في الصحن الحيدري الشريف، وحُدِّدَ به العهد بزيارة ضريح أمير المؤمنين (عليه السلام)، حُمِلَ على مثنواه الأخير في مقبرة خاصة إلى جنب «مسجد المراد» مقابل مسجد الشيخ الطوسي، وحينما دخل المسجد والمقبرة ضمن الشارع العام، نقل جثمانه إلى مقبرة خاصة قبال مسجد الخضراء، وتوسعت دورة الصحن، فكانت المقبرة ضمن الدورة، فنقل جثمانه إلى مقبرة أخرى في الربع الأول من شارع الإمام زين العابدين (عليه السلام) للداخل إليه من أول البلدة، وكان جثمانه الشريف مع هذه التنقلات التي استغرقت ربع قرن من الزمان، غصاً طرياً لم يغيّره تطاول السنين على ما بلغني.

وأرخ العلامة الجليل السيد موسى بحر العلوم عام وفاته بقوله^(١):

يا للهدى من حادثٍ قد جرى له دمُ القلبِ من المقتلين
دهى الغريين.. وراحتُ لظى أشجانِهِ تلتهمُ الخافقين
فقلتُ في موجزِ تأريخِهِ: (روعت الدنيا بموت الحسين)

وأقيمت الفواتح على روحه الطاهرة من قبل المراجع والعلماء والحوزات العلمية والكسبة والتجار والوجوه والأعيان، وفي المساجد والحسينيات والمحافل في النجف الأشرف وبقية قصبات العراق، وقد قصدت فواتحه الوفود من مختلف البلدان العراقية، وهي تعزي المرجعية وأسرّة الفقيد والحوزة العلمية بمصاها الجلل.

وقد أئنه جملة من الشعراء بقصائد حزينة، كان لها الأثر في النفوس، ومن

أبرزها:

(١) السيد محسن الأمين الحسيني / أعيان الشيعة ١٣٢٦ / طبعة دار التعارف.

«قصيدة الأستاذ أحمد الصافي النجفي في رثاء الحمّامي»^(١)

لم أرثِ قبلك عالماً دينياً إلا لأنك قد خلقت زكياً
ولأنت أستاذي... حيثك عالماً سمحاً.. وخلاً صادقاً ووفياً
لك فضلُ تربيتي لإدراك العُلا إذ كنتُ أسلكُ هجك العلويّاً
مثلتَ سيرةَ «أحمد» في عصرنا حتى لكدتُ أقولُ كنتَ وليّاً
قد كانَ درسُك للعقولِ مغذياً ولكلِّ روحٍ منهلاً روحياً
رغبتَ في الدينِ الجحودَ بسيرةٍ عرضتَ لنا الدينَ الخفيفَ حلّياً
وفرجتَ علماً سامياً بفكاهةٍ فيها سبقتَ شرايك القدسياً
وتحلُّ مشكلته العويصَ بديهةً لك.. لم تدع سرّ العلوم خفياً
عدّ مطمئناً نحو ربِّك راضياً إذ عشتَ عمرَكَ راضياً مرضياً
ولقد وهبتك دمعاً من مدمعٍ ما كان إلا للعلاء سخياً
ورثاه العلامة الشيخ عبد المهدي مطر بقصيدة جاء فيها^(٢):

أي نفسٍ لك قد روضتها لم يخفُ ركبها يوماً عثارا
طبت من لمحّة اللطف.. فلم تنفجر غيضاً.. ولم تقدح شرارا
عفةً لم تتخذ زبرجها مركضاً.. كلا ولا الدنيا مغارا
العفاة استقبلت محنتها دهشة بعدك إذ عادت حيارى
لك نفسٌ في الرضا هادئةً تخمدُ النارَ إذا شبت أوارا

(١) مجلة الموسم الهولندية/ العدد ٧/ ج ٢/ ٩٩٣.

(٢) محسن الحسيني الأمين/ أعيان الشيعة ١٣١/٦-١٣٢/ طبعة دار المعارف.

ولقد كنتَ بعيدَ الأفق عن
فلذاك امتزجت فانصهرت
شربت حبك عبأ... أترى
قد فقدنا أيّ نفسٍ سمحةٍ
وحجالٌ خفّة الطبع بمن
فتنة الناس... وإن ماجت بحارا
في القلوب الطهر ديناك انصهارا
كيفَ فجّرتَ مآقيها غزارا
لا ترى ممن يدانيها نفارا
بمألأ النادي إذا اكتظّ وقارا

* * *

«قصيدة المؤلف في رثاء الإمام الحمّامي»

ورثاه المؤلف بقصيدة كان لها أثرها في الأحداث السياسية آنذاك، وهي تصوّر تأريخ حقبة زمنية من الصراع في العراق، وقد ألقى في احتفال تأييني مهيب للفقيد برعاية الإمام السيد محسن الطباطبائي الحكيم قدس سره، في «مسجد عمران» الملاصق للصحن الحيدري الشريف من جهة باب الشيخ الطوسي. ونشرت في كرّاس خاص/ إصدار مطبعة الغري الحديثة/ ١٩٥٩م.

وإليك القصيدة:

حفواً بنعشك.. والجموعُ تكبّرُ
وكأنّ نعشك.. والزحامُ يحوطه
حفواً به.. وتصاعدت زفرائهم
وكأنه نعشُ «الحسين» بكر بلا
وتساءل المتجمهرون.. أقادداً
لله فقدك.. أيّ خطبٍ فادح!!
في حين أن المسلمين بحاجةٍ
حتى إذا نطق الزمان.. وأفصحت

فكأنه فلّك.. وأنتَ المحورُ
فُلّك.. بتيّارِ القداسة يزحرُ
ناراً تشبّ.. وجذوة تتسعُرُ
وإذا «الحسين» هو الفقيدُ الأكبرُ
قبرَ الردي؟ أم أمةً بك تقبرُ
فيه العقولُ من الأسى تتحيرُ
لموجّه.. بجهاده تتحرّرُ
أقداره عمّا تكنُ وتضمُرُ

وَدَعَتْ مَعْرَكَ الحَيَاةِ.. وَعَالِماً حَسَنَاتُهُ بَعِيْبُهُ تَتَسْتَرُّ

* * *

يا رَاكِبَ التَّسْعِينَ.. صَبْحَكَ مَشْرِقُ
أرسلتَهَنَّ فرائدُ وأخرائدُ
لله أنتَ.. فكم نشرت «رسائلًا»
حَقَّقْتَهُنَّ «مكاسبًا» و«جواهرًا»
وأقمت «مَجْنَكَ خَارِجًا» وإزاءه
جددت ما أبقى لنا «الطوسي» في
هذا هو المجد الذي من دُونِهِ
وإذا جمعتُ القولَ فيكَ.. فإنما

بالتيرات.. وأفقُ ليلِكَ مَقْمَرُ
جيدُ الزمانِ بها يزانُ ويُسْفَرُ
فيها عقولُ الواهيين تحرَّرُ^(١)
فالدَّرَ نَنظُمُ.. واللَّائِي نُشَرُ
في كلِّ مجتهدٍ يهزُّ المنبرُ
آثاره.. وبني «المفيد» الأكرُ
ما شاده «كسرى» وحقَّقَ «قيصرُ»
من دون عزمِكَ مادحاً «الأسكندرُ»

* * *

أبقيَةَ السَّلَفِ الألى تَأْرِجِحُهُم
أفنيَتَ عَمْرِكَ بالصَّلاحِ وبالتقى
وأجلُّ عَمْرٍ في العقيدة ينطوي
وَعرفتُ أن العَمْرَ ما يبنى به
فبنيَتَ من عليكِ مجدًا شامخًا
وسلكتَ دَرَبَ الصَّالحين.. وإنه
وَهَضَّتْ في عب الزعامَةِ قائمًا
ورفعت للإسلام بنداً خافقًا
فلتبق في التَأْرِخِ رمزاً خالداً

فيه الحَيَاةُ نديَّةٌ تتعَطَّرُ
لله تَعْمَلُ جاهداً وتفكَّرُ
ويطلُّ منه على الشريعةِ بجهرُ
مجدًا.. نجومُ الأفقِ عنه تقصُرُ
يفنى الزمانُ... وذكره يتكرَّرُ
دربُ به سلك «النبي» و«حيدرُ»
كي يهتدي بك جاهلٌ متحيرُ
في ظلِّهِ علمُ الشريعةِ يحظرُ
يطوى الزمان.. وسفرُ مجدِكَ ينشرُ

* * *

(١) الرسائل والمكاسب والجواهر من أمهات كتب الدراسة في الحوزة العلمية.

فالوضع يعلنُ بالفناء وينذرُ
أقوى من الموت الزؤام وأقدرُ
فيْنَا.. ويربو مجتناه، ويثمرُ
تحت الستارِ مسيرٍ ومدبرُ
ذهبت سدىً.. وطريقكم مستوعر
والهولُ غداءً بنا ومبكرُ
مُهَجّ تذوبُ.. وأدمع تتفجرُ
أين الحِفاظُ المرّ.. أين المنكرُ
داءً بكل فظاعة سيشرُ
نعتزّ في تأريخها.. بل نفخرُ
أفلامُ ذلّ.. غيهن مصورُ
في محنة.. إمّا تطاير عثيرُ
ولسوف يسأم عيشه من يغمرُ

يا قادة النجف الأغرّ.. تأهبوا
إن لم تصدوا الحادثات بعزيمة
فتيقنوا بالشر!! ينمو غرسُهُ
والنائبات سيستعيد فصولها
هبوا.. فقد طال المدى؛ وجهودكم
وتحشدوا.. فالسيل قد بلغ الزبي
فإلى متى نبقى.. وهذا حالنا:
أين الجهاد الحرُّ؟ يا أربابَهُ
إنّا بلينا بالأناة.. وإنها
طويت عهدٌ قد تسامى ذكرها
واليوم قد عادت وتلك فضيحةٌ
يا للفتنة.. كلّ آن نرتمي
حتى تمادى الغيُّ في طغيانه

* * *

فالليل وليّ.. والصبحُ سيسفرُ
فالشرُّ أحدق.. والبلاءُ مسيطرُ
وطغى بسطوته «الوباءُ الأحمر»
يحدو بمن تمدّن وتحضّر؟؟
والمصلحون المخلصون تنكروا
فحدينهم بالمؤلمات يوطرُ
تنهى وتحكم ما تشاء.. وتأمُرُ
ويشعُ معروف.. ويغرب منكرُ

يا راقدين على الهوان.. تيقظوا
دال الزمان.. وغيّرت أوضاعه
قست الظروف.. فحطمت آمالنا
وتوافدت زمرُ المبادئ فجأة
والدين.. دينُ محمدٍ في عزلةٍ
والمسلمون بحالة يرثى لها
والفوضوية ما تزالُ كأمسها
فمتى لنا تصفو الحياة كما بدت

ويضيء تاريخ الكرامة ناصعاً كي يستقيم العالم المتدهور

طفحت.. وها هي بالأسى تنقطر^(١)
 مشبوبة.. جمراتها تتسعر
 وبكل حي للفظائع منظر
 قد لفها أجل رموه مقدر
 سترأ.. فصمتي من مقالي أشعر
 بالفوضوية سيلها يتحدر
 فإذا السلام هو الوباء الأصفر
 حَمَمَ الحروب صواعق تمطر
 للأجنبي يقودها ويسير
 «شرقية الأهداف» لا تستبصر
 ترى.. يهَلُّ عزمها ويكبر
 وتيرُ داجية الطيريق.. فيزهر

يا أيها الحفلُ المهيبُ.. شكايَةٌ
 هطلت على الوطن الحبيب قذائفُ
 في كلِّ آنٍ للفجائع مشهد
 وبأرض «كركوك» ضحايا أمةٍ
 و«الموصل الحدباء» أسدل دونهما
 ماذا يحدث شاعرٌ عن فتنة
 ومتمتمٍ باسم «السلام» مغفلٍ
 وإنا «السلام» على الشعوب كما اشتهى
 وإذا بـ«أنصار السلام» عصابةٌ
 وإذا الجموع مستخرون لطغمةٍ
 فمتى تهب إلى الجهاد كئائبُ
 تستافُ من نفع العقيدة عزمها

مرحٌ يدوم.. وكأسُ خمرةٍ تعصرُ
 سيفاً.. على نُظُمِ الثقافة يُشهرُ
 هذا الذي فيه الثقافة تكفرُ
 أو أن يشرق موكبٌ متعثرُ
 للمكرمات.. وحكمة.. وتدبرُ

ومثقفين.. وكلُّ ما في وسعهم
 باسم الثقافة والتمدن جردوا
 يا للثقافة.. أيُّ سرٍّ غامضٍ؟
 أمن الثقافة أن يغرب موكبٌ؟
 إن الثقافة يا شباب.. وسيلةٌ

(١) المورد يتحدث عن مجزرتي «كركوك» و«الموصل» إثر عقد مؤتمر «أنصار السلام» في الموصل في آذار/١٩٥٩م.

وتثبّت.. وتحسّن.. وتفكّر
وتضام أنفسكم.. ويغفو المحجر
في رأيه.. أو أن يجول مزمر
تسمو إلى ما لا ينال ويصحّر
بالموبقات نتاجها يتمور
تبكي البلاد.. ويضحك المستعمر

إن الثقافة يا شباب.. تعقل
ليس الثقافة أن يبدّد شملكم
ليس الثقافة.. أن يصول مطبل
وثقافة المتوثبين.. مدارج
وثقافة المترهلين.. تجارة
ولمن تراد ثقافة من أجلها

* * *

وسما بما بذل «الوصي» و«جعفر»
بالخلقي ينضح.. والأصالة يزحر
فيها كيان العالمين يُدهور
قبساً.. ولا غريبة تنور
غلاً بتقواه.. ولا متأخر
وهج يشع.. ورحمة تمطر
وهم بزعمهم أذل وأقصر
كلا.. ولا هو آلة تتسخر
في ظلّه ينحو العديد الأكثر
وهو الطريق المستقيم الأزهر
عبر المحيط.. لها الكيان الأوقر
دور التطور نهج المتطور
متحضر.. ونظامه متحرر

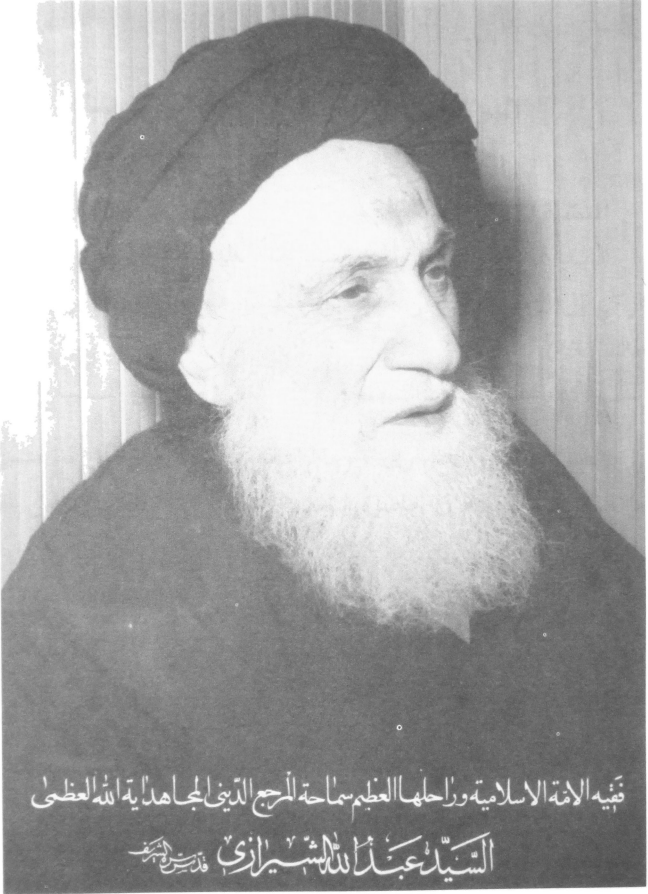
دين بناه لنا النبي محمد
دين يسير مع التجدد توأم
ما فيه من رجعية الفكر التي
هو شعلة الإيمان.. لا شرقية
فوق الميول.. فلا قريب عنده
سن الفضائل.. فهي في قسامته
زعموه «أفيون الشعوب» مخدراً
ما الدين أفيون الشعوب كما ادّعوا
الدين فيض عوالم قدسية
والدين بلسم كل جرح مثنح
والدين من أقصى الخليج رسالة
جمع القدم إلى الحديث.. وقام في
فسيله متنور.. وترأته

* * *

أفقيه هذا العصر.. عفواً إن نبا
يا قائد النجف الأبرّ.. وحارسَ
أحييتَ شرعَ الله في «مستمسك»
ماذا أقول.. وكل معنى يرغمي
لك من كيانك منعةً جبّارةً
وعليك من روح النبي محمّد
وهذاك كالنجم المخلّق في السما
فاشمخ فمجدك في القلوب مصوّراً
شعري.. فمجدك من مقامي أكبر^(١)
الدين الأغرّ.. ومن به نتبصرُ
فيه العقولُ _ كريمةً _ تتحررُ
خجلاً على قدميك حينَ أصوّرُ
وصلايةً في الرأي لا تتغيّرُ
تقوى.. وإيماناً.. وعِلْمٌ مثمرُ
بادِ السنا.. عالِ الذرى.. متعطرُ
وافخر فجهدك في النضال سيشكرُ

* * *

(١) المخاطب سماحة الإمام السيد محسن الحكيم قدس سره، وقد حضر الاحتفال نفسه.



السيد عبد الله الموسوي الشيرازي.. جريئاً

النشأة الأولى:

السيد عبد الله الشيرازي بن السيد محمد طاهر الشيرازي، ويعود بنسبه الزكي إلى الإمام موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام).

نَسَبٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ رَأْدِ الضَّحَى ألقاً.. ومن فلق الصباح عموداً

زعيم محنك، وقائد جريء، وعالم عامل مناضل، وروحاني فذ متميز، من مراجع التقليد العظام في حاضرة النجف الأشرف منذ الخمسينات من القرن العشرين.

ولد في شيراز ليلة الأحد ١٣ / شعبان / ١٣٠٩ هـ الموافق لعام ١٨٩١ من الميلاد.

ونشأ في ظلال والده السيد محمد طاهر الشيرازي، وكان أحد أعلام بلدة المرموقين، وعلى يديه أخذ مبادئ العلم وهو في الثالثة عشرة من عمره الشريف، وأنهى أوليات علم النحو واللغة والمنطق والبلاغة القديمة، ودرس الفقه الفتوايي، وحينما شرع في دراسة الأصول والفقه الاستدلالي فوجئ فوراً باعتقال والده واعتقاله وهو في التاسعة عشرة من العمر، ونفي إلى مدينة (سيوند) هو وابوه، لاحتجاجهما على زيارة المنسوب البريطاني السير وليم كوكس إلى شيراز، وتحريم أيه استقباله، ولبت

الجماهير المسلمة ذلك الحكم الشرعي، وعاد المندوب البريطاني من حيث أتى بخفي حنين، وكان ذلك في بدايات العقد الثاني للقرن العشرين. وكان لهذه الحادثة أثرها المستقبلي في مسيرة حياة السيد الشيرازي قدس سره وهو لم يبلغ العشرين من العمر، وقد حدد مسؤوليته التاريخية في الإصلاح بقوله: «الدين هو الإصلاح، والمصلح لا يخشى النفس، ولا يهاب السجن والإعدام أبداً»^(١).

الهجرة إلى النجف الأشرف:

والنجف الأشرف مهوى أفئدة طلبة العلوم الشرعية، فهي عاصمة العالم الإسلامي في الدرس الحوزوي الحرّ، فلا حدود له، ولا قيود رسمية عليه، لأنه في منأى عن التوجيه المباشر وغير المباشر للدولة، وذلك لاستقلاله التام في البحث العلمي والعطاء المعرفي العظيم، من دون الالتزام بزمن معين أو وقت محدد عملاً بقول الرسول الأعظم (عليه السلام): «اطلب العلم من المهد إلى اللحد».

غادر السيد الشيرازي في جمادى الأولى عام ١٣٣٣هـ - ١٩١٤م، وهذا التاريخ له أهمية كبرى في تأريخ النجف الأشرف السياسي والديني إذ انطلقت فيه جحافل المجاهدين لمجاهة الانكليز لدى احتلالهم البصرة ثغر العراق الباسم، واتجه الركب الجهادي إلى الشعبية بقيادة علماء النجف الأشرف، وألقى السيد محمد سعيد الحبوبى بطل العلم والشعر والجهاد قلمه، وانتضى للحرب سيفه، وسار على بركة الله تعالى بما هو مفصّل في هذا الكتاب.

هبط السيد الشيرازي في النجف الأشرف طالباً في الحوزة العلمية، ونزل مدرسة زعيم الأحرار الشيخ محمد كاظم الخراساني (ت ١٣٢٩هـ) وكانت الكبرى من مدارسه العلمية التي شيّدها لطلاب العلوم الشرعية، وتقع في محلة الحويش من النجف الأشرف.

(١) أضواء على جوانب من حياة الإمام الشيرازي/١٣.

وكان السيد عبد الله الشيرازي قد أكمل في الحقة بعد اعتقاله وقبل هجرته: دروس السطوح في الفقه والأصول، ولدى وصوله المبارك إلى النجف الأشرف التحق بحلقات البحث العالي الخارج.

أساتذته وشيوخه في النجف الأشرف:

كان أساتذة البحث الخارج في النجف الأشرف عصارة الفكر الإمامي في التطور والتجديد في الفقه والأصول، وهما سبيل الاجتهاد في هذا الدرس العالي، وعند التحاق السيد الشيرازي بهذا المستوى الرفيع في الرابعة والعشرين من العمر، كان قد طوى صفحة من الدراسة المتخصصة سطوحاً في بلده الأصلي، وهنا تفتحت عيناه على مناخ جديد سرعان ما انجذب إليه وتفاعل معه، فالحلقات الدراسية بهذا المستوى كثيرة، وكانت النجف حافلة بعشرات الأساتذ الموضوعيين، وكان في طليعتهم نوابغ النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، وكان أبرزهم أستاذ الفقهاء والمجتهدين الميرزا الشيخ محمد الحسين النائيني الغروي (ت ١٣٥٥هـ) والشيخ آغا ضياء الدين العراقي (ت ١٣٦٠هـ) والمحقق الكبير الشيخ محمد حسين التنكابني الأصفهاني (ت ١٣٦١هـ) والسيد أبو الحسن الموسوي الأصبهاني (ت ١٣٦٥هـ) والشيخ محمد رضا آل ياسين (ت ١٣٧٠هـ) وأقرانهم ممن عرفوا بالعمق المعرفي، والإضافة النوعية في علم الأصول، والإضاءة المتوهجة في علم الفقه.

درس السيد الشيرازي عند الأربعة المتقدمين من هؤلاء الأساطين فقهاً وأصولاً وتربية أخلاقية علياً، وأفاد منهم مطالبه الأصولية ومبانيه الفقهية فيما بعد، إلا أن التصاقه بالآغا ضياء العراقي كان متميزاً حتى حسب عليه.

وكانت حصيلة ذلك أن عدّ من أبرز الطلاب علمياً وعملاً، ومن المشتغلين والمحصلين حتى أجزى بالاجتهاد بعد اثنتي عشرة سنة من التحصيل العالي الدقيق.

وكان من أماني السيد الشيرازي أن يعود إلى بلده عملاً بقوله تعالى: ﴿قُلُوا لَا تَفَرَّ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ وبذلك أنهى الدور الأول من حياته في النجف الأشرف طالباً ومدرساً للسطوح في عام ١٣٤٥هـ - ١٩٢٦م ليعود إليها بعد حين في رحلة كتب له فيها أن يكون أحد مراجعها في الفتيا والتقليد.

العودة إلى بلاده:

عاد السيد إلى شيراز في التأريخ المتقدم، ولم يطل به المقام فيها، بل التحق بالحوزة العلمية في «قم المشرفة» وكان مجدد حوزتها وقائد جيلها المتحفز الآية الكبرى الشيخ عبد الكريم الحائري قدس سره، فحضر بحثه ونهل من علمه، إلا أن الظرف السياسي بدا عصيباً جداً، إذ كان مشحوناً بالإفرازات المضنية، فقد انتقل الحكم في إيران من القاجارين إلى رضا شاه بهلوي عميل المخابرات العالمية، ودكتور إيران الكريه، فاستقر نظر السيد الشيرازي أن يتجه صوب حاضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) في مشهد المقدسة، ملتحقاً بالأغا السيد حسين الطباطبائي القمي قبل هجرته إلى كربلاء المقدسة ووفاته فيها عام ١٣٦٦هـ، والسيد يونس الأردبيلي، وهما من العلماء الأعلام البارزين، فشكّلوا مجتمعين قيادة صامدة بوجه التيار بهلوي الجارف. ولا تسل عن الأحداث الدامية التي شهدتها السيد الشيرازي في خراسان، والتي ذهب ضحيتها آلاف المعتصمين من الأحرار وعلماء الدين في حرم الإمام الرضا (عليه السلام)، وعند جامع «كوهرشاد» المائل حتى اليوم، فقد امتدت لغة المحاماة مع رضا شاه من العلماء والناهين والمتحفزين، والثائرين بوجه الطغاة، وقد خالفوا الشريعة الإسلامية، وأطاحوا بالدستور الذي بذلت في سبيله أرواح الشهداء، ولدى اجتماع موسّع كبير في الجامع المذكور، أمر الشاه بمحصد الجميع حصداً بالبندق والرشاشات في أكبر مجزرة بشرية عرفها تأريخ خراسان الحديث، وسلم السيد الشيرازي من القتل، ولكنه اقتيد إلى معسكرات الاعتقال حيث الزنزانات المعدة لأحرار الأمة.

الرجوع ثانية إلى النجف الأشرف:

ولدى تحرر السيد الشيرازي من سجون رضا شاه قرر العودة إلى النجف الأشرف، فلا مكان بإيران لمعارضى الشاه، فرحل عنها ميمماً وجهه شطر النجف الأشرف عام ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م ليتابع هذه المرّة تدريسه في مريض أمير المؤمنين (عليه السلام)، وليقضى شطراً كبيراً من حياته العلمية في رحابها تجاوز أربعين عاماً، فكان أحد أساتذها البارزين، وعلمائها المعدودين، ولدى وفاة أستاذه السيد أبي الحسن الموسوي الأصفهاني في ١٠ / ذي الحجة / ١٣٦٥هـ كان أحد المائتين في بحثه الخارج، وأحد المعروفين بالتاريخ الناصع، وقد شهد بعدها مرجعية الشيخ محمد رضا آل ياسين الكاظمي، والسيد محسن الطباطبائي الحكيم، والسيد عبد الهادي الشيرازي، والسيد حسين الموسوي الحمّامي، والسيد محمود الشاهرودي وسيدنا الأستاذ الإمام الخوئي. قدس الله أسرارهم جميعاً.

وكان المترجم في عداد القادة المؤهلين للمرجعية، فكان له الأتباع والمقلدون في جزء من العراق وإيران وسواهما. وأقام الصلاة جماعة في الصحن الحيدري الشريف فيما بين باب الفرج وباب القبلة، وبإزاء الميزان الذهبي لحرم أمير المؤمنين، وذلك بعد وفاة أستاذه السيد أبي الحسن، وكان الصحن الحيدري مزدهراً بإمام أعلام النجف الأشرف، فإمام جماعة السيد الشيرازي جماعة السيد حسين الحمّامي (ت ١٣٧٩هـ) فإذا اقتربت من باب القبلة واجهتك جماعة السيد محسن الطباطبائي الحكيم (ت ١٣٩٠هـ) وهي أكبر جماعة شهدناها في النجف الأشرف كمأ وكيفاً ونوعية، وإلى جنبها جماعة الشيخ حسين مشكور الحولاوي (ت ١٣٩٤هـ) ومن خلفها جماعة الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (ت ١٣٧٣هـ) وإذ اجتزتها متقدماً نحو شمال الصحن طالعتك جماعة السيد محمد الحسيني البغدادي (ت ١٣٩٥هـ)، وبالقرب منها يبدو مدخل جامع الخضراء حيث جماعة السيد أبي القاسم الموسوي الخوئي

(ت ١٤١٣هـ) فإذا اتجهت نحو باب الشيخ الطوسي للصحن الحيدري كانت جماعة السيد ميرزا آقا الأصطهباناتي الشيرازي (ت ١٣٨٨هـ) بين مقبرة السيد محمد كاظم اليزدي وإيران العلماء، فإذا مررت بساباط الصحن الغربي حيث مسجد الرأس أبصرت جماعة السيد محمد جمال الهاشمي (ت ١٣٩٧هـ) فإذا دخلت إلى طارمة الروضة الحيدرية باتجاه الإيوان الذهبي أبصرت جماعة أستاذنا السيد محمد جواد الطباطبائي التبريزي (ت ١٣٨٧هـ) فإذا دخلت رواق الحرم الشريف شاهدت جماعة الشيخ محمد رضا آل ياسين (ت ٢٨/رجب/١٣٧٠هـ) ومن بعده جماعة الشيخ مرتضى آل ياسين قدس سره.

ولك بعد هذا أن تتنفس الروحاء لا الصعداء في هذا المناخ القداسي الرائع: جماعات متعددة، ووثوق متكامل في الجميع، وأعلام يؤمنون الناس، وأصوات تلاوة القرآن تتعالى حيث تحتلط بتسبيح المخبتين ودعاء الأبرار، والناس بين مكبر ومؤذن ومقيم ومأموم.

لدى وفاة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ١٣٧٣هـ انتقل السيد الشيرازي في جماعته إلى مكانه حتى مغادرته النجف الأشرف محتجاً على تصرفات النظام العراقي المقبور يوم السبت ٢٥/ ذي القعدة الحرام/ ١٣٩٥هـ كما سنرى.

وبعد مغادرة السيد الشيرازي النجف الأشرف تقلص ظل إمامة الجماعة في الصحن الحيدري الشريف، ومن ثم ألغيت مراسيمها في ظل الحكم الإرهابي المقيت للطاغية صدام حسين، واختفت آثار هذه المعالم القدسية، بعد أن أجهز على الحوزة العلمية وشعائر الله ليعود كل عراقي «أعرايياً بعد الهجرة» إلا أن الشعب العراقي ظل صامداً تجاه حركات التدمير كافة، فتعاهد المشاهد المقدسة، وزيارة الإمام الحسين (عليه السلام)، والتبرك بالسلام على المراجع العظام، واكتظاظ كل الطبقات في التفاف عجيب واصطفاف منظم في جميع العتبات

المشرفة حتى أنك قد لا تجد مكاناً لصلاتك في جميع الأوقات، مع شدة الرقابة وصرامة الإجراءات، وتعسف السلطة، وملاحقة أجهزة الأمن للشباب والمؤمنين من الزائرين، وكان ذلك تحدياً للنظام أذهله وأفقده رشده وصوابه، فماذا يفعل؟

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾
وستبقى العتبات المقدسة، والمرجعية الدينية العليا والحوزة العلمية المباركة، مناراً يهتدي به السائرون.

خصائص السيد الشيرازي المتميزة:

أرأيت البحر في تدفق أمواجه، والفجر في تباشير أضوائه، والحقل في نفحات أزهاره، والنسيم العليل في أشدائه، والأسد الغضوب في شجاعته وإقدامه، والطائر الوديع في هدوء تنقلاته؟؟ فذلك هو السيد عبد الله الشيرازي: بجرأ في علمه، وألقاً في خلقه، وروضاً ندياً في سماحته وشمائله، وكياناً هادئاً في طبيعة ذاته، وليثاً خادراً في جراته.

هذا الرجل الوقور في سمته، الوديع في طبيعه، الرقيق في حديثه، المتزن في حركاته، هو نفسه الثائر إذ غضب، والجمر المتوقد إذا تهب، والجريء الذي لا يهاب سلطة، والسيف الذي يخضع رقاب الظالمين، عاش مجاهداً كريماً، ومات عزيزاً مرابطاً، لاتأخذه في الله لومة لائم، ولا تحجبه عن كلمة الحق صولة سلطان، ديوب في صمت ووقار، يتعد عن الصخب والضجيج، يدرع بالحزم والفتوة، تتجلى مظاهر الصلاح والإصلاح في سيمائه، وتبدو أمارات الإصرار من خلال عينين نافذتين بصرأ وبصيرة، حديد النظر، بعيد مهوى الفكر، كثير التأمل، طويل الخشوع والإنابة، وهو بعد بسيط جداً في تعامله، رقيق رقيق في حسن تأتبه للأمر، زاهد في حطام الدهر، حامل لهوم المسلمين، ينطق صدقاً ويقول حقاً، إن فاته عَرَضٌ لم يحزن، وإن أدرك ما أراد

لم يبطر، فإذا فاه بطوية نفسه، وكشف عن مخزون سرّه، فلا هدف في البين إلاّ العظة والاعتبار، بعيد عن الأثرة. قريب من المرحمة، يعظّم أهل العلم، ويحجّل الوافدين عليه، ويفتح قلبه لاستقبال شباب اليوم وأشياخ الغد، ويحتفي برجال العقيدة والثبات فهم قادة المستقبل، شغفت بسيرته المثلى في النجف الأشرف أربعين عاماً، وكنت أجدّ راحة نفسية بتقبيل يده فما سمح بذلك إلاّ مرة واحدة غالبته فيها فانتصرت، يتصدر مجلس مدرسته العلمية في النجف، فإذا دخلت عليه عائداً أو مسلماً أو معظماً لشعائر الله نهض كالصقر، وانتصب كالتمثال الشامخ، واستقبلي باسماً كالبدنر ليلة تمامه، وأجلسني إلى جنبه مسروراً، وأنا خجل مما يصنع تكريماً فهو قد تيف على السبعين وأنا في عنفوان الشباب، أروع ما يفاجئك منه صوت جهوري وحديث هامس، وأنبل ما تشاهده فيه قداسته في ذاته، وطيبته في معاشرته، ومبالغته في رفيع آدابه، وبعد غوره في ترقّب الأحداث، وشدة اهتمامه بشؤون الإسلام، وكان صادق الحدس ذكي الفراسة دقيق الملاحظ بتعليل تقلبات الوضع السياسي، لاتكاد تحطّى نظرته الفاحصة، ولا يتهاوى إدراكه الثاقب بمنأى عن وقائع الإفرازات، فهو نسيج وحده في اليقظة والترصد والحذر، وهو فريد دهره في الفكر الناقد الأصيل.

ولك أن تتأمل كثيراً في حياته الخاصة، وتقف عند ممارساته الشخصية مما يجلب الانتباه، فهو لم يستخدم سيارة في تنقلاته في النجف الأشرف بين الحرم المطهر ومدرسته العلمية وهي بعيدة عنه بعض الشيء، وهو يقطع الطريق فيما بينها وبين الصحن الحيدري الشريف لأداء الفرائض جماعة، سيراً على الأقدام، وسعيّاً حيثياً يصدر فيه عن تنظيم للوقت ومراعاة لمشاعر الناس، وهي تقطع عليه سيره بالسلام والتبرك بتقبيل يديه، فإذا أدى صلاة الظهر وانتهى منها، لا يأبى أن يحمل بيده قوت عياله غداً، وما هو - في العادة - إلاّ قبضة من لبن طازج، أو حزمة من خضار حريف، يصاحبهما عدد يسر من أرغفة الخبز،

وهذا عنده لاينافي وقاره المتناهي بالالتزام به، بل هو مندوب إليه في حد ذاته، فصاحب العيال أولى بحمل قوت العيال.

وإذا نظرت إلى هيئته في ملبسه، لم تجد إلا المنظر الاعتيادي فيما يلبس، فهو متواضع ارتفع به عن مستوى الذل، وتباعد فيه عن مظاهر الأبهة.

وبذلك نكون قد أوضحنا كشفاً ميدانياً مشاهداً فيما كان يعيش عليه وفيه من بساطة واسترسال وزهد وتكشف طيلة سنين كثيرة وطويلة، حفيف المؤونة بسيط القوت معتدل اللباس، قانعاً بما قسم الله له في عيش كفاف شأنه بذلك شأن أهل العلم العارفين وطبقات الشعب المتدنية في رزقها، فما خلق ليمتلى من أطيب الطعام، ولا ليظهرن بفاخر الثياب، وليس بحشوبة العيش ومرارة الحياة وخشونة الملبس أن تعوقه عن الهدف المركزي في طلب العلم، ومواصلة تأمين هداية الناس، وحقيقة تقويم السلوك وتهذيب الذات في ضوء تعليمات أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، وهكذا كان.

الجهاد الديني والنضال السياسي:

استطاع السيد الشيرازي أن يوفق بين الجهاد الديني في مسيرته القيادية، وبين النضال السياسي في جرأته الخارقة، ونظرة موضوعية فاحصة في هذا السياق العريض تطل بك على حقيقة تاريخية رائعة الأبعاد في السيرة الصامدة الرائدة، تلك هي الصلابة في المبدأ من وجه، والثبات في الموقف من وجه آخر، وتحطيم حاجز التردد من وجه سواهما!! هذا الثلاثي المائل في مسيرة السيد الشيرازي تقف عليه به جريئاً دون مبالاة بالمعوقات والأخطار والمضاعفات الميدانية، وتتطلع إليه فيها شجاعاً غيوراً ذا حمية فائقة على الدين وشؤون المسلمين، وتلمس فيه مجاهداً لا يمل من الكرّ والانقضاض على دعاة الكفر والتبعية وتفريق صفوف الأمة، يقدم إقدام من لا يهاب الموت، ويصطف اصطفاً الجندي المقاتل في ساحات الحرب، ينكر المنكر في قلبه ولسانه،

وينازل الطغاة في معاقلها وعقر دارها، ويقول كلمة الحق بصراحة محبة لدى شباب الأمة، ومقبولة عند رجالها وشيوخها، ذلك ما اتسم به السيد عبد الله الشيرازي رمزاً شاخصاً لا يفارق تقيمه في شخصيته النادرة الفذة لدى أعدائه وأوليائه على حدّ سواء.

وصاحب هذه المقدرة في الإنذار والاحتجاج والمناظرة لا يمتلك لنفسه صدأً عن المنهج، ولا لإرادته رداً عن التخطيط المستقبلي المشرق، وذلك مما شجع العاجزين على النيل منه، واتهامه بالمجازفة والاقترحام، وليس الأمر كذلك، بل هو نذب إليه الشارع المقدس: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

ولم يتمكن السيد الشيرازي من قسر نفسه على أضعف الإيمان، بل استطال إلى البعد الجماهيري حتى قاد المظاهرات الاحتجاجية على الطغاة، بل دعا في ذلك إلى الإطاحة بعروش الظالمين، وانتصر في هذه الدعوة، واستثمر هذه الشجاعة لإعلاء كلمة الحق.

وليس بإمكان البحث إحصاء مواقف السيد الشيرازي الحاسمة، ولا تسليط الأضواء الكاشفة لأغوارها، ولكن الناقد البصير والمؤرخ الثبت قد يمتلك عدة شواهد حيّة، ويستنتق وثائق ذاكرته العلمية ليقدّم نماذج على سبيل المثال من ذلك، فيقف القارئ على ما غير من التاريخ المدوّن وغير المدوّن وهو إلى النسيان أقرب، ومن الضياع على شف، «فالحافظون قليل» وهنا أشير إلى جزء من هذه المآثر الخالدة في جرأتها وقوتها وأصالة أهدافها:

١ - شجب المترجم له في الخمسينات من القرن العشرين التغلغل الصهيوني في إيران تبعاً لسياسة الشاه الضالعة في ركاب الاستعمار العالمي، وجابه المسؤولين في إيران بالنقد والتجريح والاحتجاج، واستنكر التعاون بين حكومة الشاه وإسرائيل في المجال الاقتصادي والمناخ السياسي، وربما التسليح

العسكري، ودعا الشعب المسلم إلى دعم القضية الفلسطينية ونصرة الشعب الفلسطيني، وحرمة التقارب بين إسرائيل وعملاء العرب ملوكاً وحاكمين وجواسيس وماسونيين.

٢- لدى الاعتداء الثلاثي على مصر من قبل فرنسا وبريطانيا وإسرائيل عام ١٩٥٦م التهمت النجف الأشرف شعلة نار من الحماس الوطني، واخترقت الشوارع مظاهرات الجماهير المؤمنة احتجاجاً واستنكاراً، وشارك الشعراء بقصائدهم الثورية في إذكاء روح النضال وتأييد الرئيس جمال عبد الناصر رحمه الله بتأميم قناة السويس، وعطلت الأسواق في النجف خاصة، وبجنوب العراق عامة، فقد استنكر المراجع العظام هذا الاعتداء الوحشي وتبعهم مقلدوهم في القصبات والأقاليم، وقام لفيف من شباب أهل العلم بمفاتيح المرجعيات الدينية بغية الإضراب العام عن الدرس العالي وصلاة الجماعة ومعه كاتب هذه السطور بمفاتيح السيد الشيرازي قدس سره - وهو على سجادة الصلاة متهيئ لأدائها جماعة عند الأذان- حول ضرورة الإضراب عن الصلاة والبحث العالي الخارج، فمصر دولة عربية مسلمة يتعرض الآن إلى مهاجمة الطائرات وقصف المدافع وقذف الطوربيدات، وحينما استمع السيد إلى وجهة النظر قرر الإضراب فوراً، وغادر محراب الصلاة استجابة للتكليف الشرعي والوطني، واحتجاجاً على العدوان السافر، فكان من أوائل المنفذين للإضراب عملياً مع السيد الحكيم والحمامي، وآل مشكور والاصطهباناتي والخوئي والبغدادي والشاهرودي أثره البالغ في الوسط الشعبي والرسمي مما جعل حكومة نوري السعيد في أزمة وخرج شديدين حتى رضحت للأمر الواقع، وكانت قد أعلنت الأحكام العرفية وحالة الطوارئ في العراق، وصدرت الأوامر للجيش بإطلاق النار على المتظاهرين، مما سبب باستشهاد جملة الشباب النجفي، فأرسلت وفداً للاعتذار وإعطاء دية القتلى لذويهم، بما أوضحناه سابقاً في عمل مستقل^(١).

(١) ظ: المؤلف/ أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف/ ١٠٥-١٠٦.

٣- بعد قيام ثورة الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨م من قِبَل الضباط الأحرار بقيادة الزعيم الركن عبد الكريم قاسم، ومساعدة كل من: العقيد الركن عبد السلام عارف والعقيد عبد اللطيف الدراجي، وبمباركة من الرئيس جمال عبد الناصر، تنفس الشعب الصعداء، وقد منحت الحرية أوائل الثورة لفصائل الشعب العراقي وللأحزاب السياسية، وقد استغل الحزب الشيوعي العراقي مع الأسف هذه الحرية من وجه، واختلاف قاسم وعارف من وجه آخر، فأثار الفوضى وشجع التطاول على المقدسات، واستغفل جماهير الجياع والمحرومين والطبقات المتدنية في العيش والسكن، بشعارات براءة ووعود خلافة، فامتلك الشارع العراقي في أغلبية تكاد تكون ساحقة، وارتكبوا خطأً العمر في ارتكاب مجازر الموصل وكركوك والسيب والنجف الأشرف و كربلاء المقدسة، ولقنوا المسيرات بأهازيج شعبية تتنافى مع ثوابت الإسلام، وأظهروا العداة السافر للمرجعيات الدينية، وأعادوا إلى الأذهان مقولة لينين «الدين أفيون الشعوب» وفلسفة الشيوعية الإلحادية بقرارها: «لا إله والحياة مادة» فضح الشعب بأجمعه، واستفطع القادة المستقلون والزعماء الروحانيون هذا الاستهتار بالقيم والمبادئ، وتستر الشيوعيون على جرائمهم وتبعائهم بإظهار الولاء والتأييد للزعيم عبد الكريم قاسم، وأظهر العلماء عداةهم السافر للشيوعية، وأعلن القوميون معارضتهم للمبادئ الوافدة، واستمد المعارضون شرعيتهم ضد الشيوعية من فتوى سماحة الإمام الحكيم بقوله:

«لا يجوز الانتماء للحزب الشيوعي، فإن ذلك كفر وإلحاد، أو ترويج للكفر والإلحاد، أعاذكم الله وجميع المسلمين من ذلك، وزادكم إيماناً وتسليماً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»^(١).

وقد صدرت هذه الفتوى بتاريخ ٢٢/ شعبان/ ١٣٧٩هـ أي بعد الثورة بسنة وثمانية شهور، وزاد الطين بلةً إعدام كوكبة من الضباط الأحرار في حركة الموصل، وتدخل السيد الحكيم لدى الفريق محمد نجيب الربيعي

(١) ظ: المؤلف/ أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف/ ١٢٨.

لإنقاذهم، إلا أن الزعيم عبد الكريم قاسم بضغط من الضباط الشيوعيين وقادة الحزب الشيوعي نفذ فيهم حكم الإعدام في ٢٠/ أيلول/ ١٩٥٩م.

والتهب المناخ السياسي جمرأ متوقداً في العراق، واعتدي على الشعائر المقدسة اعتداءً سافراً، وخرج الحزب الشيوعي عن الاستراتيجية المعتدلة إلى الهجوم الهدام على معارضيه وكل القيم والأعراف الإنسانية، وتلاقفت هذه الظاهرة طائفة من الشباب بالعراق، واتسع الخرق على الراقق، فاتبع المراجع فتوى الإمام الحكيم بفتاوى أخرى تماشى مع الخط نفسه بإلقاء ظلال الإلحاد على المبدأ، وكان في طبيعتهم الشيخ عبد الكريم الجزائري، والسيد عبد الهادي الشيرازي والسيد الخوئي، والسيد عبد الله الشيرازي الذي أفتى «إن الشيوعية كفر وإلحاد وعين اللادينية» ومن ثم تأسست «جماعة العلماء» في النجف الأشرف من حَمَلَةِ الفكر الديني وقادة الوعي الاجتماعي برئاسة الداعية الإسلامي الكبير الشيخ مرتضى آل ياسين الكاظمي النجفي قدس سره لاشريف وقد ضمت فريقاً من العلماء العاملين والمجتهدين البارزين، وهم أبرز المعروفين بالأفكار الرائدة والاعتدال الموضوعي. فأصدروا البيانات العديدة تباعاً خلال عام (١٩٥٨-١٩٥٩) للحفاظ على أصالة الدين الإصلاحية، ورفض الأطروحات الدخيلة، والتبشير بثقافة الإسلام العليا، والتأكيد على الدور المرجعي والحوزوي في قيادة الأمة، وقد ساندهم المراجع فيما صدر عنهم متمثلاً بفتوى الإمام الحكيم، وهذا نصّها: «إن جميع ما أصدره فريق من أعلام أهل العلم باسم جماعة العلماء في النجف الأشرف، وما سيصدرونه من النشرات وغيرها مما يتضمن الدعوة إلى دين الإسلام، هو من أهم الوظائف الشرعية التي يجب القيام بها في سبيل إعلاء كلمة الدين، وترويج مبادئه الشريفة وتعاليمه المقدسة،

فعلى عامة المسلمين العمل على مؤازرتهم والوقوف إلى صفهم، ومشاركتهم في تحمل هذه الدعوة الدينية المباركة»^(١).

٢٧/ جمادى الآخرة/ ١٣٧٨هـ — محسن الطباطبائي الحكيم

وكان في طليعة هؤلاء العلماء: الشيخ محمد طاهر الشيخ راضي/ الشيخ محمد جواد الشيخ راضي/ السيد إسماعيل الصدر/ السيد محمد باقر الصدر/ السيد محمد تقي بحر العلوم/ الشيخ محمد أمين زين الدين/ الشيخ محمد رضا المظفر/ السيد محمد جمال الهاشمي/ الشيخ حسن الشيخ محسن الجواهري.

وقد أيد سيدنا المترجم له «جماعة العلماء» وساندهم قولاً وعملاً، ووقف معهم مكافحاً ومدافعاً بكل ما يستطيع كما هو شأنه.

٤- ولدى قيام الانتفاضة الشعبية في إيران بقيادة الإمام الخميني طاب ثراه في ٢٥/ شوال/ ١٣٨٢هـ الموافق ٥/ حزيران/ ١٩٦٣م وما نجم عنها من استشهاد الآلاف، واعتقال العلماء، وتمزيق شمل الحوزة العلمية - كما سيأتي تفصيله في ترجمة السيد محمد الشيرازي- كان للمُترجم الدور البارز في الحفاظ على حياة السيد الخميني من جهة، وعلى تأييد الانتفاضة من جهة أخرى، وفي ظل كتاباته لعلماء إيران مشجعاً ومساعداً على التمرد المشروع ضد حكومة الشاه، وفي بث الوعي المعمق بين صفوف الأمة في القضاء على النظام الإيراني المقبور، وفي اجتماعه مع المراجع العظام لإنقاذ السيد الخميني من الإعدام، وفي مقابلته للوفود من الزائرين الإيرانيين للعبات المقدسة في العراق وتحريضهم على الثورة، وفي رسائله المتعددة التي اعتبر بها السيد الخميني أحد مراجع التقليد عند الإمامية، والدستور الإيراني لا يبيح إعدام أيّ مرجع في أي حدث مهما عظم، وقد شكر له الإمام الخميني بعد إنتصار الثورة الإيرانية في شباط/ ١٩٧٩م هذه المواقف، واعتبره الساعد الأيمن له في «مشهد المقدسة» عند إقامته بها مهاجراً

(١) ظ: المؤلف/ أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف/ ١٤٢.

من وطنه الأم النجف الأشرف احتجاجاً على النظام العراقي في انتهاكه الحرمات، ومحاربه للإسلام والمراجع والعلماء وحوزة النجف الأشرف بخاصة مما ستطلع عليه لاحقاً. وبعد الثورة الإسلامية كان لسانها المعبر في خراسان، وقاد المظاهرات بنفسه، وألقى البيانات مباشرة، وكان قد سير الجماهير الحاشدة أمام دبابات الشاه إبان الثورة، وهتف بأسفاط نظام الشاه، وتعرض لكثير من الشدة والرقابة، وكان في خطر داهم حتى انتصار الثورة، وسمي موقع إقامته بمشهد «شارع آية الله الشيرازي».

٥- كان من أهداف الطاغية صدام حسين لدى تسلمه الحكم في العراق ١٩٦٨/٧/١٧ القضاء على النفوذ المرجعي باعتباره يشكل خطراً على النظام الحاكم نتيجة النفاق القواعد الشعبية حول المراجع العظام لأنها الممثل الحقيقي لآمال الشعب العراقي، عنده تصدر وإليه تعود مما هو معروف من أصول الإمامية في الرجوع والتقليد لأئمة الدين وحماة الشرع المقدس، وكان الرئيس أحمد حسن البكر رئيساً لما يسمى بمجلس قيادة الثورة الحاكم، وكان صدام حسين نائبه في هذا المنصب الذي ينع القرار صغيراً وكبيراً حصراً، فلا سلطة لأحد معه على الإطلاق، وقد استبد الطاغية بالحكم منذ اللحظة الأولى، ولم يكن للبكر إلا الاسم فحسب، وكانت المرجعية العليا في العراق ممثلة بالسيد محسن الحكيم، وكان وجوده ونفوذه العائق الوحيد دون تنفيذ مخططات الطاغية في العبث والإجرام والاضطهاد السياسي، فقرر الاصطدام معه مهما تكن النتائج، فالإرهاب الدموي وقتل الآلاف من أبناء الشعب والعنف الطائفي أدنى ظواهر انفراد صدام حسين بالسلطة، وأنكر السيد الحكيم ممارسات النظام وزجّه الآلاف المؤلفة من المواطنين في المعتقلات الرهيبة، وتناهت أبناء التعذيب للسجناء إلى مسامع الطبقات كافة، وتعالى صدى التمييز الطائفي يصاحبه مصادرة أموال التجار وتعطيل القطّاع الخاص، وإلغاء إجازات

الاستيراد للكسبة وأرباب الإمكانيات المتوسطة، وتشكيل قوى المخبرات برئاسة الطاغية باسم «العلاقات العامة» وملاحقة الشعائر الدينية ومراسم عزاء وزيارة الإمام الحسين (عليه السلام) بشكل منظم ودقيق، ومضايقة الحوزة العلمية في النجف الأشرف، وإلغاء الإعفاء من التجنيد الإجباري للطلبة العراقيين، وعرقلة تمديد الإقامات لغير العراقيين، وقطع الرؤوس لأدنى سبب بغية إشاعة المناخ الدموي في العراق، والإمام الحكيم ينظر كل هذا، فقام برحلة إلى بغداد لتجميع أطراف الشعب العراقي دون تمييز، وإعلان مطالب الأمة من خلاله، والدعوة إلى الاعتدال ومراعاة حقوق الشعب في الحياة الحرّة الكريمة، وكان ذلك في ربيع عام ١٩٦٩م، وامتدت مسيرات الحشود المؤمنة نحو الإمام الحكيم، وقد هبط الكاظمية المقدسة، تعلن ولائها وتمسك بقيادته الرشيدة، وتشجب صريحاً ممارسات الحزب الحاكم من دون التقيد بنظام أو قانون أو مجلس تشريعي، فكلّ هذا من الهراء لدى الطاغية، وإنما الأمر له بإصدار القرارات الطائشة والمرتبلة وهي تشرع جزافاً باسم «قرر مجلس قيادة الثورة» ولا مجلس ولا قيادة، وإنما هو صدام حسين وحوله أزلام النظام من القتل والسفلة وذوي السوابق السيئة في أحياء بغداد بما يطلق عليه اسم «الأشقياء» أو «الشقاوات» وهكذا كان يدار الحكم، والوزراء دُمي يقلبها صدام أتى يشاء بين الوعيد والتهديد دائماً، والترغيب والترهيب أحياء، فانصاعوا للأمر الواقع، من دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة، فأصدر مجلس قيادة الثورة الموهوم بياناً باعتبار السيد محمد مهدي نجل الإمام الحكيم أحد الجواسيس، ووضع جائزة نقدية لمن يقبض عليه، فاحتفى السيد مهدي مدة وجيزة وغادر بعدها العراق، حتى سقط مضرجاً بدمه في السودان على يد شقاوات النظام وأجهزته المدربة فيما بعد.

قابل الشعب العربي والعراقي هذا البيان الكاذب بالسخرية والاستهزاء، وقابلته الحوزة العلمية في النجف الأشرف بالاحتجاج والاستنكار، وكنت آنذاك طالباً في الدراسات العليا بجامعة القاهرة، فنشرت جريدة «الأهرام» النبأ بالصفحة الأولى، وعلامات الاستفهام متتابعة حول فقراته، ولغة الإنكار التقريري واضحة عليه، وهي تريد أن تقول أن النظام العراقي لا يستند على زخم شعبي وإنما يستند على الإشاعات والتهامات والأكاذيب!! ولم يكن المراجع العظام في الحوزات العلمية في الأقاليم عامة، وفي النجف الأشرف خاصة بمعزل عن هذا الاستفزاز الحاقد والتحرك الجريء الفجّ، باستنكروا ذلك بالإعلان عن مقاطعة النظام في كل جزئية وكلية، واعتزل الإمام الحكيم الحياة العامة، واعتكف بمترله في الكوفة الغراء، وحدد يوماً واحداً في الأسبوع لزيارة ضريح أمير المؤمنين (عليه السلام)، وكان ذلك اليوم مشهوداً إذ تتجمع عشرات الآلاف المحتشدة في الصحن الحيدري لاستقباله، وكان يشق طريقه إلى الروضة المطهرة بصعوبة بالغة كبرى حتى ليبدو عليه التعب والإعياء، فقرر شباب الحوزة العلمية أن يطوقوا السيد الحكيم لدى نزوله من السيارة بحزام من الفتيان الأشداء وهو يسير في وسطهم مطمئناً يلوح بيده في الردّ على تحيات الجماهير، وكان مقرّ إقامته في الكوفة مدعاة لتقاطر العلماء والمراجع على زيارته والإثمار بأمره، ووقف السيد الشيرازي مجاهراً إلى جنب الإمام الحكيم متحدياً تلك المظاهر الهمجية التي تثيرها السلطة في وجه من يقدم عرضاً للسيد الحكيم، وكان السيد الشيرازي بالذات على استعداد أن يلبس كفته ويخرج إلى الناس، فيما لو أمر السيد الحكيم بالمجاهرة القتالية، ولكن السيد الحكيم قدس سره كان متحرجاً عن سفك الدماء، ومتورعاً عن إثارة معركة لاتعلم نتائجها، فرأى أن الصبر على ذلك أحجى، فصر ولاذ بالصمت الرهيب، وكان هذا الصمت الغاضب يثير القلق لدى السلطة، فقد عرف الشعب العراقي والعالم العربي والإسلامي سخط السيد الحكيم قدس سره على النظام

الحاكم، فسقط إثر ذلك شعبياً في جنوب العراق ووسطه وشماله، واقتصر تحركه ضمن تجمعات بدوية اعتمدت العنصر المذهبي أداة لها في إثارة الطائفية في مخططات إجرامية هائلة لا أول لها ولا آخر، نعم؛ عملت على تخلف الشعب العراقي عن ركب الحضارة العربي والإسلامي والعالمي عدة قرون، وسارت به إلى الوراء إذ فقد القادة الأمناء.

٦- وكان الكيان المرجعي مخيفاً للحزب الحاكم في العراق، فأخذ بالخداع والناورة والتضليل، وأبدى أسفه المفتعل لتورط أبناء المراجع في السياسة المعادية فيما يزعم، وأنه لاعداء له مع العلم والعلماء، ولا مع النجف الأشرف وكربلاء، والكل سواسية أمام الحكم لهم حقوقهم وعليهم واجباتهم، حتى إذ انتقل الإمام الحكيم إلى الرفيق الأعلى في ١/ حزيران/ ١٩٧٠م، قلب الحكم للشعب ظهر الجحش، إذ عاد لايمحى أحداً، ولا يراعي ذمة ولا حرمة لأي كان، وكان الاتهام بالعمالة للغرب والتجسس لإسرائيل قائماً على قدم وساق، فبدأ بتهجير العراقيين من أصول إيرانية فيما يقول، وألقى بمئات الآلاف وراء الحدود مجردين عن أموالهم وممتلكاتهم ومقتنياتهم ودورهم ومحلّتهم، وصادر جميع ذلك جهاراً ونهاراً، ثم حمل حملة منكرة بتفسير العلماء ورجال الدين بحجة أنهم أجنب، فغادرها الإيرانيون والباكستانيون والهنود والأفغان والثبت وأبناء شرق آسيا، ثم عمدوا بالتضييق على العرب إهانةً واستخفافاً، فغادر النجف الأشرف السعوديون والبحرانيون واللبنانيون، وهم يشكلون نسبة عربية كبيرة، فبقيت النجف الأشرف مقتصرة على العراقيين خاصة، فبدأ النظام يقلم أظفارهم ويلاحق شباهم بالاتهام في الانتساب إلى «حزب الدعوة الإسلامية» فقتل الآلاف منهم، وزجّ الآخرين بالسجون المرعبة في شتى صنوف التعذيب وأساليبه التي عجز «هتلر» دكتاتور ألمانيا عن التوصل إليها مع أعدائه ومعارضيه حكمه، واضطرب طبقة للتخلي عن الزبي الديني، واستبدلته بالكوفية البيضاء عسى أن يتخطاهم المخطط الإجرامي، وهكذا عادت النجف

الأشرف خيراً بعد عين لولا حكمة السيد الخوئي قدس سره وتواجد السيد الخميني طاب ثراه، وجرأة السيد الشيرازي أعلى الله مقامه، لقد تجاهل الحكم تماماً كون النجف الأشرف حاضرة العالم الإسلامي في الـدرس والتدريس والضخّ المعرفي لأبناء المسلمين في الدنيا، فضيّقوا الخناق على أهل العلم وطلابه، لأنهم أعداء العلم والدين معاً، وكادت أن تختفي كل معالم الدراسة الحوزوية المباركة حينما عمد النظام بتوجيه من صدام حسين إلى إخلاء «محلة العمارة» في النجف الأشرف من السكان، وتهديمها وجرف دورها ومنازلها ومدارسها العلمية وحسينياتها، بحجة تطوير المدينة وتوسيعها، وهذه المحلة بالذات مقرّ علماء الدين ومراجع الحوزة وطلاب العلم، وأبناء الأسر العلمية النجفية المعروفة، كآل بحر العلوم، وآل الحكيم، وآل الشيخ راضي وآل كاشف الغطاء، وآل الشرقي، وآل حرز الدين، وآل الدجيلي، وآل الصغير، وآل الفرطوسي، وآل نصار، وآل العادلي، وآل سميسم، وآل محي الدين، وآل الجواهري، وآل الكرمي، وآل الهاشمي، وآل الصدر، ومطارح آل ياسين، ومنازل آل الخوئي، وديار آل الشيبلي، وآل الحلّو، وآل الشميساوي، وآل الخاقاني، وآل الجباري، وآل فياض، ومدارج آل الحمامي، وآل الخمايسي، وآل الخضري، وآل الصافي، وآل الأذربايجاني، وآل الظالمي، وآل الطرقي، وآل القبانجي، وآل الأيرواني، وآل الساعدي، وآل الغراوي، وآل عيسى، وآل كمونة، وآل المظفر، وآل زائر دهام، وآل الجصاني، وآل جيون، وآل جيون، وآل الجزائري، والهيئة العلمية الشرقية، وأبناء الحسكة من رجال الدين. وهؤلاء جميعاً أصبحت دورهم ودواوينهم العلمية ومنازلهم العريقة في القدم آثراً بعد عين، وهذا يعني تشريد أهل العلم من مرابضهم، وتشتيتهم في الأحياء الجديدة بعيدين عن أماكن الـدرس والتحصيل في مساجد النجف الكبرى، مسجد الهندي ومسجد الطوسي ومسجد الخضراء ومسجد آل كاشف الغطاء، والمدارس الدينية الكبرى المنتشرة في مدينة النجف بالقرب من الحرم المقدس.

وقد هزّ هذا التلاعب بمقدرات الأمة، وهذا الاعتداء المتنوع على حوزة النجف الأشرف بكل عناصرها العرقية والقومية والوطنية، وتمزيق وحدة شمل الآلاف منهم، واقتصار الحوزة على أفراد لا يتجاوزون بضعة مئات، بينما كانت المدارس والدور تضيق بهم، حتى استأجر لهم المراجع الفنادق كما هو في عهد قيادة السيد الحكيم للحوزة العلمية، هذا المناخ الحزين الباكي أثار استنكار واحتجاج المراجع بنسبة لاسيما السيد عبد الله الشيرازي قدس سره، وحينما بلغ السيل الزبى، وضاق صدر المرجعية ذرعاً بما يجري على الأمة ورجالها المنقذين، أبرق السيد الشيرازي إلى قيادة الدولة المتمثلة بما يسمى «مجلس قيادة الثورة» بريقة شديدة اللهجة بتاريخ ١٩٧٤/٥/٢١ = ١٣٩٤/صفر/٢٦ هـ هذا نصها^(١):

مجلس قيادة الثورة/ بغداد

غير خفي أن العراق منذ العصور الإسلامية الأولى وإلى زماننا كان مهدياً للعلم والعلماء، وبذلك امتاز العراق عن سائر البلاد الإسلامية.

وأما المشاهد المشرفة -ولاسيما النجف الأشرف- فالأمر فيها أوضح، والتاريخ بذلك ناطق، فهي المدرسة العلمية منذ ألف عام. وإن دعاة الإسلام ورواد العلم منذ ذلك التاريخ وحتى هذا الزمان يتوجهون إليها من كل صوب وحذب لتحصيل العلوم الدينية والمعارف الإسلامية، وبذلك أصبحت النجف منارةً للأمة الإسلامية ومطمحاً لأنظار المسلمين، وليس هناك من ينكر أن وجود العلماء الأعلام والحوزة العلمية في العراق -في كل أدواره- كان سداً منيعاً أمام ضربات المستعمر الغاشم، وكانوا هم الحفاظ لهذه التربة المقدسة والتراث العراقي الأصيل، ولم يكن استقلال العراق إلاّ بجهود بذلها العلماء الأعلام بقيادة المرحوم آية الله الشيخ محمد تقي الشيرازي زعيم ثورة العشرين، وزعيم الحوزة العلمية آنذاك.

(١) وثائق تاريخية في حوزة المؤلف.

فمن المؤلم حقاً أن مناراً شامخاً كالنجف، ودرعاً منيعاً كالحوزة العلمية، تضمحل وتزول في عهدكم، كيف لا يكون كذلك، وقد ابلغت السلطات المحلية رجال الدين وأساتذة العلم على اختلاف جنسياتهم بتصفية أعمالهم لمغادرة البلاد خلال شهرين».

النجف الأشرف

عبد الله الشيرازي

٢٦/صفر/١٣٩٤

وكان لهذا الاحتجاج اللاذع أثره في التأني في بعض إجراءات تسفير رجال

الدين من النجف وقتياً!!

٧- وكانت مشكلة تهجير أهل العلم، والاستهانة بمقام المرجعية في النجف الأشرف من قبل النظام الحاكم، قضية ذات أهمية كبرى في تفكير السيد الشيرازي، وكان عليه أن يستهين بالمخاطر مركباً لعرضها ومعالجة إفرازاتها ومضاعفاتها مهما كلف الأمر من الصراحة والجرأة وتحدي الحزب الحاكم ورؤوسه المتآمرة على الكيان الديني والعلمي والإنساني في عاصمة الحوزة العلمية: النجف الأشرف. وكان النظام سادراً في غيه لتصفية الحوزة العلمية والإطاحة برموزها بتأييد جبان خائر من قبل بعض أبناء الطائفة من الحزبين المنحرفين، وعلى رأسهم نعيم حداد عضو القيادة، وحسن العامري وزير النظام، ومحمد حمزة الزبيدي رئيس الوزراء، وسعدون شاکر رئيس أجهزة المخابرات، وعلي رضا عضو قيادة الحزب، وإبراهيم خلف مدير أمن النجف ومسؤول الحزب، وعبد الحسن راهي عضو قيادة الحزب، ومسلم هادي الجبوري رئيس محكمة الثورة، وأضرابهم ممن لم تحتفظ الذاكرة بأسمائهم، ممن كانوا يشكلون رتلاً خامساً من الداخل في تفكيك مفاصل الكيان المرجعي والحوزوي في النجف الأشرف، وقد أسهم هؤلاء الملح في تشجيع قيادة الدولة الطائفية في تنفيذ مخططاتها الإجرامية، كما سبب صدمة كبرى لدى العراقيين باستهتار النظام بكل ما هو شريف وأصيل وموضوعي في العراق.

وكانت هذه الزمر الخائنة تعمل في نطاق واسع من صنوف الحزب على هذه الوتيرة مما أوجب احتقارهم في بلدانهم وديارهم، واعتبارهم من المطايا الهينة اللينة التي يركبها الطاغية للتطويح بمحاضرة النجف الأشرف.

أقدم النظام في مارس من عام ١٩٧٥ م على إصدار قرار خائن بإلغاء الإقامات فضلاً عن عدم تجديدها، ومنع الوافدين من أهل العلم إلى النجف الأشرف، وتسفير المقيمين فيه من طلاب العلوم الشرعية، وإلقاء القبض على رجال الدين في الشوارع والصحن الشريف والحرم المقدس من قبل جلاوزة الأمن وأجهزة المخابرات وإيداعهم في معتقل التسفيرات بصورة عشوائية ولا إنسانية، مما حدا بالسيد الشيرازي أن يرق لرئيس النظام الحاكم أحمد حسن البكر ونائبه صدام حسين بريقة شديدة اللهجة في ١/جمادى الأولى/١٣٩٥ هـ = ١٠/٦/١٩٧٥ م وهذا نصها^(١):

سيادة أحمد حسن البكر رئيس الجمهورية

السيد صدام حسين نائب رئيس مجلس قيادة الثورة

«لقد توقف تمديد الإقامات لطلاب العلوم الدينية في الجامع العلمية في العتبات المقدسة، وقد فاتحنا الجهات المسؤولة بذلك غير مرة، فوعدونا بعودة الموضوع إلى حالته الطبيعية... ولكنه مع الأسف بتاريخ ١/٦/١٩٧٥ م وبصورة مفاجئة ألقّت السلطات المحلية القبض على مايزيد على مائة شخص من طلبة العلوم الدينية وأساتذتهم... وبلغوا بأن يستعدوا لمغادرة العراق في ١/٧/١٩٧٥... وأود أن أضع أمامكم الحقائق التالية:

١- لاشك أن العراق مهد الحضارة الإسلامية، ويضم أقدس البقاع في العالم، وفيه ما لا يوجد في غيره من خيرات الأرض، والنجف مركز ديني مرّ على تأسيسه أكثر من ألف عام، وهي كعبة الوقاد من المسلمين ورواد العلم والمعرفة على امتداد العصور».

(١) وثائق تاريخية في حوزة المؤلف.

٢- يضاف إلى ذلك موقف رجال العلم في النجف الأشرف من حماية اللغة العربية وآدائها من الضياع، وتخريج العلماء والمفكرين الذين قدموا أكبر الخدمات العلمية الكبرى..

٣- المواقف المشرفة لرجال الدين من القضايا العامة المرتبطة باستقلال البلاد سياسياً واقتصادياً وفكرياً..

٤- إن العلاقات بين الدول لا يؤثر سلباً على التبادل الثقافي والعلمي، فكيف إذا علمنا بأن أطيب الروابط تربط العراق بالدول الإسلامية...

٥- حيث أن النجف الأشرف مطمح أنظار المسلمين، ومركز الدراسات الإسلامية العليا، فمن الطبيعي أن تكون غالبية من يؤمها خارج البلاد، والعراق كما نعرف بلدٌ مفتوح لا يمكن أن ينغلق على نفسه، لما يحمل من إشعاع فكري عريق وحضارة تاريخية ضاربة في القدم.

وبالنظر لما تقدم فإن الواجب الدين يدعوني أن أذكركم بما تملكه الحوزة العلمية من احترام عميق لدى المسلمين جميعاً، ومكانة مرموقة ووزن عظيم في الأوساط العلمية في العالم الإسلامي، الأمر الذي يقتضي إعادة النظر في الإجراءات المتخذة بشأن طلاب العلوم الدينية، وإصدار التوجيهات بتمديد إقامتهم خدمة للعلم، وترسيخاً لمكان العراق العلمية والدينية.

والسلام على من اتبع الهدى.

النجف الأشرف ١/ جمادى الآخرة/ ١٣٩٥ السيد عبد الله الشيرازي

وها أنت تلاحظ الخطاب التحذيري في هذه البرقية، وتلمس التحدي الهائل لحكم لا يؤمن إلا بالقتل وقطع الرؤوس، فلم يستجب لشيء من مطالب السيد الشيرازي، وكانت الحصيلة أن ركب النظام رأسه غروراً وغطرسة واستكباراً، فقابل ذلك بهجوم كاسح على رجال الدين والعلماء الأعلام بصورة عشوائية، وزجّ بالثلاث في السجون التي ضاقت بهذه الأعداد في معتقل

التسفيرات في النجف الأشرف بمقر مديرية الشرطة والقائمقامية، المقابلة لخان الحاج عطية أبو كلل الذي كان مقراً في عام ١٩١٧م للحاكم العسكري البريطاني المقتول الكابتن مارشال، وكان نتيجة هذا التصرف الأحق اعتقال بعض المؤهلين للمرجعية كالسيد نصر الله المستنيط، وقادة الفكر كالسيد محمد تقى الحكيم عميد كلية الفقه آنذاك، واعتقال مائة وخمسة عشر رجلاً من العرب النجفيين مع أولئك المهاجرين، وكان ذلك في ليلة ١٤ / ذي القعدة / ١٣٩٥هـ.

٨- في صباح اليوم التالي استدعاني الإمام السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي إلى مكتبه في جلسة سرية ضمت بعض أبنائه وأعضاء مكتبه، وقال: قررت الهجرة من النجف والخروج من العراق، فما يجري بالنسبة للحوزة العلمية أمر لا يطاق على الإطلاق، ومع هذا اسمي زعيم الحوزة العلمية في النجف، فأين هي الحوزة؟ ومن بقي من الحوزة؟ وما هم إلا أفراد قلائل وبضع عشرات لأكثر، وجرى الحديث في هذا الموضوع في التذمر من الإجراءات التعسفية للنظام بما قدمته لك، وبعبارة أخرى أنا زعيم للحوزة، ولكن بدون حوزة، وكشف عن مخطط الدولة في تصفية الحوزة وإبقاء المرجع وحيداً فريداً في الميدان، ولا أتذكر بالضبط العبارات نفسها لبعدها المدة وتوالي الكوارث، وها أنا ذا أدون جزءاً منها بعد ثلث قرن من الزمان، فالأحداث جرت في ١٣٩٥هـ = ١٠/٦/١٩٧٥ وأنا أكتبها في تموز/٢٠٠٧م = رجب/١٤٢٨هـ.

ومهما يكن من أمر، فقد أخرج لي السيد الأستاذ الإمام الخوئي محفظة فيها أربعة وعشرون جواز سفر له ولعائلته كلها، ولبعض المقربين، وطلب إلي أن أجمع مثلاً له مع مسؤول الحزب في النجف السيد إبراهيم خلق، هو نفسه مدير أمن النجف المزود بصلاحيات صدام حسين في الحكم بالإعدام ومصادرة الأموال والممتلكات والإبادة الجماعية، وأن يضم إليه محافظ كربلاء السيد محمد حسين الشامي البعثي المتطرف الأهوج في اجتماع موحد يجمعنا؛ وأن أبين غضب السيد الخوئي من الإجراءات وسخطه على الوضع الأمني. وتجريده من كل مقومات المرجعية.

واتصلت فوراً بإبراهيم خلف وأبلغته بأن رسالة مهمة أحملها له وللمحافظ مجتمعين من السيد الخوئي، وهي فورية لاتقبل التأخير، والحق أن إبراهيم خلف كان يحترمني ويعاملني معاملة الأستاذ فهو تلميذي في متوسطة العزة للبنين في الكوت حينما كنت مبعداً هناك في الأعوام ٦١، ٦٢، ١٩٦٣م. وكنت أصارحه بكل التجاوزات التي يقومون فيها لاسيما إجراءات بلاط الأمن في هذه الحملة ضد رجال الدين، فقد اعتصموا بالصحن خوف الاعتقال فافتحم ضباطه الصحن الحيدري، وقبضوا على رجال الدين بالمئات، ولجأ قسم منهم إلى الروضة الحيدرية نفسها طيلة يوم كامل، كانوا فيها يقضون (حاجتهم) للمرافق الصحية بأكياس النايلون وما شابه ذلك، ولم تقتحم الروضة نفسها، واكتفى مسؤولوا الأمن والحزب بمن قبضوه في الصحن وأودعوهم السجون المكتظة وقوفاً بلا ماء أو غذاء أو نوم أو مرافق صحية، وبصورة تمثل سوء العصور تخلفاً، ونحن في القرن العشرين.

حملت جوازات الإمام الخوئي وأسرته وبعض مرافقيه ومساعديه، وهي أربعة وعشرون جواز سفر، وقدمتها لإبراهيم خلف في مقر المنظمة الواقع إلى جنب الإطفائية، ويشغله اليوم المجلس الإسلامي الأعلى، وقلت أن السيد الخوئي عازم على المغادرة قراراً نهائياً، ولكن أين المحافظ يا إبراهيم؟ قال: المحافظ مع القيادة مجتمعون في صالة أخرى هنا، وأن المراسل بينك وبينهم، فهم يريدون بحث الموضوع على جانب من السرية، وفهمت بعد هذا أن الاتصالات جارية بينهم وبين سعدون شاکر مدير أجهزة المخابرات في بغداد، وبين سعدون شاکر وصادق حسين من جهة أخرى، وقد طال هذا الاجتماع ثلاث ساعات بعد الغروب، وقد قلت فيما قلت:

إن مغادرة الإمام الخوئي للعراق هدية بطبق من ذهب إلى شاه إيران وهو عدوكم الحقيقي لا الحوزة العلمية، وسوف يستقبل في إيران استقبالاً حافلاً،

وسوف يغضب كل شيعة العالم عليكم، وربما تصدر جملة من الفتاوى بكفركم وإلى وكم كما تم ذلك بالنسبة للحزب الشيوعي، ومن جهة ستكون مغادرته إلى إيران ضربة قاصمة للمعارضة الإيرانية التي يقودها الإمام الخميني اللاجئ السياسي عندكم في النجف الأشرف، وبذلك يُسجل انتصار ساحق لشاه إيران، ومعنى هذا خضوع المنطقة كلها والخليج العربي للشاه، لاسيما وهو شرطي الخليج لدى الدول الكبرى لاسيما الولايات المتحدة الأمريكية، قابل إبراهيم خلف حديثي هذا -وما أوردته هو مضمون الكلام مختصراً- بوجوم واهتمام بالغ، والمراسلات بيني وبين المحافظ وقيادة النجف، وأصحاب القرار في بغداد جارية على قدم وساق، وكانت النتيجة أن أرجع إلى الجوازات بالقول: لاتوافق القيادة في بغداد على مغادرة السيد الخوئي العراق بأي شكل من الأشكال، وسوف تعالج الأوضاع وتحل المشكلات، وطلب إلى الاجتماع بالسيد الخوئي، وأنا حاضر، وكان السيد الخوئي بأقصى درجات التأثر والانفعال، وقد اصفر وجهه وامتقع لونه ورجفت كفاه، وهو يؤنب مسؤول القيادة على التصرفات الشاذة لرجال الدين واعتقالهم وإلحاق عوائلهم بهم لغرض التسفير، وكان إبراهيم خلف صامتاً لا ينس ببنت شفه، ولكنه وعده بمراجعة الأمر وقضايا التسفير وتجديد الإقامات، وهنا طلب الإمام السيد محمود الشاهرودي مغادرة النجف إلى إيران، ولم يقنع بتغيير قراره إلا بشق الأنفس، حتى قال إن لم تحتموا على جوازي وأسرتي بالخروج والمغادرة، فسأذهب بنفسي إلى السراي وأكسر زجاج الدائرة والنوافذ بعصاي هذه، وأستمر على هذا الحال أياماً وليالي، حتى عرض له عارض صحي وبقي الأمر معلقاً، وسرعان ما تدهورت صحته ووفد على الله. وكان السيد الشيرازي يرقب الوضع عن كثب، وكان متأهباً لمغادرة العراق مع حوزته العلمية بمجرد أن تصدر الموافقة على مغادرة السيد الخوئي، وكان مستميتاً في النقد اللاذع والإنكار الشديد والاحتجاج العلني للنظام، وهو يردد ويزيد، ويتساءل ويستفهم!! هل يجري ما

يجري على رجال الدين في النجف في إسرائيل بالنسبة للفلسطينيين، وهو يخاطب المسؤولين كما سمعته بالذات، الإقامة في إسرائيل أشرف من الإقامة معكم، ولو هاجرت إلى إسرائيل لكان أفضل من البقاء المرير في النجف مع هذه الإجراءات الغاشمة الظالمة، وكنت أحاول أن أخفف غلوائه في هذا الجانب فما استطعت إلى ذلك سبيلاً، ولكنه كان يقتنع ببعض وجهات النظر.

وحينما ظل الأمر معلقاً، أوفدني الإمام الخوئي مع السيد محمد صالح الخرسان والشيخ محمد الشيخ راضي إلى بغداد في محاولة أخيرة لحل هذه الإشكالية المستعصية في تخفيف معاناة أهل العلم، وتمديد الإقامات للأجانب، في ضوء واقع الدراسة في النجف الأشرف، كان ذلك في ٢٢/ حزيران/ ١٩٧٥م، اتصلنا فوراً في ٢٣/٦/١٩٧٥م بالدكتور المرحوم أحمد عن الستار الجوارى، وكان آنذاك وزيراً لشؤون رئاسة الجمهورية، وهو على علاقة ممتازة مع أحمد حسن البكر، وهو على معرفة عميقة بأوضاع النجف الأشرف، وعلى صلة بمراجعها العظام، وهو صديق محبوب في آدابه وخلقه، فأبلغته بسلام السيد الخوئي عليه، وشرحت له أبعاد الموضوع وكان متفهماً له تماماً، تألم كثيراً، وقال: لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وخاطبني بالقول: يا أبا جعفر تغيرت المعايير وساءت الأحوال، ولاتدري بما يجري داخل مجلس قيادة الثورة حتى قلت لهم محتجاً، تريدون تهدم العتبات المقدسة، يعني تهدم العتبات المقدسة، ثم أمسك عن الحديث، وقال بعدها: سأتصل بالجهات المسؤولة، وأخبرهم بالوفد وبوجهة نظر السيد الخوئي، وسأعمل كل ما أستطيع في هذا الموضوع، والتفت إلي قائلاً: اتصل بي بعد يومين أو ثلاثة، وكانت مناقشة رسالتي للماجستير في ٢٦/٦/١٩٧٥م، وفي صباح ٢٧/٦/١٩٧٥م اتصلت به حول الموضوع، فقال لي: سألوني عن أسماء أعضاء الوفد فأخبرتهم بذلك، عرفوك وعرفوا الشيخ محمد الشيخ راضي ولم يعرفوا السيد محمد صالح الخرسان فعرفتهم بمزته العلمية والأسرية، ثم قال: أبلغ السيد الخميني والسيد

الخوئي بأن الإقامات سوف تمتد كما يشاؤون بشرط أن يجري تشخيص الحوزة العلمية من خلال قوائم الرواتب للسيد الخوئي والخميني، فمن كان مدرجاً في تلك القوائم فستجدد إقامته، وهذا كل ما أستطيع عمله، وهو تحرك إيجابي بالنسبة لعناد الجماعة (يعني مجلس قيادة الثورة) أو صداماً بالذات.

شكرته، وكان الوفد قد رجع إلى النجف - باستثنائي - وغادرت إلى النجف الأشرف فوراً، ووصلت بعد الظهر بقليل إلى الكوفة، ونزلت حيث دار السيد الخوئي، ودخلت عليه، فأخبرته بالموضوع فتهلل وجهه فرحاً ودعا الدكتور الجوارى، وألزمني بتناول الغداء معه، وكانت النتيجة أن زوّد المسؤولون في النجف بالقوائم المطلوبة، فجددت إقاماتهم إلى حين، وكان عدد تلك الإقامات (٢٥٠٠) إقامة، وهو حدث خطير بالنسبة لتلك الأوضاع الشاذة التي قابل بها المسؤولون علماء النجف، وكان سعدون شاکر مدير أجهزة المخابرات هو الذي سال عن أسماء أعضاء الوفد وهو الذي أبلغ الدكتور الجوارى بالقرار، فأبلغني إياه، وأبلغته للسيد الخوئي قدس سره.

وللتأريخ فقد أوفدت القيادة من ذي قبل الوزير حسن العامري عضو القيادة القطرية للحزب وعضو مجلس قيادة الثورة، إلى النجف الأشرف حول هذا الموضوع، فقام بزيارة السيد الشيرازي بتاريخ ٢٧/ذي الحجة/١٣٩٤هـ = ١١/١/١٩٧٥م.

وطلب العامري إلى السيد الشيرازي تحديد إقامة الطلاب المهاجرين إلى النجف الأشرف، وضرورة تعيين فترة زمنية تحدد مدة الدراسة في النجف الأشرف، وفهم السيد الشيرازي من هذا العرض معنى المعنى، فهم يريدون ربط العدد والزمن الدراسي بتحديد من السيد الشيرازي، وكانوا يأملون أن يكون العدد خمسمائة طالباً فحسب، ومدة الدراسة تتراوح بين ثلاث إلى خمس سنوات!! وإذا بالسيد الشيرازي يخاطب الوزير ومعه مرافقوه من مسؤولي النجف بالقول بالحرف الواحد: لا بد من وجود خمسة آلاف طالب في الحوزة

العلمية في النجف الأشرف، وأن أقل مدة للدراسة الحوزوية فيها هو خمسة عشر عاماً.

أسقط ما في يد الوزير الحاقدا، ولم يقابل أيّ مرجع، أو لم يقابلوه.

٩- وتمادى النظام الحاكم بالاستهتار والعبث بمشاعر الناس وأحاسيسهم الدينية في النجف الأشرف، وعمدوا إلى استفزازهم بكل بدعة، فقاموا بتعليق مربع مزجج ومؤطر لتصاوير ميشيل عفلق مؤسس الحزب، وشبلي العيسمي عضو القيادة القومية للحزب، وأحمد حسن البكر رئيس الجمهورية، وصادم حسين نائب رئيس مجلس قيادة الثورة، ووضعوا ذلك مرفوعاً في لوحة كبيرة موحدة في مدخل باب القبلة داخل الصحن الحيدري الشريف متحدين شعور الناس وعواطفهم.

فما كان من السيد الشيرازي - بعد أن أدى صلاة المغرب والعشاء - وكنت مشاهداً للحدث - إلا أن عمد إلى هذه الصورة المزججة الرباعية، وانهمال عليه ضرباً عنيفاً بعصاه، فتهدمت وسطقت إلى الأرض، وكأن على رؤوس الناس الطير، وكانت تلك جراً ظاهرة تمثل تحدياً سافراً للحكم، ووقف المسؤولون في النجف حياراً تجاه هذا الحدث، إذ ستصل أخباره ببغداد، وعاتبوا السيد الشيرازي على هذا الإجراء الخطير، فما استلان لهم ولا اعتذر، بل أبدى صراحة بالقول: إن بعض هؤلاء رموز للكفر، ولا ترفع صور رموز الكفر في صحن أمير المؤمنين (عليه السلام)، وقد سبكم الناس على هذا الفعل سباً عنيفاً، فانتبهوا من الغفلة!!

١٠- واستمرت جراً السيد الشيرازي مضرباً للمثل، وصاحبه هذه الخصلة حتى بعد هجرته إلى مشهد المقدسة في إيران، واستمر معها إنكاره للطفغان ومعارضته للجبايرة.

وحينما قام النظام العراقي ما بين ١٥-١٩ / صفر / ١٣٩٧ هـ الموافق ٤-٨ / شباط / ١٩٧٧ م بمهاجمة جماهير الزائرين للإمام الحسين (عليه السلام) في زيارة

الأربعين المأثورة. وأقدمت على مطاردة الحشود الهائلة منهم بين النجف وكربلاء، إرهاباً بأزيز الطائرات فوق رؤوسهم ورفع حاجز الصوت عنها، وضرباً بالهراوات والسياط وأعمدة الحديد، ورمياً بالرصاص، والزج بعشرات الآلاف منهم بالمعتقلات في بغداد، وعقد محكمة طارئة كيفية من ثلاثة من أعضاء مجلس قيادة الثورة، وهم الدكتور عزت مصطفى، والأستاذ فليح حسن الجاسم، والمجرم حسن العامري، وحكمت على كوكبة من أبناء النجف بالإعدام، وعلى الأسد محمد باقر الحكيم بالسجن المؤبد، وعلى بضعة عشرات من الزوار بأحكام مختلفة، وبعد يومين من هذا القرار الغاشم، فصل الدكتور عزت مصطفى من جميع مناصبه عضواً في القيادة والحزب ووزيراً للصحة، وفصل الأستاذ فليح حسن الجاسم من جميع مناصبه عضواً في القيادة والحزب ووزيراً، وذلك لتلكؤهم عن تنفيذ مقررات الحزب، وتبين أن الأحكام الصادرة عن المحكمة كتبها الرفيق صدام حسين بخط يده، وكانت غاشمة وجائرة ضمن كل المقاييس في المحاكم سواء أكانت ثورية أو قانونية، وامتنع الدكتور عزت مصطفى والأستاذ فليح حسن الجاسم عن التوقيع على القرار، واعتبراه ظلماً فاحشاً، واستهانة بهما ففصلاً، وقتل بعد أشهر اغتيالاً الأستاذ فليح حسن الجاسم فذهب ضحية مروءته وعدالته. وتناهد هذا الأبناء إلى مسامع السيد الشيرازي، فأبرق لسيدنا الأستاذ الإمام الخوئي بالبرقية هذه:

النجف الأشرف/ آية الله العظمى السيد الخوئي دامت بركاته

إن الحوادث الواقعة يوم الأربعين، وضغط الدولة على الشعائر الحسينية والقائمين بها، أوجب تأثرنا واستياء الجميع، وإننا سوف لن نقصر في القيام بواجبنا الديني، إن شاء الله تعالى، وما النصر إلا من عند الله. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عبد الله الشيرازي

مشهد المقدسة/ ٢٥/ صفر/ ١٣٩٧هـ

أكتفي بهذه النقاط الرئيسية دليلاً على الجرأة الصاعدة في مسيرة السيد الشيرازي النضالية، وهي تعطي صورة لبؤرة ذلك التحرك الملتزم في الاحتجاج الصارخ على جميع أصناف الظلم والاضطهاد والإرهاب السياسي، كما تعطي صورةً للرجل الصامد المعتمد على كفايته في قيادة لأنصار لها، إلاّ الدموع والدماء وأتات المساجين وآهات الأرامل والثكالى، أجل هذا هو الصريح من القول بكل أسف ومرارة، وهكذا يصنع الرجال التاريخ بالقرار المناسب في الوقت المناسب، وهكذا كنا.

مشاريع السيد الشيرازي:

كان السيد الشيرازي منذ كهولته الفتية في النجف الأشرف دؤوباً في العمل الجادّ، يتصف بالنشاط والحيوية، وكان مثلاً للزهد والتواضع والترسل التام، لا أثر للتكلف في حياته الخاصة، بعيداً عن الشبهات، قريباً من الله تعالى في إجابات وإنابة وصيانة للسلوك، رطب اللسان بذكر الله، يشارك البؤساء والفقراء في حياتهم الصعبة، ويواسيهم في معاناتهم اليومية، ومع هذا فقد نخطى حدود الأزمات، وأمدّ الله في زمام توفيقاته، فنهض مشمراً ساعديه بعدة مشاريع حيوية في النجف الأشرف مع ضغوط السلطة، وشدة المحنة والعيش الكفاف، وأسس مدرسته العلمية في شارع المدينة، والمدرسة الطاهرية - تبركاً باسم أبيه - العلمية لطلبة العلوم الإسلامية في مساحة كبرى، والجامع الطاهري، والحسينية الطاهرية، تزنيهما مكتبة عامة باسمه الشريف، وشيد مساجد وحسينيات أخرى، ومراكز إسلامية للثقافة العامة في كل من النجف الأشرف والكوفة الغراء، وهي شاخصة إلى اليوم وإن كانت بحاجة ملحة إلى الرعاية والعناية والإدارة والتنظيم.

إن تأسيس هذه المشاريع قبل نصف قرن من الزمان مع قلّة ذات اليد، وحياة الفقر التام في المجتمع النجفي، وتفرعن السلطات الحكومية فيما بعد، يعتبر نحتاً في صخر، أو قدماً من حجر، ولكنها النيّة الخالصة والعمل في سبيل

إعلاء شأن الدين. وحين استقراره في مشهد - كما سيأتي - اتسعت رقعة مشاريعه الخيرية، وتعددت خدماته العلمية لا في مشهد فحسب، بل تخطت ذلك إلى المدن الإيرانية الأخرى، وتجاوزتها إلى الهند وباكستان، وبعض البلدان الأفريقية كالسنگال، وكينيا، وسيراليون، وتزانيا، وفولتيا العليا، ومن البلدان العربية توجه نحو سوريا ولبنان والخليج العربي، وقد أسهمت إدارته الحازمة في كل هذه الأقاليم بإنشاء المكتبات العامة أولاً، وإعمار المساجد والحسينيات ثانياً، فالهدف العلمي لديه قرين الهدف الديني، وهكذا كان.

وفي مشهد كان السيد الشيرازي رجل مشهد الأول، فطوّر كثيراً من المشاريع الإنسانية، وصبّ جهوده في روافد الحوزات العلمية في كل من مشهد قم، وقوجان، وشيراوان، وبنجورد، وقائين، وكانت العناية الأولى تتسم بإغاثة الملهوفين منهم، وإعالة الفقراء، ومتابعة أحوال المهجرين العراقيين، وتخصيص الرواتب الشهرية لهؤلاء جميعاً بما بلغ ثلاثين مليون تومان شهرياً، وعطف على متضرري الحرب العراقية الإيرانية رعاية خاصة.

وقد لاحظت ميدانياً في مشهد بخاصة مشاريعه الكبرى وأبرزها:

١- مدرسة الإمام أمير المؤمنين العلمية، وهي مدرسة حوزوية، والدراسة فيها على غرار الدراسة في حوزة النجف الأشرف.

٢- حسينية الإمام الشيرازي في مشهد، وهي قرية من الروضة الرضوية المباركة، وقد طوّرها من بعده ولده البارّ السيد محمد علي الشيرازي، وتعنى بمواليد ومآتم الأئمة الظاهرين مع الإطعام العام، والعناية الخاصة بالعراقيين كافة، وتوفير السكن لهم مع مستلزمات الضيافة في الطابق العلوي من الحسينية وفي أماكن أخرى، وقد خصص الطوابق العلوية أخيراً لحضور النساء في الاحتفالات الدينية، وأفردت منازل لضيافة العراقيين بعامة والنحفيين بخاصة، بما يعتبر من مآثره قدس سره، ومكارم ولده البارّ.

٣- المستوصف الخيري في مشهد، ويتمثل بتجهيزه بالمعدات الطبية والمستلزمات، والكادر الطبي المتخصص، واستشفاء خمسمائة مريض من علماء وأساتذة وطلبة الحوزة العلمية شهرياً، ومعدل تكاليفه شهرياً يقدر بخمسة وعشرين مليون تومان إيراني.

٤- تأسيس المستشفى الخيري العام ومستشفى أم البنين للولادة بكلفة بلغت مليار تومان.

٥- المكتبة العامة للسيد الشيرازي بمشهد.

٦- مسجد أبي الفضل العباس (عليه السلام) بمشهد.

٧- إنشاء مستوصف السيدة رقية (عليها السلام).

٨- إعادة تشييد مستوصف خاتم الأنبياء.

إن هذه الأرقام هي مشاهداتي الخاصة، وهي على سبيل النموذج يستدل بما ذكرنا على ما لم يذكر.

هجرة السيد الشيرازي إلى مشهد:

رأى السيد الشيرازي أن النظام الحاكم سادر في غيّه وطغيانه، ولا أمل في إصلاح الوضع الديني، ورأى المواعيد التي قدمها للمرجعية كاذبة، وهي خداع في خداع، فقرر الهجرة من العراق، وطلب الرحيل وسمه المغادرة، فامتنعت السلطات عن تلبية طلبه، لما تحدثه هجرته من ضجة في الوسط الديني والشعبي في العراق، وقد أصرّ السيد الشيرازي على ذلك، فأربك إصراره أجهزة المخابرات ومفاصل الدولة القيادية، فزاره محافظ كربلاء بحضوري ومعه مدير مخابرات المنطقة، وأبلغوا السيد أن رئيس الجمهورية يعتبر البلد بلده وله أن يقيم ما يشاء، فرفض ذلك، لأن مسألة عامة تخص الحوزة العلمية أجمع، وهنا اجتمع به كلاً على انفراد: السيد الخوئي والسيد الخميني والسيد الصدر، في محاولة لتغيير قراره، فأبدى لهم أن هجرته -مع وجودهم في العراق- لها عائدة إيجابية على الحوزة العلمية، ولها آثار سلبية على النظام الحاكم.

وكانت المشكلة العارضة في البين أن علاقة السيد الشيرازي بشاه إيران كانت متوترة بسبب تأييده المطلق للسيد الخميني قدس سره، ودعمه قولاً وعملاً للتحرك الثوري بقيادته في إيران، ولكن السيد الشيرازي اعتمد التأييد الجماهيري له، وأصرّ على الهجرة، وزرته ليلة سفره، وابدت وجهة نظري في ضرورة تواجه في النجف الأشرف في هذا المناخ العصيب رغم كل التناقضات السياسية، ورغم التعامل الإرهابي مع الحوزة، فأبان السيد أن رحيله سيشكل نصراً في النهاية لقضية الحوزة، وأنه يترك النجف بحسبه، وأن قلبه وروحه وعواطفه في رحاب أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، وتهجم على النظام مقارناً له بإسرائيل فيما تضطهد به أبناء فلسطين، وكذلك اضطهاد النظام للشعب العراقي عامة، وللنجف الأشرف خاصة.

ومهما يكن من أمر، فقد حدد يوم السبت ٢٥/ذي القعدة/١٣٩٥هـ — موعداً للهجرة، فاجتمع المسلمون وأهل العلم وأعيان البلد لتوديعه، وانطوت بذلك صفحة مشرقة حافلة عاشها السيد الشيرازي في النجف الأشرف طيلة ثلاثة وستين عاماً، كان خلالها قائداً جريئاً، وزعيماً مصلحاً، ومرجعاً متنوراً. وهكذا غادر ركب السيد الشيرازي النجف الأشرف مودعاً بالدموع والحسرات، والتزمت الجماهير الحاشدة بتوديعه بتوديعاً مشهوداً في كل من النجف الأشرف وكربلاء المقدسة، والكاظمية المشرفة، وبعقوبة، وخانقين، حتى اجتاز الحدود العراقية إلى إيران يوم الاثنين ٢٧/ذي القعدة/١٣٩٥هـ، واستقبل عند الحدود الإيرانية بجفاوة بالغة شعبياً وعلمياً، كما قوبل برقابة صارمة من قبل أجهزة السافاك.

وارتأى السيد الشيرازي أن يتخذ مشهد الإمام علي بن موسى الرضا مقرأً وموطناً لمسيرته المرجعية، فاستقر برحابها في ٢٨/محرم/١٣٩٦هـ. وهناك كان الاستمرار بالمنهج العلمي والإصلاح، وبرزت طائفة من مؤلفاته العلمية منتشرة في الوطن العربي والإسلامي.

مؤلفات السيد الشيرازي:

ترك السيد الشيرازي ثروة علمية متخصصة في علمي الفقه والأصول في مؤلفات تمثل عدة أنماط، فهناك المؤلفات المخطوطة التي تستوعب مباحث قيمة في الفقه والأصول، ففي الفقه له مخطوطة في كتاب الطهارة، وأخرى في كتاب الصلاة، وثالثة في كتاب الزكاة، وتعليقة على مكاسب الشيخ الأنصاري، وفي الأصول له تعليقة على كفاية الأصول للآخوند الخراساني قدس سره.

وهناك تقارير أبحاثه في الدرر العالي الخارج، وهي:

- ١- تنقيح الأصول /تقريراته/ في أربعة مجلدات تعلم الشيخ علي الأرومي.
 - ٢- رسالة أصولية /تقريراته/ في الترتب/ تعليم علي أكبر الوحيدي.
 - ٣- كتاب الصوم /تقريراته/ بقلم الشيخ علي أكبر الوحيدي.
 - ٤- كتاب الصم أيضاً /تقريراته/ بلم الشيخ علي الأرومي.
 - ٥- زكاة الفطرة /تقريراته/ بقلم الشيخ محمد تقي الطبسي.
 - ٧- محاضرات في الحج /تقريراته/ بقلم ولده السيد محمد علي الشيرازي.
- أما مؤلفاته المطبوعة فأشهرها:

- ١- أنيس المقلدين /رسالته العملية/ صدرت لأول مرة عام ١٣٦٥هـ.
- ٢- زبدة الإحكام.
- ٣- مناسك الحج/ صدرت بعدة لغات إقليمية وعالمية.
- ٤- توضيح المسائل.
- ٥- عمدة الوسائل في الحاشية على الرسائل للشيخ الأنصاري في ثلاثة مجلدات.
- ٦- كتاب القضاء/ مجلدان.
- ٧- وسائل فقهية.
- ٨- الدرر البيض في منجزات المريض.
- ٩- إزاحة الشبهات في الشك في الركعات.
- ١٠- الحاشية على العروة الوثقى للسيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي.

وهناك مؤلفات أخرى وكراسات ونشرات في الثقافة الإسلامية والكلام والاحتجاج والإمامة.

وفاة السيد الشيرازي:

في فجر يوم الخميس ١/محرم الحرام/١٤٠٥ هـ انتقلت روح السيد عبد الله الشيرازي إلى الرفيق الأعلى بعد مسيرة علمية ونضالية تجاوزت تسعين عاماً، وبذلك طويت صحيفة رسالية من الجهاد الديني والكفاح السياسي، حملت هموم الأمة ومآسي الشعب المسلم.

ولدى إذاعة نبأ وفاته في الإذاعات الإقليمية والعالمية، هزّ هذا الخطب الجلل العالم الإسلامي، وأعلنت بعض دوله الحداد الرسمي، وعطلت الحوزات العلمية في ديار الإسلام بحوثها ودروسها، ونعتت الهيئات الدينية والسياسية والعلمية، وفي طليعتها مراجع الأمة، والحوزات في النجف الأشرف و كربلاء وقم وبقية الأقاليم، وأبنته ونهته في بيانات مؤثرة، واهملت برقيات التعازي على آل وذويه وعلى مراجع الدين، وانتشرت الأعلام والرايات السود في البلدان والقصبات، وعطلت الأسواق تعطياً عاماً، وبت ملامح الحزن وعلائم الأسى في مشاهد جنائزية مفجعة، وشيع الجنمان الطاهر بمئات الألوف، يتقدمهم العلماء والقادة والمسؤولون والحوزة العلمية، ودفن حيث موضع مرقد، قرب الضريح المبارك للإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام). وأقيمت عشرات الفواتح في أغلب بلدان الإمامية في العالم.

وقد خلف من الأبناء والأعلام مايفتخر بهم جيلاً بعد جيل، فمكتبه عامر في مشهد بولده البارّ السيد محمد علي الشيرازي، والحسينية حافلة بطلائع الشباب، ورعاية المحرومين والمضطهدين في ثراء إنساني، وتكريم أبناء العراق قائم على قدم وساق، والخلق العربي الأصيل في ذروة العطاء.



السيد محمد الحسيني الشيرازي.. موضوعياً

الاسم والولادة:

هو السيد محمد بن السيد مهدي بن السيد حبيب الله الحسيني الشيرازي الحائري، وجدّه السيد حبيب الله ابن أخ المجدد السيد محمد حسن الشيرازي (ت ١٣١٢هـ).

ولد في النجف الأشرف عام ١٣٤٧هـ = ١٩٢٨م.

ونشأ في كربلاء المقدسة نشأة روحية متميزة، وهاجر إلى دولة الكويت الشقيق، وغادر إلى قم فاستقر بها حتى وفاته. فهو نجفي الولادة، حائري النشأة، كويتي الهجرة، قمّي الإقامة والمرجعية والوفاة والمثوى الأخير.

تمهيد منهجي:

السيد الشيرازي قدس سره وبصريح العبارة: رجل ارتفع به أولياؤه إلى درجة التقديس، وهو أهل للتبجيل والتعظيم من دون شك. وانحدر به أعداؤه إلى حدّ التوهين، وليس الأمر كذلك، فكان مدحه يتعدّى حدود الإفراط أحياناً، وكان قدحه يتعدّى حدود التفريط دائماً. وبناءً على هذا المناخ المتناقض، فقد كثر أتباعه ومحّبوه، وهم يفدونّه بالآباء والأبناء، وكثر -أيضاً- مبغضوه بشكل غريب يدعو إلى الحيرة والتساؤل.

فما هي الأسباب الكامنة وراء هذا التضادّ؟

وما هي شخصيته في الميزان الواقعي الموضوعي.

وما هي الدواعي الحقيقية وراء حملة التشهير به جزافاً؟

وما هي فلسفة الاعتزاز به والاحتفاء بقيادته؟

وما هي مواقفه الإنسانية المجهولة لدى الكثيرين؟

وما هو دوره في بناء الفكر الإسلامي المعاصر؟

هذه بعض الأسئلة الرئيسية الكبرى التي تدور حول مسيرة السيد الشيرازي قدس سره، وهي أسئلة قائمة بالفعل، أرجو أن يوفقني الله تعالى للإجابة عليها بأمانة وإخلاص ضمن هذه الصفحات من ملامح حياة السيد الشيرازي العامة.

وينبغي الإشارة بادئ ذي بدء، أن الرجل قد انتقل إلى جوار ربّه، فلستُ أمله في شيء، ولستُ من أتباعه ولا مقلّديه، ولا علاقة مالية لي معه، فلستُ محتاجاً، ولا أتناول حقاً شرعياً، بل قد أخرجه أحياناً.

وقد أكون مستشاراً عند جملة من المراجع العظام طيلة أكثر من أربعين عاماً، وليس هو أحدهم، نعم هو أخي في ذات الله والمصلحة الإسلامية العليا، وهو صديقي منذ أكثر من خمسين عاماً أيام الصبا والشباب، واستمرت هذه الصلة حتى وفاته من دون أن يكدر صفوها شيء.

فإذا كتبتُ عنه فبدافع الوفاء لهذا النوع من الإلتقاء الروحي، ولستُ ممن المتعصّين له أو عليه، ولهذا فسأكتب للتاريخ والأجيال القادمة التي قد لاتتوصل إلى حقيقة هذا الرجل ببسر وسماح، أو قد تلمس شيئاً من اللبس والغموض حول شخصيته الغدّة، بين ثناء المحبين، وهجاء المبغضين.

يحدثنا التاريخ أن أحدهم قد أثنى ثناءً كبيراً على أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام) بحضوره — وكان متهماً — فقال الإمام بما نصّه أو معناه: أنا دون ما تقول، وفوق ما في نفسك، وهذا ما ينطبق في حدود على المغالين بالسيد الشيرازي طاب ثراه، وعلى القالين له.

سألني أحد علماء لبنان في صيف عام ١٩٩٧م، وأنا أقضي فصل الصيف هناك؛ قال لي: أنت رجل صريح، ومعروف بحبك وإخلاصك للسيد الشيرازي، وأنت من جماعة السيد محسن الحكيم، والسيد أبو القاسم الخوئي، والسيد علي السيستاني؟ قلتُ هذا صحيح، قال: أريد أن أسألك سؤالاً قد يكون محرّجاً بعض الشيء، قلت له: على رسلك؛ سلّ ماتشاء!!

قال: ما هي الشيرازية؟ ومن هم الشيرازيون؟
إن هذا الاسم يبدو مخيفاً ومحاطاً بالرهبة!! فما هو خطّهم وما هو منهجهم؟.. فتبسمتُ، وقلت له:

السيد الشيرازي في خط الله تعالى، وخط رسوله (ﷺ) وخط أهل البيت (عليهم السلام)، وعلى المنهج القويم المعتدل.

قال: هناك بعض الانتقاد لجماعته!! قلت: لسنّا معصومين. وكلّ منّا عرضة للنقد، ولكنه النقد الذي لا يخرج أحداً من دينه. وأردفت قائلاً: إن هذه الأسرة الشريفة في كربلاء المقدسة -أسرة آل الشيرازي- يحسدها الكثيرون ممن لا خلق لهم ولا خلق، لأنهم محبوبون حباً ذاتياً، ولهم شعبية هائلة في الوسط الجماهيري، وتلك نعمة كبرى، وكل ذي نعمة محسود.

قال: جزاك الله خيراً، فقد نفست عني كثيراً.

قلت: لا عليك بالأقاويل والأباطيل، ما قلت لك هو الواقع بعينه.
كان هذا الحديث مدعاةً إلى تسجيل جملة من الوقائع قد تنحلّ من خلالها الإشكاليات جملة وتفصيلاً.

النشأة المثالية:

نشأ السيد الشيرازي قدس سره نشأة رائعة مثالية بين أحضان والده المهدي، وكان رجلاً عرفانياً، وعالمًا ربانياً، تتمثل به القداسة بأروع صورها، فاكتسب المترجم له خصائصه السلوكية، وأضاف إليها معارفه العلمية، فغذاه لباب العلم الخالص، ودرس على يديه وعلى أساتيد كربلاء المقدسة الدراسات

الأولية والعالية والعليا، واختصّ بعد والده طاب ثراه بالحجة الشيخ يوسف الحائري، حتى لمع نجمه في الوسط العلمي، وهو في عنفوان شبابه، وبذلك اشتهر - منذ عهد مبكر - شهرة مستفيضة في العالم الإسلامي.

والسيد الشيرازي قدس سرّه داعية إسلامي كبير، ومرجع ديني معروف، وظاهرة فريدة في البحث والتأليف والنشر، وضرب به المثل في الصبر والمعاناة على ذلك. ولم يكن هذا المقام الذي احتله السيد الشيرازي اعتباطياً أو فجائياً، فالرجل في نشأته المباركة وراء هذه الأهمية الخاصة، فقد كان كثير الصلات بالناخ العلمي، وقد عاصر طائفة من العلماء الربانيين، وهو على ارتباط مباشر بثقافة العصر، فعاد بذلك مثقفاً عصرياً متحضراً.

يضاف إلى هذا كله أن السيد الشيرازي قد ورث مجدداً رفيعاً من أبيه العظيم، وكان زعيم كربلاء المطلق، فاتجه نحو المعالي في الفكر والمنهج والمسيرة لا عن كلاله وقد نشأ السيد الشيرازي قدس سره في مجبوحه من الشرف الشامخ، متمتعاً بالخلق الرفيع، ومدرباً بالعلم الناضج، ومنفتحاً على كل جديد في الحضارة الإنسانية. لم يقف عند علم الفقه وعلم الأصول وعلم الدراية، وقد جعل القرآن الكريم إمامه فهده الصراط المستقيم، وانصهر بالعلوم والفنون الأخرى في الاجتماع والسياسة والتربية والقانون والتعليم وعلم النفس، وأطاريح الفلسفة والمنظمات الدولية، ولوائح حقوق الإنسان.

ولم ينسَ مهمته الأساسية في نشر التشريع وإذاعة علوم الأئمة الطاهرين، فحذب على التدريس في مجته الخارج في كربلاء المقدسة فقهاً وأصولاً، فنشأ على يديه جيل من المبلغين والمرشدين وحملة العلم.

خصائص السيد الشيرازي الذاتية:

يتسامى السيد الشيرازي طاب ثراه، بخصائص متميزة ارتفعت به إلى مستوى الأبرار، فهو طلق الوجه، مبتسم الثغر، بهيج الحياء، عالي الهمة، دقيق

الفكر، حصيف الرأي، أصيل النظر، ابتعد عن صغائر الأمور، واتجه نحو القمة في الموضوعية والإبداع، وقد جلب تواضعه الجَمَّ أفئدة الناس إليه، واستولى ترسلُهُ العفوي في الحديث على قلوب الشباب وعطفهم نحوه، فامتلك بذلك الضمائر الحيَّة النابضة، وكان زهده وتقشفه قد زاد من التفاف الجماهير حول قيادته المثقفة الواعية.

ومن ملكاته الكسبية والذاتية كونه يحسن لغة العصر وفلسفة الحوار، وملكة الخطاب الجريء، وأسلوب الإقناع الفطري، يسترسل في البيان والأداء ببلاغته المعهودة فيسيطر على الموقف في الإبلاغ، ويتبسط في معالجة الموضوعات المهمة فيفهم عنه كل أحد، ويجادل بالتي هي أحسن فيقتنع بجدله من ألقى السمع وهو شهيد، ولديه من شفافية التعبير، ورشاقة الكلمة، وإشراق الديداجة ما يجلب له السماع والاستماع، ويمحور بثقافته العصرية أفكاره الحضارية فتجاوب معه نبضات القلوب وأصداء الآراء، فيثَّ ماشاء من أطاريح وتطلعات.

وإذا استمعت إلى حديث السيد الشيرازي، وهو يمزجه ببسمة رقيقة، فإنك تستمع منه إلى السحر الحلال لطفاً وعذوبة واستجابة، فهو حديث القلب إلى القلب، ونداء الضمير إلى الضمير، فلا يكاد يحدِّثك بلغته الهادئة إلاَّ امتلك عليك المشاعر والأحاسيس تلقائياً، وتلك هبة سامية من الله تعالى جذب بها قلوب الشباب اليقظ، واسترعى انتباههم، فبلغ ما يريد من التوجيه والنصح الكريم.

ولم أسمع طيلة صليتي به متناولاً لأحد بسوء قط، يحمل على الظاهر، ويجري أصالة الصحة، وهو لا يقابل أعداءه ومناوئيه بمثل مقابلتهم له، بل العفو والصفح الجميل من أبرز ملامحه في التعامل، يَكِلُ أمرهم إلى الله تعالى، ويدعهم لتأنيب الضمير، فهناك من يثلبه ثلباً لا ورع معه، وهناك من يشتمه جهاراً، وقد يشكك بعضهم باجتهاده، وقد يظعن باستقلاله الفكري، وقد ينسبه إلى ما هو بريء منه، ولكنه لا يعبأ بمثل هذه الأقاويل، فله عن ذلك شغل شاغل بتطلعاته الريادية، وليس على الهراء سبيل لديه، فهو أرفع جانباً، وأعلى كعباً، وأسمى عقلية.

بلغني أن أحدهم ممن ثلب السيد الشيرازي، كان قد أحتضير، وقد رآوه يتمل على فراش الموت، ويتأسف كثيراً، فحوب في ذلك، فأجاب أنه زور على بعض المراجع العظام فتوى كاذبة تناول السيد الشيرازي بالقدح، والمرجع لا يعلم بذلك على الاطلاق، بل كان يحبّ السيد الشيرازي حباً جماً.

عقبات في طريق القيادة:

كان السيد الشيرازي طاب ثراه قد تعرض في حياته إلى حقد الحاقدين، واستهدف من قبل نفر ضال، وكان الشطط والبهتان والتزوير من معالم الحملة الظالمة التي واجهها بقلب سليم، وشقّ غبارها بعزم ثابت وشجاعة نادرة، فكان مظلوماً من قبل هؤلاء، وكان ظلمه هذا ظلاماً فتوياً متعمداً، ولم يكن ظلاماً اجتماعياً، فقد كان يمثل الصدارة في نظر المجتمع السليم، وكان يتبوأ مقعد الدق عند جمهرة المثقفين، وكان يحظى بتأييد شعبي منقطع النظير.

حدثني سماحة الأخ العلامة الجليل الدكتور السيد محمد بحر العلوم دام علاه، قال: أهدى إلي السيد الشيرازي وأنا مقيم في لندن (١٣٢) مجلداً من موسوعته الفقهية، فبهرت لهذا العمل الضخم، واستدعيت أحد العلماء البارزين، وقلت له بالحرف الواحد: مَنْ مَنّا يستطيع أن يقوم بهذا الجهد العظيم، أليس صاحبه قد غربل الآثار، واطلع على ما في الأسفار، حتى استطاع أن يخرج بمثل هذه الحصييلة النادرة؟ اتركوا التقولات!! ودعوا الرجل يعمل بصمت!!

وكان هذا موقفاً جريئاً من السيد بحر العلوم، انتصاراً لهذا الرجل المظلوم، فلله درك أيها العبقرى الصامد، لم تلتن عوداً، ولم تحمد عزيمة، ولم تستسلم لليأس، والليل داج، والأهواء تعبت بالأراء يميناً وشمالاً، وأنت كالطود الشامخ، حتى إذا غادرنا السيد الشيرازي إلى دار الخلود الأبدى، بدأ الكثير يتأسف ويتساءل:

ما هو ذنب السيد الشيرازي؟

ولماذا احتجز السيد الشيرازي؟

ولماذا حورب السيد الشيرازي؟

وتبقى الإجابة عن هذه الأسئلة حائرة، لا يوح بحقيقتها إلا القلائل، ولا عار على القلة النادرة، فهو لهم شرف عظيم، وقد نطق القرآن بذلك، فقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾.

ولم تؤثر الريح السوداء العاتية التي أثرت من هنا وهناك على مسيرة السيد الشيرازي الرسالية، وإنما شقها ألق الجبين مكللاً بالنصر، فقد تلاشت وتساقطت تساقط ورق الشجر في فصل الخريفين وبدا الحق واضحاً للعيان، وندم من افترى عليه، ووضع العراقيل بإزائه، إذ كان المترجم له كالجبل الأشم، وكان رحيب الصدر، لم يحقد طرفه عين أبداً على ذلك النفر الضال ممن بهته وافترى عليه، وربما دعا لهم بالهداية والاستقامة، وآثر الصمت والسكوت عن تلك التجاوزات، ولكن المؤسف له حقاً أن السيد الشيرازي، وإنما حورب باعتباره مرجعاً، فكان الاعتداء عليه اعتداءً على المنصب. والاعتداء على المنصب -أمس واليوم وغداً- يشكّل ظاهرة مخزية، تورّد من تولى كبرها موارد الهلاك.

لكن مضت السنين عجافاً في حياة السيد الشيرازي قدس سره، فشأنه بذلك شأن القادة الأفاضل الذين لا يريدون بما قدّموه للأجيال جزاءً ولا شكوراً، علماً بأن هذه السنين قد مضت -أيضاً- غنيّةً بآثاره الخالدة، وثريةً بأعماله الجبارة، فقد استطاع بين حسد الحاسدين، وكيد الحاقدين، وأبواق الهذر والثرثرة التي مارس طقوسها وأجواءها أعداؤه والتافهون، استطاع أن يبني مجدداً مؤثلاً من المعارف السائرة، وأن يضرب مثلاً رائعاً من التسامح الديني، وأن

يصح رمزاً من رموز هذه الأمة في التضحية والجهاد، وأن يظل صامداً كالجبل الأشم أمام العواصف.

وسيجمع الله بينه وبين من أساء إليه من هنا أو هناك، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.

كانت الهموم تتوالى على الرجل، وكان الاضطهاد السياسي ملازماً له ملازمة الظل للشاخص، إلا أن الآلام تعصر قلبه عصراً، والآمال الرسالية لم تتحقق لديه كما أراد؛ حتى فاضت نفسه الطاهرة، ووفد على ربّه الكريم، يضاف إلى هذا كله أنه كان كثير الحنين إلى كربلاء المقدسة معقله المرجعي.

الخطوات الحضارية في مرجعية السيد الشيرازي:

كان الفقيه السيد الشيرازي أعلى الله مقامه، سباقاً إلى تطلعات العصر في القرن العشرين، مستوعباً للأبعاد الحضارية التي ينبغي أن يؤسس عليها الكيان المرجعي، متميزاً في استقراء المشكلات الاجتماعية التي تعاني منها الأمة، باحثاً في أنجع السبل لاحتواء هذه الظواهر في معالجات ضخمة شاخصه، كان لها الأثر الفاعل في درء الأزمات، كما عاد لها الأثر الإيجابي في أداء الرسالة، والحديث في الجانب مثلبٌ متّسع، ولكنني أحاول إيجازه على سبيل النموذج في نقاط أساسية:

١- القيادة الناجحة لجماهير كربلاء المؤمنة، وبقية قصبات العراق، والبلدان المجاورة، بحيث شكل ذلك ظاهرة موضوعية، نّهت القيادات الشابّة في العراق إلى تمثّل الخطوات الرائدة التي يتخذها السيد الشيرازي في استقطاب المواهب المتحفزة، واستكناه هوم الشباب في توقعاتهم المشروعة.

٢- التفاعل الهادف المتكافل مع المشاعر المتدفقة والأحاسيس النائرة لدى الجماعات الواعية، وتوجيهها ميدانياً للعمل المثمر في حقول المعرفة والثقافة والمشاريع الإنسانية، وإيثار المصلحة العامة على المكاسب الذاتية.

٣- إعداد عشرات المبلغين الرساليين من حَمَلَة الفكر الإسلامي للقيام بدورهم البناء في أداء الرسالة، ونشر المبادئ العليا، وإبلاغ الموروث الحضاري الصادر عن أئمة أهل البيت للأمة، وذلك بشتى الوسائل والطرق السليمة التي تتيحها مراحل التبليغ.

٤- تهيئة الكادر العلمي المتطور ممن يتمتعون بالتأهيل الثقافي، ومن السذين لهم الصلاحية الفكرية والتربوية للقيام بأعباء المسؤولية الشرعية روحاً وعملاً، لجلب أكبر عدد ممكن إلى حضيرة الإسلام والتي هي أحسن، والقيام بشؤونهم المالية، وتحسين الحالة الاقتصادية.

٥- الإشراف على المنبر الحسيني يجعله أداة حيّة مشرقة لبث تعليمات أهل البيت (عليهم السلام)، ونشر علمهم الآلهي الزاخر، وبيان مظلوميتهم في عزهم عن قيادة الأمة سياسياً، وإبداء ما جرى عليهم من نكبات وصدّات واستئصال وتصفية جسدية لهم ولأوليائهم من السائرين على خطّهم، بما يضمن طرح المبادئ العليا على الصعيد الفكري والإعلامي، والتي ناضل الأئمة المعصومون (عليهم السلام) من أجل إقرارها بأصالة وإخلاص لسعادة الكائن البشري في الدنيا والآخرة، وطرح تلك المبادئ سليمة عن الزيغ والانحراف والتطرّف.

٦- العناية التامة بعنصر الشباب باعتبارهم يتفجّرون -عادةً- بالنشاط والحيوية والفتوة، بتلقينهم دروساً إضافية في العلم والمعرفة والصبر والثبات والتضحية والإصرار نابعة من صميم نظريات أهل البيت وقيمهم العليا، والحفاظ على ذلك باعتباره ذخيرة خالدة من أنفس ذخائر الفكر الإنساني المتنوّر.

٧- إفشاء الدوريات والمجلات والنشرات والرسائل الصغيرة، بما يتناسب مع الفهم العام لجماهير المؤمنين بعبارة مشرقة، وأسلوب سهل ممتنع، بعيدة عن العمق الفلسفي الذي ترفضه طبيعة التعليم الأولي في ترسيخ المبادئ العامة للإسلام بعرض جيد وأسلوب جديد.

٨- تشكيل اللجان المتخصصة الواعية، من قادة الفكر، ورجال النظر، وأصحاب الخبرة والتجربة، لتنشيط عملية التوعية والإرشاد والتبليغ في ضوء المعطيات التي توفّي أكلها كلّ حين، بعيداً عن الصراع المذهبي والطائفي والإقليمي، للإرتفاع بمستوى الأمة لدرجة المسؤولية.

٩- تأمين الكوادر المالية المتبرعة والواهبه، وعن طريق الحقوق الشرعية، لإدارة المشاريع السابقة بكل أمانة، بعيداً عن الأثرة والتسلط واحتجان المال، وجعل ذلك وسيلة للهدف المركزي في تسريع عملية الإنقاذ والتطوير كما هو شأن الدعاة المصلحين بكل زمان ومكان.

١٠- تحديد مسؤولية العاملين بهذه الآفاق المتعددة، ليكون كلّ عند واجبه وجهاً لوجه، من أجل إنجاح الأطاريح المترتبة الأداء لدى كل فريق منهم، وتنمية الروح الرياضية في طيّاتها، وخلق المناخ التكاملي الذي يسدّد بعضه بعضاً بموضوعية مطلقة لا مكان فيها للأهواء أو الآراء الكيفية، وحصر النشاط جميعه في إطار الصالح العام.

الظواهر الثقافية في مرجعية السيد الشيرازي:

وإذ يتمثل ما قدمناه من خطوات حضارية في مرجعية السيد الشيرازي قدس سره، تبرز لنا ظواهر موضوعية أخرى تعنى بالثقافة الإسلامية نتيجة لتلك الأصول الثابتة في التأسيس، وهيظواهر متعددة، أشير بالبحث فيها إلى أربع ظواهر:

الظاهرة الأولى:

كان المناخ السائد في العراق أديباً يؤكد سيادة الشعر العربي من دون النشر، وذلك أن بيئة العراق بعامة بيئة شعرية، وكانت النجف الأشرف وكربلاء المقدسة وبغداد، قد أبرزت مشاهير الشعراء في الوطن العربي، وكانت المهرجانات التاريخية والاحتفالات الجماهيرية، ومحافل المنبر الحسيني الشريف تبرز هذه الظاهرة بأجلى صورها، وتلك حقيقة ثابتة يدلّ عليها الاستقراء، وكان الميل إلى الكتابة

والنثر متضائلاً إلا في حدود الإعلام والصحافة، وهو أقل ممارسة بكثير بالنسبة إلى الشعر في شتى أغراضه نظماً وحفظاً وتدويناً وإذاعةً، حتى إذا اتسعت الظروف لاحتضان مشكلات العصر، وتلاقحت الثقافة المصرية واللبنانية نثراً بالثقافة العراقية، بدأت الحاجة إلى الكتابة والتأليف والمقالة والقصة حاجة ماسة وملحة، وهنا نجد توجه السيد الشيرازي قدس سره في كربلاء متجاوباً مع هذه الظاهرة، وذلك بتبني الأفكار الجديدة الداعية إلى خوض ميادين التأليف والنشر مضافاً إلى ماهو شائع من ذبوع أمر الشعر، فأسس في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين سلسلة أسماها: «منابع الثقافة الإسلامية» لتزود المكتبة العربية بكتاب متوسط الحجم في مطلع كل شهر، واستمر هذا الانتاج الجديد عشر سنوات متوالية، فتلاقفته الأيدي بإقبال وحماس شديدين، مما أوجد حالة دعائية وتنقيفية في مجالات الإسلام الإعلامية والسياسية والاقتصادية والتاريخية والتربوية وسوى ذلك.

هذا المشروع الضخم كان بداية حضارية في رؤية معاصرة، لم يسبق إليها في العراق بهذا الشكل مما دعا الشباب المسلم المثقف إلى الالتفاف حوله، والإفادة من أطاريحه الواعية، وما إن ثبت هذا المشروع على قاعدة صلبة من التصميم حتى رأينا جيلاً ناهضاً يتدافع كالسيل للمشاركة فياً وأكاديمياً وتحريراً في هذا الاتجاه، مما يعني أن المترجم له كان حجر الأساس في إشاعة فن النثر وعالم التأليف في العراق.

وكان لي شرف المساهمة بهذا المشروع بإصرار كبير من السيد الشيرازي نفسه، فألفت للسلسلة كتاباً بعنوان «إنسانية الدعوة الإسلامية» في حدود (١٠٠) صفحة، وما لبث أن نفذ من الأسواق بسرعة مذهلة، وطبع طبعة ثانية.

الظاهرة الثانية:

نتيجة للحملات الظالمة التي شنت بضراوة ضد المبادئ الإسلامية، لم يجد السيد الشيرازي قدس سره، أن سلسلة «منابع الثقافة الإسلامية» كافية لصد

هجمات أعداء الإسلام، فانبرى هو وأخوه الشهيد السعيد المجاهد السيد حسن الشيرازي إلى تكريس جهودهما في النشر والتأليف في شتى الفنون المعرفية المنبثقة عن الإسلام، لإشاعة الطرح الإسلامي في احتواء قضايا العصر، وصيانة شباب الأمة من الانحراف والانزلاق، إن لم أقل المئات في الدعوة، والدعاة، والتبليغ، والسياسة والترية، والاجتماع، والاقتصاد الإسلامي، وشؤون الدولة، والإدارة، والحقوق، والقانون، والفقه، على شكل كراسات ونشرات وكتب ومؤلفات، أتمكن أن أقول جازماً بأنها قد أغرقت الأسواق والمكتبات بتراث غرض جديد، وبعرض جديد، وهو ما أتاح للشباب المثقف الاندماج الكلي في هذا الخط التبليغي الرائد، فصدرت بعده للمؤلفين العراقيين كتب قيمة تصب في هذا الرافد، ومعنى ذلك أن السيد الشيرازي له فضل السبق في إرساء حركة التأليف والنشر بأهداف رائدة في العراق بالتوجه الكتابي والتدويني مضافاً إلى الشعر المسيطر.

الظاهرة الثالثة:

ورأى السيد الشيرازي بفطرته الثاقبة أن الحياة متطورة تطوراً سريعاً بما يستجد على الساحة من اكتشافات وابتكارات علمية من جهة، وأن حركة غير اعتيادية من الإقبال على الموروث الإسلامي، فعمد إلى تأسيس مشروع «أجوبة المسائل الدينية» وهي تتولى الإجابة عن الأطاريح الجديدة، وتمحض لنشر الإستفتاءات الشرعية برعايته وعنايته، فكانت هذه النشرة أو المجلة أو الدورية تؤدي دوراً رسالياً في تلبية حاجة المجتمع الإسلامي في الوصول إلى حقائق الأشياء.

وقد صدرت بانتظام طيلة عدة سنوات حافلة بالنشاط المعرفي في أجزاء متتابعة، كان لها الأثر الفاعل في إغناء نفوس الشباب العراقي باللباب من المعارف الإسلامية مهدوء من دون ضجة، وبعمل جاد دون ثرثرة.

الظاهرة الرابعة:

وهي تستوعبي نشاط السيد الشيرازي في الستينيات من القرن العشرين، وتمثل في ثلاثة معالم بارزة، كرس لها جهوده البالغة:

١- إقامة الاحتفالات العامة ورعايتها في المهرجانات الدينية والمواسم الإسلامية، وتفجير الطاقات المبدعة، وإحياء شعائر الله، والتأكيد على المحزون الحضاري الذي نهض به أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، وذلك بإثارة وإلقاء ما هو أصيل ومبتكر فيها شعراً ونثراً وخطاباً.

٢- التركيز الموضوعي على تأسيس المساجد العامرة، وتشيد الحسينيات ودور العبادة، وتأمين صناديق الاقتراض اللاربوي، وبناء الميتم في كثير من أقاليم البلاد الإسلامية، والتأكيد على إشراك العنصر النسوي في المجالات الحيوية من هذه المشاريع، وانخراط هذا العنصر في الحوزة والتبليغ.

٣- الاحتراف باللقاءات العامة والخاصة بالعلماء والمفكرين، والقادة السياسيين، والشباب العامل، لإحياء أمر أهل البيت (عليهم السلام) بالحكمة والموعظة الحسنة، وإرفاد هذه اللقاءات بسديد الرأي، وصريح القول، وحسن التأني، وسلامة المدخل والمخرج، من دون تسلط فتوي، أو حسّ أجنبي، أو نعة مذهبية.

هذه المؤشرات في هذه الظاهرة أخذت بالنمو والإزهار لحمل الرسالة من رحاب كربلاء المقدسة، وفيها ألق من ثورة الإمام الحسين (عليه السلام)، ونفحة من أريج الطف.

ورغم مرور ما يقارب من نصف قرن من الزمان على هذه المبادرات الواعية، فإن كربلاء مازالت وإلى اليوم مدينة للسيد الشيرازي بتأصيل هذه الظواهر في المجتمع الكربلائي.

النضال السياسي للسيد الشيرازي:

قامت ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ ففضت على النظام الملكي في العراق، وخال الشعب أنه قد تنفس الصعداء، وأصبح سيد الموقف في تقرير المصير وتسيير دفة الحكم، إلا أن رجال الثورة خيَّبوا الآمال إذ كانوا منقسمين على أنفسهم، تتقاذف بهم الاتجاهات المضادة، وانطبت هذه الانقسامات على الشعب نفسه، فجم عن ذلك شرخ كبير في الحياة السياسية، وبدأت المؤشرات المؤسفة تلوح في الأفق، واستشرت الدعوة إلى الشيوعية والقومية والديمقراطية، في ضجيج لأول له ولا آخر، وبرزت الشيوعية بمساندة بعض رجال الحكم قوة ضاربة، يدعمها تهريج الإذاعة والتلفزيون، وتروّج لها الصحف والجرائد والمجلات، فأغرقوا الشارع العراقي بالمسيرات الضخمة، وواجهت الوزارات والمؤسسات والسلطات العامة بالشعارات البراقة، وانخدع البسطاء بهذه الظواهر الكاذبة، وبدأوا بتصفية أعدائهم قتلاً ونهباً واعتداء، وسلكوا لذلك إطلاق الإشاعات، وافتعال ذكر المؤامرات، فكثرت القتل، وتفشّت الإعدام، وخنقت الأنفاس، فانقلبت حياة الشعب العراقي إلى جحيم، وتمخضت الأحداث عن شر مستطير، وهنا أشير إلى بعض المظاهر المهمة على شكل نقاط:

١- وقف علماء النجف الأشرف وكربلاء المقدسة والكاظمية المشرفة موقفاً صلباً موحداً بوجه التيارات الوافدة والرياح الغربية التي عصفت من هناك وهناك، بينما كانت الدعوة إلى الإسلام لم تبلور معالمها، ولم يتضح منهجها، ولكنها تحركت بشكل أولي بتأسيس جماعة العلماء النجفي ورفاقه الأعلام من قادة الفكر. وقامت الحركة الإسلامية في كربلاء بقيادة السيد مهدي الحسيني الشيرازي وإدارة ولديه السيد محمد الشيرازي والسيد حسن الشيرازي وأتباعهم الأحرار، وكان التفاف الكربلايين حولهم منقطع النظر، وتأثيرها في الساحة تأثيراً بعيد المعطيات، وبدأت مجاهمة الفكر بالفكر، والمبدأ بالمبدأ، والنظرية بالنظرية، خطابةً

ومحاجة ودعاية ونشراً، وتحشداً وتجمعاً وتآزراً كالبيان المرصوص، فكانت كربلاء بذلك سبّاقة على الجهاد الديني والنضال السياسي.

٢- وأقيم مهرجان كربلاء العالمي بذكرى ميلاد أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام) في ١٣/ رجب/ ١٣٧٩ هـ = ١٩٥٩ م وبرعاية العلمين البارزين السيد محسن الطباطبائي الحكيم والسيد مهدي الشيرازي، وبحضورهما الشريف، وقصد المهرجان ممثلوا العراق من أقصاه إلى أذناه، واشترك أديباً فيه أعلام الفكر، وقادة الأدب، وأفذاذ الشعراء، ورجال الوطنية، وكان روعة في التنظيم والمواد والمقررات الأدبية، وجوهت المبادئ الهدامة بكل إصرار، وبرزت بدايات الدعوات العلنية والجماهيرية إلى استيحاء المحزون الثقافي الهائل الذي يدّخره الإسلام لأبنائه، ويرفعه القرآن مناراً للمسلمين، وكانت المجاهدة على أشدها، والحرب قائمة على قدم وساق بين دعاة الإسلام ودعاة الإلحاد والتبعية.

وكان لثبات الكربلايين وصمودهم سبقه المجلي في انتصار الجبهة الإسلامية الرافضة لكل ضروب الانحراف والضلال والفوضى.

٣- وانتقل الإمام السيد مهدي الحسيني الشيرازي إلى الرفيق الأعلى عام ١٩٦٠ م، فحمل راية النضال الديني والسياسية في كربلاء المقدسة أبناءؤه الأبرار: السيد محمد الشيرازي، والسيد حسن الشيرازي، والسيد صادق الشيرازي، وكوكبة مناضلة من رجال العلم والفكر والإصلاح، وقد أظهروا من البسالة والمقاومة ما شهد به تاريخ العراق المعاصر، ودوّن بأحرق من نور توجت أعمال المجاهدين الحقيقيين بأكاليل النصر المبين، وكان قائد ذلك السيد محمد الشيرازي، وهو في عنفوان شبابه المبارك، وهذه حقيقة ثابتة.

٤- وانتهى حكم عبد الكريم قاسم في ٨/ شباط/ ١٩٦٣ م، واستمر المهرجان العالمي بانعقاده سنوياً، وكان لي وللسيد حسن الشيرازي شرف المشاركة فيه من البداية حتى عام ١٩٦٨ م.

وفي عهد حزب البعث ١٩٦٣م وما رافقه من العنف الثوري، استنكر السيد الشيرازي قدس سره، الإسراف في سفك الدماء، والفوضى في هتك الأعراس، ومخالفة القانون في كل جزئياته، وامتلاء السجون بالمعتقلين السياسيين.

٥- وغدر عبد السلام عارف بحزب البعث الذي جاء به إلى رئاسة الجمهورية، ليعلمها طائفية بغضه سوّدت تاريخ العراق الحديث بحكم فاشي عنصري سخيف، ودكتاتورية مطلقة، مما مهد الطريق إلى الطغاة من بعده إلى سلوك المنهج نفسه.

واستنكر السيد الشيرازي كل أصناف التركة بين المسلمين، ومظاهر النظام المذهبي المشين، والأعمال الإرتجالية، والخطوات الهزيلة، والقرارات الاشتراكية المزعومة، وكان الميدان لذلك شتى المجالات المتوافرة في الاحتفالات والندوات والاجتماعات والنشر والتأليف، وبالبيانات الشاجبة لعوامل التخلف والجمود في النظام العارفي.

٦- وفي عهد أخيه الفريق الركن عبد الرحمن عارف، اجتمع السيد الشيرازي برئيس الوزراء عبد الرحمن البزاز وجملة من وزرائه في داره بكربلاء، ونعى عليهم سياسة التمييز الطائفي، وأسدى لهم النصح والإرشاد ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ووعد الدكتور البزاز خيراً، ولكن لأمر لمن لا يطاع، فالعصاة الطائفية كانت تسيّر الأمور رغم الزعماء والقادة، بل رغم رئيس الجمهورية المسلم.

٧- وقام انقلاب ١٧/تموز/١٩٦٨م، فاستقبل العراق حكماً دكتاتورياً همجياً، أنسى عهود الطغاة السابقين من عصر فرعون وغمروود والعماليق والقيصرة وجابرة العالم، والتتار والمغول والطواغيت الكبار فيما أدركنا من أيامهم كستالين وهتلر وموسليني وأضراهم حتى يومنا هذا. فكان لايتورع عن

الاغتيال السياسي بشق الأساليب، ولايالي بالاقحام بالحاسوسية والعمالة لأشراف العراقيين والوطنيين بخاصة، أما سفك الدماء، وقتل الأبرياء، والتعذيب الوحشي غير المتصور في السجون وأقبية الأمن، وخرق القوانين والأعراف، فحدّث عن ذلك ولاحرج، وعمد إلى مخالفة لوائح حقوق الإنسان في أبسط المظاهر إلى أكبرها، وأباح الأعراض والأموال والأنفس والممتلكات، وفعل الأفاعيل التي يندى لها جبين الإنسانية مما لا تتسع له ملايين الصفحات التاريخية، وخاصة في المشاهد المشرّقة والعتبات المقدسة، وسلط الهمج الرعاع والبداة الغلاظ من رجال الأمن والمخابرات والاستخبارات وقوى الأمن الخاص على الشعب العراقي، فعاثت في الأرض فساداً، وأي فساد.

٨- وأراد الحكم الطاغوي الاحتكاك بالسيد الشيرازي، فعمد إلى اعتقال أخيه السيد حسن الشيرازي، وقذف به في السجن مع رجال الحكم العارفي أكثر من سنة كابد بها صنوف الهوان والتعذيب، وأوقف بين يدي ميشيل عفلق مؤسس حزب البعث، فأثبه على شعره في هجائه، وقد أشار إلى اعتقاله العميد الركن عبد الكريم فرحان وزير الإعلام العراقي في مذكراته المطبوعة.

لقد أحدث اعتقال السيد حسن الشيرازي ضجة في الوسط العراقي، لما له من شعبية ومزلة في النفوس، وقد أحدث ذلك هوة بين الشعب والدولة، وتوسط له بعض ذوي الشأن، فأطلق سراحه بعد اللتيا والتي، وغادر العراق إلى بيروت، وأخذ يعمل للقضية العراقية، وللتبشير بمبادئ الإسلام، وتصحیح أفكار جملة من التائهين في غمار التضليل.

وهناك قام بتأسيس الحوزة العلمية الزينية في الشام، عام ١٩٧٤م، وكان مشروعاً فريداً في حينه بما يضم في أجنحته من مكتب للسيد الشيرازي، ومسجد، وحسينية، ومكتبة فخمة، وحوزة للنساء، ومشاريع أخرى، وبعد أن رأى العارفون فيه داعية لمبدأ أهل البيت (عليهم السلام)، بحكمة، وأناة، ووقار، حتى

اهتدى بنور هديه الآلاف، وسار على الصراط المستقيم طوائف من الناس، إلا أن أجهزة النظام الصدامي لاحقته وتابعت، فاغتالته في بيروت في هجوم مسلح عام ١٩٨٣م فانطفأت بذلك شعلة من النضال الديني، لم تزل آثارها باقية إلى اليوم.

لقد كان السيد حسن الشيرازي ساعداً مشتماً في مرجعية أخيه قدس سرهما، حذب على العمل الدؤوب قولاً وفعلاً وتوجيهاً وتنظيماً، حتى امتد ذلك إلى بعض ضباط الجيش العراقي، فدفع بهم إلى العمل العسكري للإطاحة بالنظام الطاغوتي في العراق، وتنبه الحاكمون لخطره، فأردوه قتيلاً متشحطاً بدمه في سبيل الله ومبادئ الإنسان، وانطوت تلك الصفحة المشرقة، لتنشر يوم الحساب، وكان ذلك في بيروت بعد أن سددت له ثماني وعشرون اطلاقاً رصاص، وشيع في لبنان، ودفن عند ضريح السيدة الطاهرة فاطمة بنت موسى بن جعفر.

هجرة السيد الشيرازي إلى الكويت:

واشتدت حملات النظام ضد الشعب العراقي في ظل حكم عسكري فوضوي رهيب، وبأساليب إجرامية يعجز الفكر الإنساني عن تصورها، ورأى السيد الشيرازي قدس سره أنه لا يستطيع القيام بأي لون من النشاط الإسلامي أو الإصلاحي أو المعرفي، وقد حصيت عليه الأنفاس، وضبطت كل تحركاته أولاً بأول، وضويق مضايقة شديدة كبقية المراجع العظام، فقرر الهجرة إلى الكويت في أواخر عام ١٩٦٩م، بعد أن بذل كل جهد ممكن في مكافحة الغي والضلال والنفاق.

حتى إذا حلّ في الكويت، وقد استقبل استقبالاً شعبياً حافلاً، بدأت مشاريعه الكبرى بالتنفيذ، وعمل منخططاً إصلاحياً وإعلامياً وعلمياً بكل أمانة وإخلاص، فأسس حوزة علمية، وشيّد مساجد وحسينيات، وأقام مدارس

ومياتم، وسيّر خدمات وميرآت، بما تشهد له بها الساحة الكويتية، واستقطب جماهير الناس هاك، وأدار دفة الأمور بنفسه من الكويت وسط تأييد شعبي كبير في العالم الإسلامي.

وقد زرتة في الكويت عام ١٩٧٠م زيارة خاصة، كنت فيها موضع ترحيبه وتقديره، وردّعلي الزيارة مع جمع من أوليائه وحوزته العلمية، وكنت ضيفاً على آل الدرويش في السالمية من الكويت.

ولدى عودتي إلى العراق رجّحت لوالدي زيارته في الكويت تأييداً له، واعتزازاً بشخصيته المحبوبة، فقام الوالد بزيارته هناك، فأكبر السيد الشيرازي ذلك، وقدّره تقديراً كبيراً، كما أني ألزمت أكثر العراقيين المسافرين إلى الكويت أن يلتمسوا مقابلة السيد الشيرازي ويتبركوا بلقائه، وقد استجاب لذلك أغلب القاصدين إلى الكويت مع عنف الرقابة، وتسלט النظام العراقي آنذاك في الكويت.

وكانت إقامة السيد الشيرازي قدس سره في الكويت مباركةً بأدق معاني هذه الكلمة، إذ استطاع استقطاب الجماهير المؤمنة في دول الخليج، وفي المنطقة الشرقية من الحجاز، وفي شرق آسيا، مضافاً إلى أوروبا والولايات المتحدة والدول الاسكندنافية.

وكان من أبرز جهوده -وهو في الكويت- تأسيس مكتبة في دمشق الشام على يد أخيه الشهيد السعيد السيد حسن الشيرازي وذلك عام ١٩٧٤م في جوار السيدة زينب ابنة أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام)، وكان هذا المشروع من أكبر المشاريع نفعاً واستثماراً وعائدية، ففيه حوزة علمية اعتنت بالدراسات الأولية، وعكفت على الدراسات العليا، وقد اشتملت الحوزة على طلاب وأساتذة عرب وإيرانيين وأفغانيين، وأغلب دراستهم الأولى في النجف الأشرف، وفيه حوزة للنساء فيما ينبغي تعلمه من أصول السدين وفروع،،

والأحكام والتبليغ وشؤون الأسرة، ويضم مسجداً فارهاً كبيراً، وحسينية مباركة، ومكتبة ثقافية متطورة، وفروع مختلفة.

ومن أهم توجهاته العناية الخاصة بجبل العلويين، وأماكن تواجدهم، والأخذ بأيديهم نحو الطريق الأقوم في موالاته أهل البيت، والسير في ضوء تعليماتهم العليا من دون المغالاة المنتشرة من دون أساس، وقد أنقذ المشروع مئات الآلاف، ووضع أقدامهم على الجادة، وزوّدهم بالكتب والمجلات والمنشورات التي طورهم فكرياً وثقافياً وعقائدياً بما سيكتبه التاريخ مرفوع الجبين.

ومن دمشق الشام وراكب هُضة الإصلاح الاجتماعي، وامتدّ بها نحو لبنان وإفريقيا بتخطيط شامل اتسع لأغلب بقاع العالم في المبعوثين والمبلغين والرساليين، وهم يحملون الفكر الواعي في نشرات وكتب ومؤلفات صغيرة الحجم عميمة الفائدة، وفي أكثر من موطن ترجمته إلى لغات عالمية حيّة، وأغلبها من تأليف السيد المترجم له.

وفي الكويت حيث ديوانه الرسمي، كان موضع عناية الشعب والدولة طيلة عشر سنوات حافلة بالنضال العلمي والتوجيه الفكري، والمشاريع البناءة، والحبّ والمودة والامتزاج.

هجرة السيد الشيرازي إلى قم المقدسة:

حتى إذا قامت الثورة الإسلامية في إيران في شباط/١٩٧٩م هاجر السيد الشيرازي قدس سره إلى قم المقدسة، واتخذ له مكتباً وحوزة وموقعاً متميزاً، وكات على صلة ممتازة مع السيد الخميني طاب ثراه، وهو قائد الثورة في مراحلها كافة حتى وفاته، وكان السيد الشيرازي من مؤيدي الثورة في أبعادها الجذرية، وقد أسهم في إنجاحها والدعوة لها في ميادين شتى، إلا أن لديه جملة من الاعتراضات الموضوعية على جملة من الأطاريح السياسية في المنهج

والأسلوب، فاعتبر في عداد المعارضة أو المقاومة لفكر الثورة وبعض رجالها، وقد تعرض من جراء ذلك أبناؤه وأخوانه ومريده إلى ضغوط كثيرة، كان من بينها الاعتقال والمطاردة والتعذيب، فما لان عزمه في إبداء الرأي الصريح، ففرضت عليه الإقامة الجبرية في منزله طيلة عشرين عاماً من الزمان حتى وفاته.

وفي أواخر رجب من عام ١٤٢٢هـ زرت قم المقدسة في طريقي إلى زيارة الإمام علي بن موسى الرضا عليهما السلام، وما أن سمع السيد الشيرازي بوصولي إلى قم حتى أوفد أخاه العلم المجاهد المرجع الديني السيد صادق الشيرازي دام ظله، وكوكبة من أبنائه المجاهدين وفي طليعتهم ولده السيد جعفر وأخوته وجماعة من أهل الفضل، لزيارتي في محل إقامتي بالمجمع السكني للسيد السيستاني دام ظله الشريف. وأبلغني السيد صادق عن السيد الشيرازي قوله: أنه ممنوع من الخروج من داره طيلة عشرين عاماً، ولو سمح له بالخروج لكان في زيارتي، وكان هذا العرض يمثل جانباً من الإخاء الصادق والوفاء المحض، وهو دليل الاحترام المتبادل بين المتأخين في ذات الله، قلتُ في الجواب: حينما دعاني سماحة الأخ السيد جواد الشهرستاني لزيارة الإمام الرضا أرواحنا فداه، اشترطت عليه زيارة السيد محمد الشيرازي في مقر إقامة الجبرية، مهما كانت الظروف، فقال: إن الدولة لاتمانع من زيارة أحد للسيد الشيرازي لاسيما من هم أمثالكم ومن طبقتكم، فهي تعلم جيداً مدى الصلوات والوشائج بينكم وبين السيد الشيرازي.

وفي ٢/شعبان/١٤٢٢هـ زرت السيد الشيرازي في داره العامرة بالعلم والإيمان وولاء أهل البيت (عليهم السلام)، فتلقاني السيد قدس الله روحه بالترحاب، واعتنقني واعتنقته بحرارة صادقة، وكانت لحظات من عواطف جياشة، وذكريات شجية اهلت فيهما بالدموع، وخفقت لهما القلوب، وقد استمر اللقاء ساعتين، وكان لقاءً تاريخياً حافلاً بكثير من التطلع إلى المستقبل، وإلقاء الضوء على كبريات الشؤون الإسلامية، وبحث التسلط الهمجي للطاغية صدام

حسين على العراق، وكان السيد الشيرازي قدس سره متفائلاً برحيل النظام إلى غير رجعة، حتى قال بالحرف الواحد سيكون لقاؤنا الثاني -إن شاء الله- في كربلاء المقدسة بعد القضاء على صدام. أما أنا فلم أكن متفائلاً بصحته، فقد بدا عليه الإهناك ولاح على وجهه الشريف الاحمرار مع الشحوب، وربما يفسّر ذلك طبيياً بارتفاع نسبة «اليوريو» في الدم، ولم يكن قلبه صحيحاً في استقرار وانتظام، بل كان كالمناخ المحيط به في اضطراب.

أحيطت هذه الزيارة بسرّية تامّة، فالسيد الشيرازي من أقطاب المعارضة للنظام العراقي، وفي ظل توجيهه قامت «منظمة العمل الإسلامي» وهي منظمة معادية للنظام في حسابات الطاغية، وكنْتُ في رقابة صارمة من قبل المخابرات العراقية حتى أنني اعتذرت عن الموافقة على مكالمة تلفونية من الشهيد السعيد السيد محمد باقر الحكيم قدس سرّه، لئلا يكشف أمر ذلك للنظام العراقي وأجهزته المحرمة، ومعنى اكتشاف ذلك هو الحكم بالإعدام فوراً، فكيف بمقابلة السيد الشيرازي سيما وقد اعفيت من الخدمة كأستاذ أول في جامعة الكوفة بقرار من رئاسة الجمهورية.. ولكن الله ستر.

ومهما يكن من أمر فقد كان هذا آخر لقاء بصديق العمر ورفيق الجهاد السيد محمد الشيرازي!! نعم كان هنالك لقاء من نوع آخر في ٢٠٠٤/٧/٧م عند مرقد الشريف لدى ضريح السيدة الطاهرة فاطمة بنت الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) في قم المشرفة كما سترى هذا فيما بعد.

ولأريد الخوض في تفاصيل حياته في إيران، ولأريد أن أتحدث عن تأييده المطلق للثورة الإسلامية، ولأميل إلى متابعة الإفرازات السياسية التي رافقت مسيرة السيد الشيرازي بذلك، فذلك أمر كثير المزالق، موحش السرى، كبير العقبات، ولم أكن شاهداً لأحداثه، وأنا أتحدث عن الفقيه كما رأيته، وللتاريخ أبي سجل حقائق الأحداث، ولمرافقي السيد الشيرازي قدس سره في محنته أن يدوتوا شيئاً من مذكرات تلك المشاهد. نعم لي أن أقول وبصريح

العبرة أن السيد الشيرازي كان أكبر من المحنة، وأصلب من الفتنة، وأكثر تأثيراً في الشعب الإيراني ممن خططوا للحجر عليه وفرض الإقامة الجبرية، وله بذلك الأسوة بالأئمة الطاهرين لاسيما الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام):

«مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ» فِي السَّجُونِ نَزِيلاً
إِنْ قِيدُوا مِنْكَ الْإِقَامَةَ فَالْتَمَسْ

وليت شعري أيتناسى أولئك المواقف المشرفة التي وقفها السيد الشيرازي لدى اعتقال الإمام الخميني قدس سره بعد الأحداث الدامية التي وقعت في قم المقدسة وإبادة الآلاف من الحوزة العلمية والشعب الإيراني وإعلان حالة الطوارئ القصوى في إيران ٢٥/شوال/١٣٨٢هـ = ٥/حزيران/١٩٦٣م.

وقد أحيل السيد الخميني إلى المحكمة العسكرية الكبرى في طهران، ومعنى هذا أن يحكم عليه بالإعدام فوراً من قبل شاه إيران، بيد أن الدستور الإيراني يقضي بأن مرجع التقليد لا يعدم بأي حال من الأحوال، وكان السيد الخميني آنذاك من أساتذة الحوزة العلمية في قم المقدسة، وهو تلميذ مجدد الحوزة في قم آية الله الشيخ عبد الكريم الحائري من أبرز الفقهاء والأصوليين في عهدي الميرزا الشيخ محمد حسين الغروي النائيني والسيد أبي الحسن الموسوي الأصفهاني طاب ثراهما، فهما قد حفظا حوزة النجف في أحلك الظروف وأشدها حساسية، والشيخ الحائري قد حفظ حوزة قم في أخرج فترة مرت بتاريخ إيران الحديث في عهد الطاغية رضا شاه البهلوي والد الشاه المقبور.

ولم يكن الشاه محمد رضا بهلوي ليعترف باجتهاد السيد الخميني طاب ثراه، ولا بد من العمل على إثبات هذا الموضوع، وكانت المرجعية العليا - آنذاك - في النجف الأشرف قد تولّى سدتها المنيعة الإمام السيد محسن الطباطبائي الحكيم قدس سره، والمراجع العظام الآخرون، فرحل السيد محمد الشيرازي من كربلاء إلى النجف الأشرف، وقصد آية الله السيد عبد الله الشيرازي طاب ثراه، وعرض الموضوع عليه، وقال إن لم تقل النجف كلمتها

في السيد الخميني فسيعدم حتماً، فنهض معه العالم الجريء البطل السيد عبد الله الشيرازي وذهبا من فورهما إلى السيد الحكيم والسيد محمود الشاهرودي والسيد أبي القاسم الخوئي أعلى الله مقامهم جميعاً، وعرضاً هذا الموضوع الخطير عليهم، وجرت المداولات الجادة في أبعاده كافة، ولم يكن شأن مراجع النجف أن يكتبوا إلى الشاه أو أن يخاطبوه برسالة ما، فتم رأيهم أن يرقوا كلاً على حدة بقرقيات احتجاج إلى مراجع الدين في كل من قم وطهران، وهكذا كان، وقد ذكرت هذا الحدث في بحث سابق، جاء فيه ما نصه:

وحينما قامت أجهزة السافاك لنظام الشاه المقبور، بقمع حركات التحرر بقيادة الإمام الخميني قدس سره، فكانت المجازر الدموية الرهيبة لاسيما في ٢٥/شوال/١٣٨٢هـ الموافق ٥/حزيران/١٩٦٣م، والتي استشهد جراءها حوالي خمسة عشر ألف شهيد في كل من: مشهد، وقم، وطهران، وتبريز، وأصفهان، وسواها من المدن الإيرانية، وزجت بالمئات من العلماء وأفاضل الحوزة العلمية في السجون، حينذاك استنكر العلماء الأعلام في النجف هذه الحوادث، وشجبوا تصرف الشاه بذلك.

وأبرق الإمام الحكيم قدس سره إلى المراجع العظام في إيران بالبرقية الآتية:

بسم الله الرحمن الرحيم

«إن الحوادث المؤلمة المتوالية، والفجائع المخرقة التي ألتت بساحة العلماء الأعلام والجامعة الروحانية في (قم) أدمت قلوب المؤمنين والمتدينين، وأوجبت تأثرنا الشديد ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ أملني أن حضرات العلماء الأعلام بأجمعهم يترحون إلى العتبات المقدسة حتى أقولها كلمة صريحة في الدولة».

النجف الأشرف ٨/ذي القعدة/١٣٨٢هـ محسن الطباطبائي الحكيم

كما أبرق بالمعنى نفسه كل من الإمام الخوئي والإمام الشاهرودي والإمام السيد عبد الله الشيرازي والإمام السيد محمد الحسيني البغدادي. وعظمت الحوزة العلمية أعمالها في الدرس والبحث الخارج، وأسفرت الحوادث عن اعتقال الإمام الخميني وترحيله إلى تركيا، ثم قدم النجف الأشرف بعد حين»^(١).

وكان هذا الموقف الموحد من المراجع العظام قد وقع كالصاعقة على نظام الشاه، فأعاد التفكير في القرار تجاه الإمام الخميني بعد أن عبّر عنه السيد عبد الله الشيرازي طاب ثراه وسواه من الأعلام بعبارة «حضرة مرجع التقليد السيد روح الله الموسوي الخميني دامت بركاته» في رسائل أرسلت إليه في الاعتقال، ورضخ أخيراً للانصياع إلى مقررات الدستور الإيراني، فقام بتسفير الإمام الخميني قدس سره على تركيا، ثم مُنحَ حق اللجوء السياسي في العراق، فأقام في النجف الأشرف أستاذاً للبحث الخارج، وفيها طوّر نظريته في الحكم من خلال ولاية الفقيه العامة على ما هو معروف عنه.

لم تكن هذه المواقف التي أنقذت السيد الخميني من الإعدام لتبليور بهذا الزخم الهائل من الاحتجاج والنكير على الشاه إلاّ بجهود الطبقة الواعية من شباب الحوزة العلمية في النجف الأشرف، وكان السيد محمد الشيرازي طاب ثراه في طليعتهم.

وفي هذا الصدد فإنني أسجل للتاريخ تقرير سيدنا الأستاذ الإمام الخوئي قدس سره بالحرف الواحد آنذاك: «لو كان عندنا ثلاثة مثل السيد محمد الشيرازي لغزونا العالم».

وهو حديث متواتر مشهور على ألسنة الشباب الذين سمعوه، وكان الأخ الحميم العلامة السيد جواد الشهرستاني كبير وكلاء المرجعية العليا في النجف الأشرف آخر من حدثني به.

(١) محمد حسين علي الصغير / أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف / السيد محسن الطباطبائي الحكيم.. زعيماً / ١٤٢-١٤٣ / مؤسسة البلاغ / بيروت / ٢٠٠٢م.

وقد يقال أن للسيد الشيرازي طموحاً مبكراً، وسعيًا إلى الزعامة منذ شبابه، وللإجابة عن هذا التساؤل نقول: إن الطموح المشروع هو سبيل أغلب زعماء الأمة، وإلا تعطلت القيادة، وتسلمها من ليس أهلاً لها، والسيد الشيرازي أهل لذلك لعائدية تلك الزعامة في العطاء ونشر الأفكار على الأمة التي تتطلع إلى الصفوة المختارة من علماء أهل البيت (عليه السلام) لهدايتهم ليس غير.

ولقد أثبت السيد الشيرازي طاب ثراه مقدره خارقة في متابعة الأحداث والتكيف مع الزمن في عمل جاد وكفاءة عالية، ولك أن تعجب لرجل مغترب في الكويت يشيد سبعمائة مؤسسة خيرية ودينية واجتماعية في العالم ما بين مكتب لإدارة الشؤون الدينية، ومسجد لأداء الصلاة وانطلاق المقررت، وميتم للفقراء والمحرومين ممن نكبهم الدهر بآبائهم فاحتضنهم، ومكتبة عامة ترعى الجيل، ونادٍ ترفيهي مشروع، ومدرسة للبنين والبنات في أكثر من إقليم من أقاليم الدنيا وهي تلقن الأبناء مبادئ الإسلام إلى جنب التربية، ومستوصف للمرضى، ومستشفى للعلاج المجاني، وحسينية تقام بها الشعائر لاستمرارية مبدأ الأمة (عليه السلام)، وجمع ثقافي يقوم بمهام الأدب والتراث والتبليغ، وسوى ذلك من المشاريع الكبرى، ولاشئ منها يحمل اسمه إلا مكتبة لضرورة عرفانه في مهمات الإفتاء وإعانة ذوي الحاجة وتنظيم شؤون الوكلاء، فهو كما قال لي مراراً: فإني، والمجد الذي لا يفتنى هو مجد أهل البيت (عليه السلام)، فله درّه، وللخلود ذكره.

مؤلفات السيد الشيرازي:

هذا الموضوع يحتاج إلى أطروحة مستقلة أُنْدب لها طلاب كلية الفقه الموقرة في النجف الأشرف، وأحص منهم الكوكبة اللامعة من طلاب الماجستير والدكتوراه، وذلك من خلال تسجيل رسائلهم العلمية في هذا البحر الزاخر من المؤلفات التي تجاوزت الألف كتاب، ودراسة ذلك أو جزء منه فيه إعادة للحميل ونشر للتراث المتطور كماً وكيفاً.

والسيد الشيرازي منذ شبابه الأول حتى شيخوخته الفتية، وفي ستين عاماً من عمره المبارك، كان حريصاً على التأليف، مؤثراً له على سواه من الأعمال، حذباً في هذا الإيثار الكريم بأمانة وإخلاص، نظراً لعائديته الفذة في إنشاء جيل متدرع بالعلم والمعرفة الإنسانية المتنوعة، وهو بعدُ حقلٌ يتسع لأبواب شتى من بعد الأمة، وإحياء التراث، والدعوة إلى الله، والتمسك بالعقيدة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتهذيب النفوس وإشاعة الخلق الرفيع، ونشر ثقافة الإسلام، وبيان خصائص الأمة، والحفاظ على كنوزهم الخالدة من التناسي والاغفال كما هو ديدن التاريخ الرسمي.

ويمكنني مع الضغط الشديد والضوء المعمق تصنيف مؤلفات السيد الشيرازي إلى ثلاثة مجاميع رئيسية:

١- المادة التخصصية في التشريع وتشتمل على علم الحديث والسنة والفقہ والأصول، وتضم بين دفتيها مباحث الرواية والدراية وتصنيف الرواة حديثاً، وعلى مباحث العبادات جميعاً والمعاملات والعقود والإيقاعات والديّات والقصاص والمواثيق فقهاً، وعلى مباحث الألفاظ والأصول العملية أصولاً، وفيها كل ما يتصل بحياة الاجتهاد والاستنباط والنظر العقلي والتدقيق في أدلة الأحكام ومعالم البحث العالي الخارج.

ويكفي للتدليل على ما جاء من ذلك موسوعته الفقهية الضخمة التي بلغت مائة وخمسين مجلداً، وتقريراته في علم الأصول، إضافة إلى أجوبة المسائل الدينية من شتى بقاع العالم، ومستحدثات المسائل في الحضارة وعوالم الغرب في المعاملات والمستجدات، والطب، والاقتصاد، والاجتماع وعلم النفس، وأحكام الدولة.

٢- كتب الاحتجاج والمناظرات والمقالات الإسلامية في الدفاع عن ثوابت الإسلام وأصول مبدأ أهل البيت و جذوره، و حياة العقل الإنساني في الفطرة

من ينابيعها الأولى، والتعريف بحضارة التشريع نظرية وتطبيقاً، والتعريف بالإمامية بمختلف أطرها فكرياً ونظاماً وعقائداً وأصولاً ونظريات وفلسفة ونصوصاً ظاهرة، وهو بهذا يجمع إلى جنب علم الكلام بعالم الفلسفات المعاصرة من وجه، ومفاهيم البعد التنظيري من وجه آخر، ويضم إلى أدب الاحتجاج أدب المحاوراة الرائدة في ضوء قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ ولا ينسى لغة التفاهم الهادئة وهي تنبض بالحيوية والإقناع، فضلاً عن أسلوبه العجيب في النقص والردّ، فهو يورد الإشكال الواقع أو المفترض بكل جزئياته ومنظور أطرافه الأخرى الواضحة والمغلّفة، ثم ينقضّ عليها بالردّ العلمي الموزون والفكر الحديث المتنور.

وفي هذا الملحظ نجد السيد الشيرازي طاب ثراه، يقدم تخطيطاً موضوعياً شاملاً لمعالم الإيمان وظواهر العقيدة وفلسفة التشريع، وتبدو عنايته الفائقة في هذا المنحى في التأكيد على دقائق الإمامية وثوابت أهل البيت (عليهم السلام).

ولا يقف قلم السيد الشيرازي عند هذا الأفق الرحيب فحسب بل يتعداه على التنظير في العوالم والعصرنة، وشؤون الدولة، وقضايا الحرية والسلام العالمي، ومبادئ حقوق الإنسان، وتأكيد على العدل الاجتماعي وتطبيقه على الشعوب والطوائف والأقليات القومية والمذهبية.

وكتبه هذه غزيرة العطاء، عظيمة النفع والعائدية على كل المسلمين، وهي تتجاوز المائتين في تعدادها.

٣- كتب الثقافة الإسلامية: وهي مجموعة كبرى من المؤلفات الهادفة كبيرة وصغيرة ومتوسطة في الحجم، روعي في تأليفها التيسير والتبسيط ووضوح العبارة وحدثة الأسلوب، ليقبل على الاستفادة منها الشباب المتحفز والنشأ الجديد، فيها عمق الأفكار ومرونة التعبير، والسيد الشيرازي طاب ثراه في هذا المنحى يمتلك مخزوناً ثقافياً هائلاً من المفردات اللغوية خالية من التعقيد

والإبهام، فهو يتحكم في العبارة بما يسيغه الفهم المعاصر لطبقة الشباب والفتيات، وكان هذا العمل رائداً دون شك، ومفجراً لمنهاج اجتماعي فذّ يجذب على التثقيف الجماعي والفردى بأسلوب سمح لاعسر فيه ولا حرج.

وهذه المؤلفات التي تجاوز عددها خمسمائة كتاب وكرّاس، ودورية، ونشرة، وبيان، وإبلاغ، وتبليغ تعدّ أفضل ما قدمه رجلٌ روحاني عرفاني للحيل الجديد في بيان أولوية الإسلام بين المبادئ، وأوليته في التشريع، وأسبقته لإقرار حقوق الإنسان ومبادئ التحرير قبل لوائح الثورة الفرنسية ومبادئ الأمم المتحدة، بأكثر من اثني عشر قرناً، كما نشر في هذا المشروع مناهج الدين الإسلامي في التربية والأخلاق والحرية الفكرية، وبرهن بمفردات ضخمة وبإيضاح عجيب على صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان باعتباره الأطروحة السماوية التي يعضدها القرآن العظيم في تبيان كل شيء، ويرفدها الحديث النبوي بالتبيين والشرح والإضاءة، ويعززها تراث أئمة أهل البيت (عليهم السلام) بالسيرورة والبقاء الاستمرار من خلال تعليماتهم التي استمرت أكثر من مائتي عام، ويروجها العلماء في كل عصر منذ الغيبة الكبرى حتى اليوم بما يقدمونه من ملايين المؤلفات الحائدة بكل ما هو أصيل ومبتكر برعاية من صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه.

كان الالتماع الذهني لدى السيد الشيرازي طاب ثراه وراء هذا السيل المتدافع من هذه المؤلفات، وقد حرص فيها جميعاً على تيسير المعطيات المكثفة لشباب الأمة بما يناسب الفطرة النقية الخالصة من الأوشاب، وبما يلائم الفهم المتوسط لدى الجيل الجديد، لتصونه من الانحراف والتخلف والضياع، وتعصمه من الانحراف بتيار المبادئ الهدامة والأفكار المستوردة.

هذا الاتجاه كان عاملاً فاعلاً في التفاف الشباب المثقف والنشئ السواعي حول الفقيد السيد الشيرازي، وذلك لما لمس فيها من أثر بالغ في توجيه الرعاية والعطاء الفكري المنسجم مع طبيعة العصر.

وفاة السيد الشيرازي:

كنت متواجداً في منزلي في النجف الأشرف مساء اليوم الثاني من أيام عيد الفطر المبارك عام ١٤٢٢ هـ أستقبل بعض المهنيين بالعيد، فأمني أحد الأساتذة في جامعة الكوفة وهو قريب إلى نفسي، وبعد قليل من استقراء مجلسه، قال: هنالك نبأ محزن شديد عليك، أنا مضطربٌ فعلاً لإخبارك به، قلت خيراً؟ قال: أذاع راديو لندن في نشرته الإخبارية هذا المساء نبأ وفاة صديقك السيد محمد الشيرازي، فاسترجعت وتملكني من الحزن والأسى ما يعلمه الله، وتعلت عسى أن يكون الخبر كاذباً:

طوى الجزيرة حتى جاءني نبأً
 فزعتُ فيه بآمالي إلى الكذبِ
 وهرعتُ صباحاً إلى مكتب آية الله العظمى السيد السيستاني دام ظله، واستفسرت من ولده السيد محمد رضا السيستاني عن الأمر، فقال: النبأ صحيح مع الأسف، عظم الله أجرك في صديقك!! فلقد سمعته من الإذاعة الرسمية لإيران، فقابلت سماحة السيد السيستاني دام ظله، وعزيتَه وعظمتُ أجره، وكان حزينا متأثراً متأسفاً، وتذاكرنا في حياة الفقيه ومميزاته.

وكانت وفاة السيد الشيرازي صباح يوم الاثنين ٢/شوال/١٤٢٢ هـ — بجلطة قلبية، وكان آخر لقاء لي به بعد فراق أكثر من ثلاثين عاماً في ٢/شعبان/١٤٢٢ هـ فما أسرع ما طويت هذه الصفحة المشرقة بعد شهرين!!

تشيع السيد الشيرازي:

وانتشر نبأ وفاته في العالم الإسلامي انتشار النار في الحطب الجزل، وخرجت قم على بكرة أبيها لتشيع الجثمان الطاهر من داره في قم المقدسة إلى حيث مرقد السيدة المعظمة فاطمة بنت الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام)، وضاعت الشوارع الفارحة بالحشود الجماهيرية المتدافعة للتشيع، وكان قد أوصى بأن يدفنه في داره بعد تجديد العهد بالسيدة المعصومة، إلا أن الأجهزة الأمنية — قد

تناهى إلى سمعها الاحتجاج الصارخ - اختطفت الجثمان، ودفن حيث مرقدته قبلي مشهد السيدة المعصومة، قرب قبر أخيه الشهيد السعيد البطل الجريء المجاهد السيد حسن الشيرازي طاب ثراه، وما إن حطت الركاب في قم المقدسة في طريق زيارتي للإمان علي بن موسى الرضا حتى قصدت مرقدته الطاهر في ٢٠٠٤/٧/٢م، ووقفت عنده واغرورقت عيناى بالدموع، وقرأت الفاتحة وشيئاً من القرآن العظيم، وترحمت عليه كثيراً، ومرّت الذكريات حزينة باكية، وهي تتجاوز نصف قرن من الزمان، وكانت حافلة بالنضال المشترك والعمل الجادّ في سبيل إعلاء كلمة الله في الأرض، وترسيخ مبادئ الأئمة المعصومين. وجددت العهد بمكتبته في ٢٠٠٤/٧/٣م لأقدم التعازي بفقدته، وأخوه آية الله السيد صادق الحسيني الشيرازي دامت بركاته يخلفه فيه ويقوم مقامه، وحوله الناس يستقبلهم بغيره باسم ووداعته المعهودة، وهو يلبي طلباتهم، ويقضي أشغالهم، ويستمع إليهم، ويسعى في حلّ مشكلاتهم، ويجيب بأدب وهدوء عن أسئلتهم، ومن حوله أبناء الفقيه السعيد وأبناءؤه هو، وكلهم من أهل العلم والتحصيل، هنالك تذكرت قول الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء: «بيتُ فيه العلم لا يخرب» وهكذا كان.

إن هذا البيت الشريف عامرٌ مجيل من الشباب ذوي الوعي، المشتغلين بالعلم والعمل الصالح، وسيبقى كما كان في القمة الشاخنة من المجد المؤثل. وسيأتي اليوم الذي تختفي فيه مظاهر الابتزاز لكيان الأبرار والمتقين، ويعود آل الشيرازي إلى كربلاء المقدسة، مريض أمجادهم وجهادهم الديني، وتزدهر بهذ الأسرة الكريمة ربوع العراق بإذن الله تعالى.

السيد الشيرازي:

فيا أيها الليل البهيم، ويا أيها الفجر الكئيب؛ لقد مات السيد محمد الشيرازي في غربة عن بلاده، وسأظل أبكيه بدموع من دم ما ظلّ مظلوماً!! وسأبكيه بدموع من دم ما بقيت صورته مرسمة في قلبي لاتفارقه، فوالهفاه على

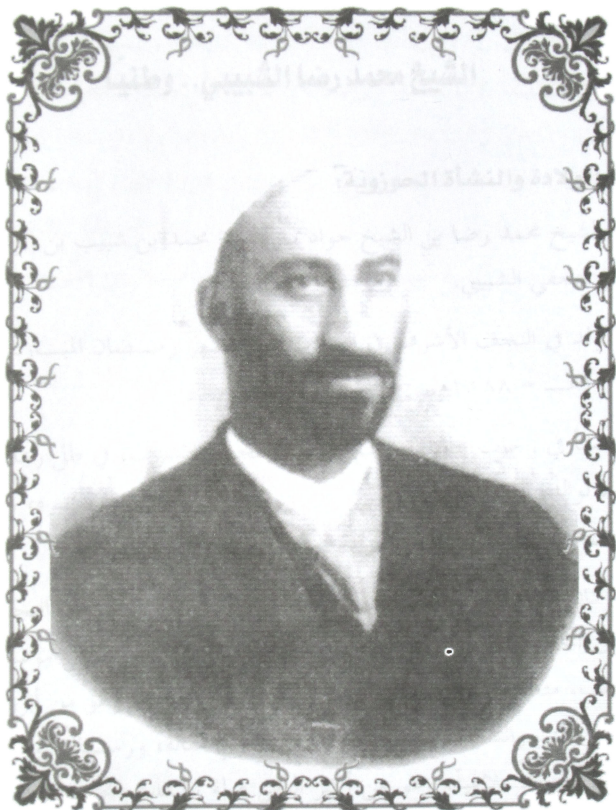
فراقه، ووأسفاه على فقده ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾. (الفجر ٢٧-٣٠).

فيا أيها النجم الساري في فلك الخلود السرمدي!! ويا أيها الشعاع الهادي إلى منهج الإسلام الخالص ومبدأ أهل البيت (عليه السلام)!! ويا أيها القلب الكسير الذي حطّم على صخرة الاعتداء الأثيم! ويا أيها الصوت المدوّي في أفق الصمت الرهيب، عشتَ سعيداً مظلوماً، ومتّ شهيداً محروماً، وستبقى مناراً للخالدين الصامدين... ولئن استعصى عليّ الشعر في رثائك وتأيينك، فقد أحرس خطبك الجلل الشعر، وقد نطق النثر بنبرات من الآهات الحزينة ولواعج من الأشجان العميقة، وهو يصوّر لمحات حياتك الحرّة الرائدة، ويصطلي بمرارة رزتك العظيم، ولم يعني هذا وذاك أن أدرسك موضوعياً، لأهزّ بك الجيل الحاضر والشباب المعاصر، فقد أنيت عمرك بسبيلهم، وقدمت الكثير لانقاذهم، صابراً محتسباً، فما ضاع يومٌ من عمرك، ولا خبا نورٌ من فضلك، إن الله لا يضيع أجر المحسنين.

وينبغي أن أشير إلى «مصطلح الموضوعية» الذي درست فيه حياة السيد الشيرازي، فهي ذات بعدين:

الأول: ويراد بها ما يقابل السطحية في البحث العلمي، فكل بحث يعتمد أصولاً منهجية، ويخرج بنتائج منطقية فهو بحث موضوعي معزّز بالوثائق التاريخية.

الثاني: قد يراد بالموضوعية ما يقابل الذاتية في الاندفاع اللاشعوري وراء الهوى والعاطفة، وهو نهج ابتعد عنا وابتعدنا عنه، فاللحاح الموضوعي المستند إلى الوقائع الدقيقة المسلّمة كان مضمار هذا البحث، ولا دوافع أخرى في حديثه، ولا خلفية له إلا بيان ما كان، بلى ورائه قوله تعالى بالنسبة للنفس الإنسانية ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ والإحياء المعنوي لذكرى علماء الأمة من أبرز مصاديق الآية.



الشيخ محمد رضا الشيببي.. وطنياً

الولادة والنشأة الحوزوية:

الشيخ محمد رضا بن الشيخ جواد بن الشيخ محمد بن شبيب بن إبراهيم بن صقر النحفي الشيببي.

ولد في النجف الأشرف في السادس من شهر رمضان المبارك عام ١٣٠٦هـ = ١٨٨٨م.

نشأ في رحاب عاصمة العلم والأدب النجف الأشرف، في ظل رعاية أبوية رائدة لوالده الشيخ جواد الشيببي، حارس اللغة الفصحى في عصره، وبلبل العراق الغريد، وشاعر الأمة العربية جمعاء.

كان لهذا الأب الإنساني فضل العناية بهذا الولد البارّ في مجال التحصيل المعرفي الجادّ، وعوالم الشعر العربي الأصيل، وهو -بعد- رجل موسوعي المواهب، متعدد الجوانب علماً وأدباً ولغة وفقهاً وأصولاً، وهو من أبرز أقرانه في مجالي النثر والشعر، ومن ألمع أئمة البيان العربي مقالةً، ورسالةً، ومقامةً، وبنداً، وترسلاً بلاغياً، وهو من أكثر الناس صلة بطبقات المجتمع العراقي العلمية والأدبية والسياسية والاجتماعية، وفي أقرب الأواصر من أعرق الأسر العربية في النجف الأشرف، وبأفضل المترلة لدى الفقهاء والعلماء والشعراء حتى سُمّي «شيخ الأدب» ولدى وفاته عام ١٣٦٣هـ = ١٩٤٤م أطلق عليه «فقيه العلم والأدب».

نشأ ولده الشيخ محمد رضا الشبيبي في دوحه هذا المجد الوارف، وفي ذروة هذا الشرف الباذخ، نشأة تتسم بالأصالة، واختط لنفسه سبيلاً مهيباً منذ شبابه المبكر؛ فجمع بين فضيلتي العلم والأدب، وأتقن دروس الحوزة العلمية في النجف اتقاناً كبيراً، درس النحو والصرف والمنطق والمعاني والبيان والفقہ الفتواي وعلم الأصول والحكمة والفلسفة لدى أساتيد الحوزة العلمية، ولازم درس السطوح العالية لدى الإمام السيد حسين الحماي (ت ١٣٧٩هـ) وأكمل تحصيله العلمي الدقيق في «البحث العالي الخارج» لدى أستاذ الأكبر زعيم الأحرار الشيخ محمد كاظم الآخوند الخراساني (ت ١٣٢٩هـ) صاحب كتاب «كفاية الأصول».

وأنت ترى الشبيبي هنا ذلك الطالب المجدّ في طلب العلم منذ مبادئه حتى أرقى مراتبه في الدراسات العليا، وقد لاحظته لدى ملازمتي له في عقد من الزمن خبيراً وضيعاً في مفردات علوم الحوزة، يناقش وينظر ويحاور، ويقرر ويرتني ويختار، ومازالت ذكريات إفاضاته -وقد مضى على فقده أربعون عاماً- ترنّ في مسامعي، وتمتلك عليّ مشاعري لحسن أدائه ودقة مطالبه، وهو يزجها بروحه المرحه، ويفيضا بلسانه العذب وصوته الجريء.

الشبيبي وطنياً في شعره:

مما امتازت به بيئه النجف الأشرف منذ تأسيسها قبل اثني عشر قرناً حتى اليوم، أن أغلب طلاب حوزتها العلمية يقرضون الشعر منذ عهد الصبا، ويتبارى معهم العلم والشعر في مضمار واحد، وقد يجلي الطالب الحوزوي في أحدهما، وقد يجمع بين الأمرين.

وكان الشبيبي قد بدأ حياته منذ اختط عارضاه شاعراً جزلاً مبدعاً، حتى إذا بلغ العشرين من عمره، قال عنه الشيخ علي كاشف الغطاء والـد الإمام الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ما نصّه: «شابٌ أديب وشاعر لبيب،

قد حصل على جملة من العلوم العربية، حسن النظم جيده، قوي النثر آيده، شعره يفوق الشعرى العبور، ذو ذهن وقاد وفكر نقاد، ولم يزل ينظم سلك اللآلي في سائر الأيام والليالي، فهو بريعان الصبا، وعنفوان الشباب، ونزوة التصابي، بين أهل الفضل والآداب»^(١).

ففي السابعة عشرة من عمره رثى الفقيه المقدس الشيخ محمد طه آل نجف (ت ١٣٢٣هـ) بقصيدتين، مطلع الأولى:

لِتَعِيكَ قَد طَالَ الْحَنِينُ الْمَرْجِعُ غداة نعي الناعون فيك فاسمعوا
ومطلع الثانية:

صفائحُ العلمِ قَد فَلَّتْ مَضارِبُهَا وقوضتْ بعد بانيتها مضارِبُهَا^(٢)
وفي الثالثة والعشرين من عمره عدته محافل شاعراً كبيراً، إذ رثى العالم الشاعر السيد باقر الموسوي الهندي (ت ١/محرم/١٣٢٩هـ) برائعة مطلعها:

أتى الأفقُ مَرِيّاً.. فقليلَ هلالُهُ ولو قيل قوسٌ.. صدقته نبأه^(٣)
وفي العام نفسه رثى أستاذه المرجع الأعلى الشيخ محمد كاظم الخراساني (ت ١٣٢٩هـ) وقد استنفر المسلمين للجهاد وفي احتلال روسيا لأجزاء من إيران، فتوفي ليلة عزمه على السفر، مسموماً في أرجح الأحوال، ومطلع القصيدة:

الدينُ فيك المعزى لو ثوى فينا لكننا قد فقدنا بعدك الدينا^(٤)
وكانت هذه القصيدة بأفكارها التحررية بداية زعامة الشيببي للشعر العراقي يشاركه فيها الأستاذ معروف الرصافي.

(١) الحصون المنيعه ١٤٩/٩ / مخطوط في مكتبة كاشف الغطاء.

(٢) محمد جمال الهاشمي / المجموعة الشعرية الخطية / بحوزة ابنائه.

(٣) المصدر السابق.

(٤) محمد رضا الشيببي / الديوان / ١٨٨-١٨٩.

وطبيعي أن هذا الشعر جاء معبراً عن بيئته باستعمال الجنس والتشبيه والمبالغة، إلا أنه بعد هذا التاريخ بأربع سنوات كان قد تطوّر شعره، وتناقلته الصحف والمجلات في البلدان العربية، وعدّ من أبرز شعراء العربية، سيما حين رثى بطل العلم والجهاد السيد محمد سعيد الحويّو برأعته التي مطلعها:

عمّ الثغورَ الموحشاتِ ظلامٌ ودجتْ لأنك ثغرها البسّامُ

وقد رثى الأستاذ الشيب شهداء العروبة الذين أعدمهم جمال باشا السفاح في «عاليه» بلبنان، بقصيدة عصماء كانت من أهم أسباب شهرته عند العرب، وهي

رثاء الشهداء^(١):

وقد أقيمت في حفلة تأبين الشهداء التي أقيمت في دمشق سنة ١٣٣٩هـ = ١٩٢٠م وكانت أعظم حفلة عامّة أقيمت تذكّراً لشهداء عسف السياسة التركية من العرب وذلك خلال الحرب العامة الماضية؛ وقد ألقاها أديب مشهور من أدباء الشام على الجمهور المحتشد لهذه الغاية في ساحة المرجة:

مِمَّا يَرُدُّ لِيَعْرَبَ عَلِيَاءَهَا ذِكْرِي الشَّامِ وَأَهْلِيهَا شَهْدَاءَهَا
يَا سَادَةَ أُخْصِيْتُمْ فَصَلِّبْتُمْ لَكُمْ مَزَايَا مَا أَرَى إِخْصَاءَهَا
مَا تَصْبُ أَعْوَادٍ لَكُمْ فِي جَلْبِي مِمَّا يَشِينُ، أَلَسْتُمْ خُطْبَاءَهَا؟
رَفَعُوكُمْ عَنْ مُسْتَوَى الْأَرْضِ الَّتِي أَصْبَحْتُمْ تَتَوَطَّنُونَ سَمَاءَهَا
مَاعْذُرُ هَذِي الْأَرْضِ فِي أَجْدَاتِكُمْ وَقُبُورِكُمْ إِلَّا تَكُونُ فِضَاءَهَا؟
يَكْفِي السَّعَادَةَ وَالشَّهَادَةَ أَنَّهَا خُطِبَتْ فَكُنْتُمْ أَنْتُمْ أَكْفَاءَهَا
مِنْ حَيْثُ سَاءَ مُصَابِكُمْ أَنْقَذْتُمْ فِيهِ الْبِلَادَ فَسَرَّهَا مَا سَاءَهَا
إِنْ غَمَّ مَا كَابَدْتُمُوهُ فَطَالَ مَا فَرَحْتُمْ وَكَشَفْتُمْ غَمَّهَا
هَذِي الدِّيَارُ سَرَرْتُمْ أَمْوَاتَهَا بِجِهَادِكُمْ، وَحَرَسْتُمْ أَحْيَاءَهَا
قَالُوا: تَكُونُ فِدَاءَهُمْ أَوْطَانُهُمْ فَتَجَاوَبُوا: كَلَّا نَكُونُ فِدَاءَهَا

(١) ظ: ديوان الشيببي / ١٨٣-١٨٤.

طَلَبَ الْفِدَاءَ فَقَدَّمَتْ أُبْنَاءَهَا؟
 هَذِي الْجِدَاوِلَ دَمَعَهَا لَا مَاءَهَا
 لَمَّا أَتَاهُ، وَدَجَلَتْ زُرَّاءَهَا
 فِي «طُورِهَا» وَتَنَاوَلَتْ «سَيِّئَاتِهَا»
 لَوْ كَانَ يَشْهَدُ مَا جَرَى أُتْنَاءَهَا
 لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا تَجُرُّ وَرَاءَهَا
 لَقَيَتْ بِذَلِكُمْ الْقَضَاءَ قَضَاءَهَا
 مِمَّا جَتَّتْهُ فَقَطَعَتْ أَعْضَاءَهَا
 تَحْدِثْكُمْ بِوَلَائِكُمْ أَعْدَاءَهَا
 مِنْ قَبْلِ تَشْخِصِ الْمَدَاوِي دَاءَهَا
 حُزْنَ النَّفُوسِ الشَّمَّ زَادَ مَضَاءَهَا
 دَخَلَ الْأَسَى أَعْمَاقَهَا فَأَضَاءَهَا

عَاشَتْ دِمَشْقُ، فَأَيُّ أُمَّ قَبَلَهَا
 تَبْكِيكُمْ أَرْضُ الشَّامِ وَقَدْ أَرَى
 النَّيْلُ ضَمَّعَ يَوْمَكُمْ فُسْطَاطَهُ
 يَا نَكْبَةَ دُونَ الْجَزِيرَةِ أَثَرْتُ
 عَظَمْتَ عَلَى التَّائِي فَكَيْفَ بِحَالِهِ
 مَا كَانَ يَفْعَلُهَا الَّذِي اسْتَشْفَى بِكُمْ
 الْعُصْبَةَ الْقَاضِي عَلَيْكُمْ عَسَفُهَا
 لَمْ يَكْفِهَا تَقْطِيعُهَا أَرْحَامَهَا
 صِدْقُ الْوَلَاءِ مَحَضَّتُمُوهُ عُصْبَةَ
 عَجَلَتْ عَلَى صِفَةِ الْعِلَاجِ بِقَتْلِكُمْ
 يَا أُمَّي لَا تَحْزَنِي أَوْ فَاحْزَنِي
 إِنَّ الضَّمَائِرَ وَالْقُلُوبَ إِذَا دَجَّتْ

من أبرز شعره السياسي والوطني ثلاث قصائد نال بها شهرة كبيرة، ذاع صيته فيها بالآفاق، وهي على التوالي:

الشرق الناهض^(١):

اتفقت إثر ثورة الدروز على الحكم الفرنسي سنة ١٣٣٦هـ = ١٩١٨م
 وَأَبَى السَّيْفُ لَهَا أَنْ تَضْرَعَا
 مِنْ عُصُورٍ مَا أَقْضَى الْمَضْجَعَا!
 شَرَفُ الْعِرْقِ فَلَبَّتْ إِذْ دَعَا
 بِنَوَادِيهَا وَكَمْ سَاعٍ سَعَى
 غَاصِبٌ صَالَ عَلَيْهَا سَبْعَا

نَفِدَ الصَّبْرُ فَهَبَّتْ فَرَعَا
 بَعَثَ اللَّهُ لَهَا رَاقِدَةً
 وَدَعَا لِلذُّودِ عَنْ أَحْسَابِهَا
 أُمَّةٌ خَرَسَاءُ كَضْمِ وَاشٍ وَشَى
 أَرْمَعَتْ أَلَا يَرَاهَا حَمَلًا

(١) ديوان الشيببي ٤٤/.

تَبَذَتْ ذَاكَ التَّقَى وَالْوَرَعَا
 حَدَّةَ الْمَأْثُورِ حَتَّى قَطَعَا
 دَاحِضُ الْحُجَّةِ سَمَجُ الْمُدْعَى
 بَعْدَ مَا اسْتَنَّ ذَلُولًا طَيِّعَا
 رَفَأَ السَّاسَةَ مِنْهُ اتَّسَمَا
 مَلَأَتْهَا مِنْ فَسَادٍ رُقَعَا
 قَادَتَا الضَّعْفُ فَصِرْنَا تَبَعَا
 غَبَرُوا لَا يَشْهَدُونَ الْجُمُعَا
 ضَرَّهُمْ مَا فَعَلُوا، أَمْ نَفَعَا
 لَمْ تَجِدْهُمْ شَيْعَةً بَلْ شَيْعَا
 لَا تَعُودِي سَنَدًا مُنْقَطِعَا

وَأَتَّقَتْ حِينًا فَلَمَّا عَقَلَتْ
 أَشْرَعَتْ عَامِلَهَا فَأَتَّهُمُوا
 وَاذْعَاهَا فَتَفَقَّتْ حُجَّتْهُ
 جَمَحَ الشَّرْقُ عَلَى رَائِضِهِ
 فِي جِهَاتِ الْأَرْضِ خَرَقُ كَلْمَا
 جَادَبْتَنَا بُرْدَةَ الْمُلْكِ يَدُ
 كَلَّمَا قَامَ إِمَامٌ جَائِرُ
 شَتَّتَ الشَّمْلَ جَمِيعًا نَفَرُ
 لَا يِبَالُونَ إِذَا مَا قُلِّدُوا
 وَإِذَا مَا بَحُثُوا مُشْكِلَةً
 صِلَةَ الشَّرْقِيِّ بِالْمَاضِي اسْلَمِي

* * *

قَتَلُونَا جَاهِدِيهِمْ أَجْمَعَا
 وَأَعِيدِي (مَالِكًا) (وَالنَّخْعَا)
 هَدْبُوهُ وَاصْنَعِي مَا صَنَعَا
 مِنْ سَقَامٍ، وَأَقَامُوا الْبَيْعَا
 مَوْتَهَا فِي الْأَرْضِ أَحْيَا الْبِدْعَا
 فَأَثَارَ الشَّرْقِ وَالْعَرَبِ مَعَا
 مِنْ (بَنِي الْأَطْرَشِ) حَتَّى أَسْمَعَا
 هَجَمَاتُ فَرَّقَتْ مَا جَمَعَا
 مَرَّةً أُخْرَى (تُنُوخُ) (تُبْعَا)؟

جَاهِدِي يَا أُمَّمَ الشَّرْقِ الْأَلَى
 حَدَّيْ عَهْدَ (عَلِيٍّ) غَازِيَا
 وَادْكُرِي مَا فَعَلَ الْعَرَبُ بِنَنْ
 رَفَعُوا الصُّلْبَانَ لَا شَافِيَةً
 وَأَمَاتُوا سُنَّتَنَا وَاضِحَةً
 وَتَبَّ الرَّيْفُ مِنَ الْعَرَبِ بِهِمْ
 وَتَعَالَى فِي الْعِرَاقَيْنِ صَدْيُ
 جَمَعَ الْعِلْجُ لَهُمْ فَاتَّبَعْتَنْ
 (أَتُنُوخُ) هَذِهِ، أَمْ أَنْجَبْتَنْ

مَا أَضَاعُوا رَبًّا مَاضٍ رَجَعَا
 أَوْ بُدَاةً تَتَحَرَّى النَّجْعَا
 سَالِفَاتٍ، وَرَعَاهَا مَا رَعَى
 ذَلِكَ الْمُصْطَافَ وَالْمُرْتَقَبَا
 أَخْلَفَ النَّوَى الْمُرَجَّى «جُبْعَا»
 وَنَحَا «بُصْرَى» وَرَوَى «أَذْرِعَا»
 جَزَأَوْهَا لَيْسُودًا تَبَعَا
 دَمُهَا سَالَ عَلَيْهِ دُقْعَا
 جَلَّ فِي حُسْبَانِنَا أَنْ تَقْعَا
 جَنَّةً بِالنَّارِ عَادَتْ بَلْقَعَا
 عَبَقْرِيٌّ وَأَفَادَ الْمُتَعَا
 فِيهِ أَيْدِي الْعَابِثِينَ الْخُلْعَا
 أَيُّهَا الضَّيْفَانُ زِدْتُمْ حَشْعَا
 جَاوَزَ الْحَدَّ فَأُضْحَى طَبْعَا
 أَنْفُسَ الْأَحْرَارِ مِنَّا سِلْعَا

ذَهَبَتْ أَيَّامُهُمْ فَاسْتَرْجَعُوا
 حَضَرَ تَفْتَحِيرُ الْمُدُنِ بِنَا
 نَضَرَ اللَّهُ عُهُودًا (بِالْحَمَى)
 وَسَقَى تَمَّا يَلِي «عَامِلَةً»
 لَا أَعَبَّ الْعَيْثُ «صَيْدَاءَ» وَلَا
 بَلُّ «حِمَصًا»، وَتَوَخَّى «حَلْبَا»
 مُدُنٌ لَوْ تُرِكَتْ لِاتَّصَلَتْ
 دَفَعُوا «الشَّامَ» عَنِ الْحَقِّ الَّذِي
 يَالِهَا وَإِقِيعَةٌ فِي «جَلِّقَ»
 جَنَّةُ الْأَرْضِ وَمَا أَوْحَشَهَا
 مَنَحَ اللَّذَاتِ مِنْهَا بَلْدُ
 يَالَهُ حَيًّا لِقَاحًا لَعِبَتْ
 مَالِكُمْ إِنْ أَحْسَنَ الشَّرْقُ قِرَى
 لَا تَقُولُوا: طَمَعٌ، دَاؤُكُمْ
 لِارْبِحْتُمْ مِنْ تِجَارٍ عَرَضُوا

رجال الغد^(١):

كما اتفق له سنة ١٣٣٩هـ = ١٩٢٠ في مدينة صيداء وهي من القصائد السائرة؛ وقد نشرتها لأول مرة مجلة (العرفان) ثم صحف الشام في التاريخ المذكور.

يَا شَبَابَ الْيَوْمِ - أَشْيَاخُ الْعَدِ
 لِيَنَالُوا غَايَةَ الْمُجْتَهِدِ

أَنْتُمْ - مُتَعَتِّمٌ بِالسُّؤُدِ
 يَا شَبَابًا دَرَسُوا فَاجْتَهَدُوا

(١) ديوان الشيببي/٨١.

وَلَقَدْ أَنْ نَجَازُ الْمَوْعِدِ
لِعُصُورِ مُقْبَلَاتِ جُدِدِ
نَزَعَاتُ الرَّأْيِ وَالْمُعْتَقِدِ
فُرُقَةً، هَاكُمُ عَلَى هَذَا يَدِي
هَمَّكُمْ فِي حَلِّ تِلْكَ الْعُقَدِ
نُصَبَ عَيْنَيْهَا حَيَاةَ الْأَبَدِ
دَاهِبًا بِجَاذِ مَا لَمْ تَجِدِ

وَعَدَ اللَّهُ بِكُمْ أَوْطَانَكُمْ
أَنْتُمْ جَيْلٌ جَدِيدٌ خُلِقُوا
كَوْنُوا الْوَحْدَةَ لَا تَفْسَخْهَا
أَنَا بَايَعْتُ عَلَى أَنْ لَا أَرَى
عَقْدَ الْعَالَمِ شَتَّى فَاحْصُرُوا
لِتَكُنْ أَمَالُكُمْ وَاضِعَةً
لِتَعِشْ أَفْكَارُكُمْ مُبْدِعَةً

* * *

غَيْرُ مَيْسُورٍ مَنَالِ الْفَرْقِدِ
لَأَعَادِيكُمْ - مَكَانَ السَّيِّدِ
بَعْدَ عَهْدِ اللَّهِ - عَهْدَ الْبَلَدِ
يَلِيدٍ مُفْرَعَةٍ فِي الزَّرْدِ
عَبَثَ الْأَعْدَاءِ غَابَ الْأَسَدِ
فَاقَ دَاءَ الرُّوحِ دَاءَ الْجَسَدِ
هَذِهِ الْعُقْبَى الَّتِي لَمْ تُحْمَدِ
يَتَأَدَّبُ حَائِرٌ لَمْ يَهْتَدِ
عَدَدُ الْعِلْمِ وَعِلْمُ الْعَدَدِ
لَمْ تُفِدْكُمْ دَرَجَاتُ الرَّصَدِ
ذَهَبَ الْعِلْمُ ذَهَابَ الزَّيْدِ
غَيْرَ أَخْلَاقٍ هِيَ الرُّوضُ النَّيْدِ

لَا يَنَالُ الضَّمِيمُ مِنْكُمْ جَانِبًا
أَوْ تُخْلَوْنَ - وَأَنْتُمْ سَادَةٌ
الْوَفَا حِفْظُكُمْ أَوْ رَغْيُكُمْ
لَا تَمُدُّوْهَا يَدًا وَاهِيَةً
تُشْبِهُ الْأَرْضَ الَّتِي تَحْمُونَهَا
دَبَّرُوا الْأَرْوَاحَ فِي أَحْسَادِهَا
إِنَّ عُقْبَى الْعِلْمِ مِنْ غَيْرِ هُدًى
مَنْ أَنَا بِالْهُدَى مِنْ حَيْثُ لَمْ
غَيْرُ مُجَدِّ - إِنْ جَهَلْتُمْ قَدْرَكُمْ -
وَإِذَا لَمْ تَرْضُوا أَحْوَالَكُمْ
وَإِذَا لَمْ تَسْتَقِمْ أَخْلَاقُكُمْ
عَدَّ عَنْكَ الرُّوضُ لَا أَرْتَادُ لِي

* * *

بُورَكَتْ نَاشِئَةً مِيمُونَةً
 مَنْ جَنَى مِنْ عِلْمِهِ فَايْدَةٌ
 مَا يُرْجَى لَيْتَ شِعْرِي وَالِدُ
 سِيرَةِ الْآبَاءِ فِينَا قُدُوةٌ
 نَشَأَتْ فِي ظِلِّ هَذَا الْمَعْهَدِ
 غَيْرُ مَنْ عَاشَرَ فَلَمْ يَسْتَفِيدِ
 أَهْمَلَ التَّعْلِيمَ عِنْدَ الْوَالِدِ
 كُلُّ طِفْلٍ بِأَبِيهِ يَقْتَدِي

* * *

ليس هذا الشُّعر ما تَرُوونَهُ
 إِنَّ هَذَا قَطَعُ مِنْ كَبِدِي

باطلُ الحمدِ ومكذوبُ الثنا^(١):

فِتْنَةُ النَّاسِ - وَوَيْنَا الْفِتْنَا -
 رَبَّ جَهَنَّمَ حَوْلَاهُ قَمَرًا
 أَيُّهَا الْمُصْلِحُ مِنْ أَخْلَاقِنَا
 كُلُّنَا يَطْلُبُ مَا لَيْسَ لَهُ
 رَبَّمَا تُعْجِبُنَا مُخَضَّرَةٌ
 لَمْ تَزَلْ - وَيَحْكُ يَا عَصْرُ أَفِقْ -
 حَكَمَ النَّاسُ عَلَى النَّاسِ بِمَا
 فَاسْتَحَالَتْ - وَأَنَا مِنْ بَعْضِهِمْ -
 إِنَّا نَجْنِي عَلَى أَنْفُسِنَا
 بَلَّغَ النَّاسُ الْأَمَانِي حَقَّةً
 أَخْطَأَ الْحَقُّ فَرِيقَ بَائِسٍ
 خَسِرَتْ صَفْقَتُكُمْ مِنْ مَعْشَرٍ
 أَرْحَصُوهُ وَلَوْ اعْتَاضُوا بِهِ
 يَا عَيْدَ الْمَالِ خَيْرٌ مِنْكُمْ

بَاطِلُ الْحَمْدِ، وَمَكْذُوبُ الثَّنَا
 وَقَبِيحُ صَيرَاهُ حَسَنًا
 أَيُّهَا الْمُصْلِحُ، أَلَدَاءُ هُنَا
 كُلُّنَا يَطْلُبُ ذَا حَتَّى أَنَا
 أَرْبَعُ بِالْأَمْسِ كَانَتْ دِمْنَا
 عَصْرَ أَلْقَابِ كِبَارٍ وَكُنَى
 سَمِعُوا عَنْهُمْ وَغَضُّوا الْأَعْيُنَا
 أُذْنِي عَيْنًا وَعَيْنِي أُذْنَا
 حِينَ نَجْنِي، ثُمَّ نَدْعُو: مَنْ جَنَى؟
 وَبَلَّغْنَاهَا وَلَكِنْ بِالْمُنَى
 لَمْ يَلُومُونَا وَلَا مَوَا الزَّمْنَا
 شَرُّوا الْعَارَ وَبَاعُوا الْوَطْنَا
 هَذِهِ الدُّنْيَا لَقَلَّتْ ثَمْنَا
 جُهْلَاءُ يَعْبُدُونَ الْوَتْنَا

إِنِّي ذَاكَ الْعِرَاقِيُّ الَّذِي ذَكَرَ (الشَّامَ) وَنَاجَى (الْيَمَنَا)
إِنِّي أَعْتَدُ (نَجْدًا) رَوْضَتِي وَأَرَى جَنَّةَ عَدْنِي (عَدْنَا)

* * *

أَيُّهَا الْجِيلُ اكْتَشِفْ لِي حَاضِرًا كَلَّمَا خَرَّبَ مَاضِيكَ بَنَى
يَنْهَضُ الشَّعْبُ فَيَمْشِي قَدَمًا لَوْ مَشَى الدَّهْرُ إِلَيْهِ مَا انْتَشَى
غَيْرُ رَاقِي النَّفْسِ وَالرُّوحِ فَتَى وَضَعَ الرُّوحَ وَرَقَى الْبَدْنَا
حَالَةَ النَّفْسِ الَّتِي تُسْعِدُهَا وَتُرِيهَا كَلَّ صَعْبَ هَيْنَا
فَفَقِيرٌ مَنَ غِنَاهُ طَمَعٌ وَغَنِيٌّ مَنَ يَرَى الْفَقْرَ غِنَى

ولستُ بهذا البحثُ معنياً بشعره الوطني وحده، فهناك جوانب مشرقة من نضاله الوطني في أبعاد متعددة، إلا أن ما أوردناه من شعره هنا، وقد يرد في مطاوي البحث، دليل الشعور الوطني الفياض، والحس الاستقلالي لبلاد العرب.

الشبيبي بين الأتراك والانكليز:

كان الشبيبي لدى إعلان الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م-١٣٣٣هـ ضابط احتياط في الجيش العراقي العثماني كما حدثني بذلك، وقد نظم معاناته بقصيدته (حلوان بعد العراق) وكان في بعثة عسكرية على حدود العراق الشرقية^(١).

وقصيدته (طلائع الحرب العامة) وهو ضابط مثقف، توقعَ بها مصير الدولة العثمانية، ووصف بعض أنباء الحرب العالمية، وقال في مقدمتها: «نظمت في مدينة بادوريا بالعراق في ربيع الثاني سنة ١٣٣٣هـ وفق شباط سنة ١٩١٤م، وكان في بعثة من المجاهدين العراقيين»^(٢).

(١) محمد رضا الشبيبي / ديوان الشبيبي / ١٢ / نشر جمعية الرابطة العلمية في النجف الاشرف / دار النشر والتاليف والترجمة / القاهرة / ١٩٤٠م.

(٢) ديوان الشبيبي نفسه / ١٥.

وكان الشبيبي قد صورّ مآسي الحرب العالمية بمجموعة من قصائده الرائعة، تناول فيها ما كان بين العثمانيين والانكليز من الصراع، وما نشب بين آل عثمان وإيطاليا من الحرب عام ١٩١٢م، وصورّ الحالة النفسية التي كابدها العراقيون وهو منهم، وقد زجّوا في حروب لا طائل معها^(١).

وقد عاش تعقيدات هذه الحروب، وحينما أنهى خدمة الاحتياط عسكرياً، عاد إلى وضعه الأول، فخلع الملابس العسكرية وعاد إلى العمّة شعار الأئمة كما يقول.

أما في جهاد العراقيين للانكليز يوم الشعيبة، فقد كان أحد الأعلام، إذ ارتبط، مضافاً لموقعه الديني برئاسة أركان الجيش العثماني بقيادة «أمير الآلاي سليمان عسكري بك» منذ أوائل صفر/١٣٣٣هـ = ١٩١٤م حتى انتحار هذا القائد بعد هزيمة الجيش العثماني صباح الأربعاء ٢٩/جمادى الأولى/١٣٣٣هـ = ١٤/نيسان/١٩١٥م، وقد ترك نصف الجيش العثماني بين قتيل وجريح أسير وفقيد كما يقول الشبيبي^(٢).

وكان الشبيبي رحمه الله، يصف انتحار هذا القائد -مشاهدة- لحضار مجلسه الأسبوعي صباح كل جمعة، وسمعت ذلك منه، قال: «بينما كنا نسير مع سليمان عسكري بك، وهو في عربته، إذ جاء أحد الضباط وأبلغه أن (الآلاي علي بك) سلّم للعدو، فارتبك سليمان عسكري، وسحب الأحرام الذي على رجليه (وكان جريحاً) وغطّى رأسه، ومن تحته سحب المسدس دون أن نعلم، وصوبه على رأسه، وأطلق منه طلقة أصابته برأسه، وأنّ آتة فمات.»

وحينما انتحر قائد الجيش العثماني التحق الشبيبي فوراً بالسيد الحبوبي، فكانا في موقع واحد، حتى النهاية بوفاة السيد الحبوبي.

(١) ديوان الشبيبي نفسه / ٢١ وسواها.

(٢) ظ: ديوان الشبيبي / ٤٨.

وحديث الشبيبي مع الانكليز طويل جداً، فقد رافق عقود حياته منذ أيام الجهاد في ١٩١٤م حتى ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨م، وستتناول الآفاق البعيدة في ظلّ كفاحه للإنكليز وجوداً واستعماراً ومستشارين، واصطدامه مع رموزهم وعملائهم ووكلائهم فيما يسمّى بالعهد الوطني أو الحكم الوطني، وباعتبار الشبيبي من ألمع مؤسسي الدولة العراقية فقد برز نضاله الوطني في هذا المضمار بعدة محاور سنأتي عليها، وهنا أنطلق مع القارئ بصفة معاناة الشبيبي مع الأتراك، وهو رجل عربي مسلم، يعاتب الأتراك حيناً، ويدعمهم بالجهاد حيناً آخر، ولكنه يسأم الحياة في ظلّ حكم متغطرس جاهل، تحكم في رقاب الناس ودمائهم باسم الإسلام، ولا يمثل العثمانيون الإسلام، وينطلق بتصوير مشاعره وأحاسيسه وعواطفه في هذا المناخ بقصيدته «ثورة على الأتراك» وذلك لدى ثورة النجف على العثمانيين بعد مجزرتي كربلاء الأولى في ١٣٣٣هـ والثانية في ١٣٣٤هـ وكارثة عاكف بك في الحلة في شوال ١٣٣٣هـ، وحملة قتال النجف في رجب ١٣٣٣هـ مما ذكره في مقدمة القصيدة، ومما جاء في هذه القصيدة من الأسباب، وأنا أقدم القصيدة والمقدمة كما كتبها الشبيبي نفسه:

ثورة على الأتراك^(١):

أو شكوى وعتاب

من أهمّ حوادث العراق الأخيرة ثورة النجفيين على العثمانيين التي انتهت بطردهم من النجف، وبسقوط هيبتهم وضعف شأنهم في عامّة البلاد، لاسيّما سيقى الفرات، ولم يقتصر تأثيرها من هذا القبيل على القطر العراقيّ حتى تجاوز إلى غيره من الأقطار، فقد انتشرت في النجف في أخريات جمادى الثانية سنة ١٣٣٣هـ ١٩١٥م أو مرور شهر على واقعة الشعبية رِقاعٌ تحضّ علّ مناهضة الحكومة العثمانية، فاهتمّ لها أولياء الأمور

في بغداد، وجرّدوا إلى النجف بَعثاً مؤلفاً من ألف من المُشاة والفرسان بقيادة (عزّت بك) ففرّ المشاغبون عند وصوله إلى السواد، وهم عصابة يتألف معظمها من البلط (الفارين من الجندية) وفي الهزيع الأخير من ليلة السبت ٨/ رجب سنة ١٣٣٣هـ - ١٩١٥م عادوا فنّفذوا إلى البلدة من السُور، وانضمّ إليهم طائفة من البلديين، فنشّب في الصباح الثاني بينهم وبين الحامية العثمانية قتالٌ شديد دام إلى عصر يوم الاثنين ١٠/ رجب سنة ١٣٣٣م. وفيه أذعنت الحامية وجرّدت من السلاح بعد فقدان جماعةٍ منها فيهم بعض الضباطن وطلب القائد والقائمقام (هيج بك) والمستخدمون الأمان، فأخذهم لهم، وأخرجهم به خازن المشهد وبعض الأماثل والصدور، ثم أضرمت النارُ في دُور الحكومة، ونُهبت أمتعة المستخدمين، وتسلم النجفيون منذ ذلك اليوم أزيمة الحكم في البلدة، وما كفى ذلك حتى صاروا يعملون على تفويض أركان الحكومة العثمانية من العراق، فكان لهم ضلعٌ في أكثر الحوادث التي حدثت بعد ذلك، وأريدَها طرُدُ الأتراك كحادثة كَرَبِلا الأولى في منتصف شعبان سنة ١٣٣٣هـ - ١٩١٥م وكرائنة الحِلّة في منتصف شوال سنة ١٣٣٣هـ - وحادثة كَرَبِلا الثانية في ٧/ رجب ١٣٣٤هـ - ١٩١٦م هلكَ فيها خلقٌ كثير، وأشرفت البلدة على الخراب، إلى غير ذلك وما زال النجفيون يحكمون أنفسهم بأنفسهم سنتين كاملتين، حتى حاولوا أخيراً ألاّ يفسحوا بينهم مجالاً للإنكليز، كما اتفق لهم مع الأتراك، فقاموا بشورهم الخطيرة على الإنكليز التي اقتتحت بقتل (الكابتن مارشل) حاكم المدينة صباح الثلاثاء ٦/ جمادى الثانية سنة ١٣٣٥هـ - ١٩١٧م فحوصرت النجف خمسةً وأربعين يوماً بجيش إنكليزي جرّارٌ تُودل إطلاق النار بينه وبين النجفيين أكثرَ تلك الأيام، إلى أن تمّ للإنكليز إمساك السواد الأعظم من القوم، وعوقب نحو مائتين منهم بالشنق والتقي والتغريب.

لا الجُبْنُ نَارٌ فَأَطْعَانَا وَلَا الْبُخْلُ
لو كان ما بهم جُبْنًا لَمَا انْتَقَمُوا
السَّيْفُ قَرَّبَ مَنَا كُلَّ قَاصِيَةٍ
مَآذَا نُؤَمِّلُ فِي إِذْرَاكِ غَايَتِنَا
يَا مَنْ يَعْزُزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْتِبَهُمْ
جَفَوْتُمُونَا وَقُلْتُمْ: نَحْنُ سَاسَتُكُمْ
كَمْ تَنْبِذُونَ لَنَا ذَنْبًا فَتَنْذِرُكُمْ
أَمَا صَفَحْنَا عَنِ الْمَاضِي لِأَعْيُنِكُمْ؟
أَمَا اسْتَجِيشْتُمْ كَمَا شِئْتُمْ كِتَابِنَا؟
أَمَا مَشَتْ تَنْدَرُغُ الدُّنْيَا؟ أَمَا انْتَطَعَتْ
أَمَا أَطَاعُوا؟ أَمَا بَرُّوا؟ أَمَا عَطَفُوا؟
بِاللَّهِ لَا تَجْرَحُوا أَكْبَادَنَا وَدَعُوا
مِمَّا نَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ حِيلَتْكُمْ
قَاتَلْتُمْ غَيْرَ عَلَامِينَ أَنْكُمْ
هَذِي الْمَوَاقِفُ مَا تَنْفَكُ ظَاهِرَةٌ
وَقَائِعُ مَا تَنْزَالُ الدَّهْرُ سَائِرَةٌ
أَضَعْتُمْ الْفُرْصَةَ الْعُظْمَى الَّتِي سَنَحَتْ
فَيَضَّتُمْ لِحِفَاطِ الْمَلِكِ طَائِفَةٌ
إِلَى الدَّفَاعِ دَعَوْتُمْ جَاهِلِينَ بِهِ
عَلِمْتُمْ حِينَ عَلِمْتُمْ جَوَارِحَهُمْ
لَأَيِّ شَيْءٍ تَرَاهُمْ يُؤْثِرُونَكُمْ
لَا تَأْمَلُوا خَفَقَانًا مِنْ قَلُوبِهِمْ

التَّائِرُ الْحِقْدُ بِالْأَقْوَامِ وَالِدَخْلُ
وفي طريقِ بُلُوغِ التَّقَمَةِ الْأَجَلُ
لَا الْمَنْطِقُ الْفَصْلُ مِنْ قَوْمٍ وَلَا الْجَدَلُ
مِنْ السِّيَاسَةِ؟ كَلَّا إِيهَا حَيْلُ
يَ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ التَّائِبُ وَالْعَدْلُ
مُنَى مَطِيئَتِهَا الْإِخْفَاقُ وَالْفَشْلُ
لَقَدْ تَقَطَّعَتْ الْأَعْدَارُ وَالْعِلَلُ
أَمَا أُدِيلَتْ لَكُمْ أَيَّامُنَا الْأَوَّلُ؟
حَتَّى تَفَاضَ مِنْهَا السَّهْلُ وَالْجَبَلُ
بِهَا الْمَتَابَةُ وَالْغَيْطَانُ وَالسَّبِيلُ؟
أَمَا احْتَفَلُوا بِمَوَالِيهِمْ؟ أَمَا احْتَفَلُوا؟
جِرَاحُ (بُرْقَةٌ) وَ(الْبُلْقَانُ) تَنْدَمِلُ
لَا تُسْتَفَادُ وَأَنَّ الرَّأْيَ مُرْتَجَلُ
حِزْبٌ عَلَى خَطَرَاتِ الْوَهْمِ يَتَّكِلُ
بِهَا الْفَطَائِعُ لَا (صِفِّينَ وَالْجَمَلُ)
بِهَا الرِّكَائِبُ مَضْرُوبًا بِهَا الْمَثَلُ
وَإِنَّمَا هِيَ ذَلِكَ الْحَادِثُ الْجَلَلُ
لِغَيْرِهَا الْمَلِكُ وَالْأَجْنَادُ وَالِدُّوَلُ
وَإِنَّمَا النَّاسُ أَعْدَاءُ لِمَا جَهِلُوا
دُونَ الْعُقُولِ وَقُلْتُمْ: إِنَّهُمْ عَقَلُوا
وَالْقَوْمُ فِيكُمْ وَفِي أَعْدَائِكُمْ هَمَلُ
فِيهَا صَفِيرَاتُ مَا هِيَ أَمَلُ

نَجَواهُمْ إِذْ أَظَلَّتْكُمْ عُداَتُكُمْ
 قُلُوبِكُمْ مِنْ ذُضْهَابِ الْأَمْرِ وَاجِلَةً
 شَاكُونَ خَفَّتْ بِكُمْ لِلْحَرْبِ نَجْوَتُكُمْ
 لَمْ يَفْعَلُوا مَا أَرَدْتُمْ مِنْ نَبَاتِهِمْ
 خَانُوا ضَمَائِرَهُمْ فِي بَدَلِ طَاعَتِهِمْ

بِالظالمينَ لنا عنِ مِثلِهِمْ بَدَلُ
 أَمَّا سِوَاهَا فَلَا تَخْشَى وَلَا تَجِلُ
 وَقَدْ تَنَاقَلَ عَنْهَا مَعَشَرٌ عَزَلُ
 وَكَانَ فِي عَكْسِ مَا يَهُوُونَ لَوْ فَعَلُوا
 مِنْ قَبْلُ، فَالآنَ مَا خَانُوا وَلَا خَدَلُوا

* * *

نَحْنُ الْأَلَى عَرَضَ فِي جَنبِ جَوْهَرِكُمْ
 قَوْمٌ مِنَ الْعَرَبِ وَخَزُّ النَّخْلِ حَظُّهُمْ
 عِنْدَ الْمَغَانِمِ لِأُذْعَى وَيَفِدَحُنَا
 تَأْبَى الْحَوَادِثُ إِلَّا أَنْ تَمَلِكُمْ
 أَيْنَ الرَّهَيْنُ بِأَمْوَالِ لَنَا ذَهَبَتْ؟
 إِمَّا شَهِيدٌ مُعْلَى فَوْقَ مِشْنَقَةٍ
 يَا مَنْ بَظِلِّ بَنِي عَثْمَانَ قَدْ نَشَأُوا
 يَا رَبِّ: مَنْ لِأَناسٍ مَا لَهُمْ أَحَدٌ؟
 وَارْحَمَتَاهُ لِمَنْ غَابُوا فَمَا حَضَرُوا
 تَسْرِي الْجُنُودُ حُفَاةً غَيْرَ نَاعِلَةٍ
 أَمَا تَخُورُ قُوى الشُّبَّانِ إِنْ وَصَلَتْ
 يُرْجِي الْقِوَافِلَ بِالْأَقْوَاتِ حَافِلَةً
 دَعُوا الْمَظَالِمَ حَاوَلْتُمْ تَفَشَّيْهَا
 لِمَ لِأَيُّحَابٍ مُنَادِينَا؟ كَأَنَّهُمْ
 قَدْ اعْتَدَرْنَا وَقَدْ صَحَّتْ مَقَالَتُنَا

فِيهِ نِصَالُ الْمَنَايا الزُّرْقِ تَتَّصِلُ
 وَحَظُّ قَوْمِ سِوَانَا الْأَرْيِيِّ وَالْعَسَلُ
 مِنَ الْمَعَارِمِ ثِقَلُ لَيْسَ يُحْتَمَلُ!
 وَلَا وَدَيْنِ التَّأخِي— مَا بِنَا مَلَلُ
 وَمَنْ يُقِيدُ بِأَخْوَانٍ لَنَا قُتِلُوا؟
 أَوْ مُوتِقٌ بِجِبالِ الْأَسْرِ مُعْتَقَلُ
 أَضْحَيْتُمْ، إِنْ ظَلَّ الْقَوْمُ مُتَّقِلُ
 يَا رَبِّ: مَنْ لِرِجالٍ ما بِهِمْ رَجُلُ؟
 مِنَ الثُّغُورِ، وَمَنْ سارُوا فَمَا قَفَلُوا
 كَأَنَّهَا بِأَدِيمِ الْأَرْضِ تَنْتَعِلُ
 أَوْ إِتْها لِتَنائِي الْقَصْدِ لِاتَّصِلُ؟
 طَاوُونَ ما شَرِبُوا مِنْها وَلَا أَكَلُوا!
 ما لِلبِلادِ الَّتِي ناءَتْ بِها قِبَلُ
 ما اسْتَنْجَزُوا عَنِ يَدِ حَقًّا وَلَا سُلُوا
 أَخْوَكَمُ مُكْرَةً فِي الْحَرْبِ لا بَطَلُ

الجهاد ضد الإنكليز ينطلق من النجف:

كانت النجف الأشرف أواخر العصر العثماني تميل تبعاً لقادتها وعلمائها الروحانيين إلى الحياة الحرة الكريمة في ظلّ دستور للبلاد، فقد ملّت التسلط الاستبدادي لدى العثمانيين، وسأمت الحكم الدكتاتوري المتخلف في ظلّ الخلافة المدعاة للسلاطين، وكانت في هذا الشعور تعيش حياة مزدوجة المعايير، فهي تعارض الحكومة العثمانية لأنها مستبدّة ظالمة، وهي تحاول الإبقاء عليها - لو أصلحت وارعوت - باعتبارها دولة إسلامية إسمياً وشعائر لا أكثر ولا أقل، وقد عبّر الأستاذ الشبيبي بقصيدته السابقة عن طبيعة الحكم الفردي العثماني في ممارساته اللاإنسانية في الأحكام والضرائب والجباية وسوق الآلاف إلى الموت في حروب لاناقة للإسلام فيها ولا جمل، وحمل على تلك الممارسات اللاأخلاقية مما لم يزل الله به سلطاناً.

ونشأت في أوائل القرن العشرين حركة دستورية في تركيا دعا لها الضباط المتحررون وقادة الفكر، وترعرعت في إيران تلك الأفكار الدينية التي دعا إليها العلماء ورجال الدين في تشريع حياة دستورية تقلص من نفوذ «شاه إيران» ويشرف على ذلك مشرّعون من البلاد.

وتناهت هذه الأبناء على النجف الأشرف، والنجف على اطلاع عميق بمثل هذه الأحداث، وفي النجف من هو عمادها وعمودها ورائدها من الأعلام، وكانت النجف وهي تتلقى أبناء الدستوريين في الدولتين تحنّ إلى التحرر حنين المهيم إلى المورد العذب، وكان الوعي الوطني متمثلاً بعلمائها ومراجعها العظام، وشبابها يتداول سرّاً قراءة الصحف والمجلات التي تذيع أبناء التحرير من الاستبداد، وقد شاركت هذه الصحف والبيانات والنشرات في كل من سوريا الكبرى، والقاهرة، والأسنانة، وإيران في إذكاء حمرة النضال في سبيل الدستور، إلا أن حركات التحرر تسير بركب بطيء، فهي تذكو حيناً وتخبو حيناً آخر، نظراً للأحكام الكيفية التي

ابتدعها الأتراك في مجاهدة هذه الأفكار، وكانت أصوات المنادين بالحريّة ترتفع وتتضاءل، ولكنها تتعالى في النجف الأشرف إذ يدعم الوعي الديني ظواهر الوعي الوطني، ويلقي بظلاله الوريقة على العراق باعتباره بلداً مسلماً، وباعتبار دين الدولة هو الإسلام، والإسلام ينادي بتحرير الشعوب.

وكانت عشائر العراق بخاصة وطبقاته بعامة ترى في المرجعية الدينية قدومها الصالحة في التوجه الوطني، وكان المرجع الأعلى الشيخ محمد كاظم الآخوند يتبنى مشروع الدستور «المشروطة» في مقابل «المستبدة» التي تعطي للحاكم صلاحيات فردية، وتعنى الأولى بالحكم المتقيد بأنظمة وقوانين دستورية، وتعنى الثانية بالحكم الفردي الملكي غير المقيّد بشيء أو المتقيّد به. وفي ضوء توجه المرجعية العليا في النجف الأشرف نحو الحياة الدستورية الحرّة، فقد التفّ الشعب العراقي بشبابه المتحمس حول هذا الاتجاه يقول الأستاذ حسن مرزّة الأسدي رحمه الله:

«إن هذا الاتجاه الدستوري القومي الذي تبلورت فيه حركات علماء الدين الأمثال في النجف في أوائل القرن العشرين، جاء منسجماً كل الانسجام مع العقيدة المتطورة المتحررة للشيعّة الإمامية، والتي قالها: أن الحكم حكمان؛ حكم الإمام العادل (يريد به المعصوم عليه السلام) وإليه يلقي بمقاليد أمور الدنيا والدين، وحكم الحكومة العادلة المنبثقة من الشعب بانتخابات مباشرة حرّة لا تشوبها شائبة، ويلقى إليها بمقاليد الدنيا، وتبقى أمور الدين بيد رجاله المؤمنين الصالحين»^(١).

ومع ما في هذا الرأي من مناقشة، فإن الاتجاه السائد في النجف الأشرف يدعو إليه بكثير من العفوية، فإن الدراسات لم تكن لتفترق بين العلمانية والديمقراطية، ولم يكن رائدها العلمانية على الإطلاق، بل كان العمل في سبيل

(١) حسن الأسدي / ثورة النجف / ٨٠.

الحكم الديمقراطي القائم على أساس الشورى والانتخاب في مجلس تشريعي يمثل أطراف الشعب العراقي، هذا ما أراده النجف الأشرف وشبابه العامل على إنجاز مشروع الدستور والتحرر الإنساني، وكان إعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨م في تركيا، قد هزّ مشاعر العرب والأتراك، فتأسست في تركيا «جمعية الاتحاد والترقي» وبالرغم من عدم معرفة أهدافها المخبأة والحقيقية، فقد أثار ذلك تأثيره الفاعل في النجف الأشرف ففتح أول فرع لجمعية الاتحاد والترقي، وكان الشيخ محمد رضا الشبيبي والشيخ علي آل مانع، والسيد محمد رضا الصافي، وجملة من السياسيين العراقيين، وبعض رؤساء العشائر الفراتية، وطائفة من الشباب النجفي الثائر، كان كل أولئك من بين أعضاء هذه الجمعية، وقد ساعدت الجمعية على بث الوعي الدستوري، حتى إذا اكتشف أمر الأتراك في سياستهم القاضية بتتريك اللغة العربية الفصحى، والتبشير بإقامة إمبراطورية عثمانية. أغلق الأعضاء فرع الجمعية بعد أن انسحبوا منها، وهم العرب الأقحاح.

وفي السابع من ربيع الثاني/ ١٣٢٧هـ = ١٩٠٩م خلع الأتراك السلطان عبد الحميد، وبعد ذلك بحوالي الشهرين، خلع الإيرانيون في جمادى الآخرة/ ١٣٢٧هـ = ١٩٠٩م محمد علي شاه ملك إيران، واستغلوا مبدأ المناذرة بالمشروطة ذريعة للفتك بمن له وجهة نظر أخرى، وأقدموا على أعمال شنيعة غير مبررة، وأعدموا جملة من العلماء القائلين بالحكم الفردي، وكان أبرز من أعدم في هذه الفورة الدستورية هو الشيخ فضل الله النوري في الميدان قبال داره، وهو من أشهر علماء إيران، وكان مع الدستوريين في مطالبهم، ولكنه لمس الاستئثار والفوضى وسفك الدماء، فوقف ضدهم.

ومهما يكن من أمر، فإن خلع الأتراك للسلطان، والإيرانيون للشاه، حدثان هائلان، جعللا النجف تغلي كالرجل، فتضاعف الحماس الوطني، وقام العمل الجاد على المناذرة بالدستور للعراق والعرب، والتخفيف ولو جزئياً من سيطرة العثمانيين، وحينما قامت الحرب العالمية الأولى في ١٩١٤م نشطوا في

هذا المنحى، وإذا بهم يُفاجأون بدخول الإنكليز البصرة بجيوش غازية في أوائل تشرين الثاني/ ١٩١٤م = ٢٥ / ذي الحجة/ ١٣٣٢هـ، ويتزلون (الفاو) محتلين البلاد، وإذا بالنحف الأشرف بعلمائها وشبابها ورجالها تنتفض كالصقر لردّ الغزاة المستعمرين، وإذا بالسيد محمد سعيد الحبوبي يكسر الصمت، ويطرح القلم، ويشهر السيف، ويؤيده المراجع العظام وهو أحدهم، فكان مسرح أحداث المجاهدين في ثلاث جبهات قتالية كبرى، الأولى على مشارف الشعيبة والبرجسية من البصرة الفيحاء، والثانية في مقالع عرب الأهواز وعبادان والمحمرة، والثالثة فيما بين المدائن إلى الكوت.

وكان رؤساء القبائل العربية في الفرات قد انتظموا هم وعشائرتهم في صفوف المجاهدين بعد أن خف العلماء الأعلام لتلبية نداء الدفاع عن الوطن وحياض الإسلام، ونقلتهم جميعاً إلى جبهات القتال السفن النهرية وهي تمخر عباب الفرات، وكان السيد الحبوبي ورسله ومبعوثوه كلما نزلوا قصبه دعوا أهلها للجهاد، فاستجابوا، وانتظمت معهم عشائر الغرّاف وسوق الشيوخ وقبائل الناصرية حتى الشطرة والرفاعي، وغادروا سوق الشيوخ في الرابع من ربيع الثاني/ ١٣٣٣هـ بقيادة السيد الحبوبي «معهم عشرات الألوف من المجاهدين، ميمماً شطر ميادين الجهاد، تقلّهم مئات السفن النهرية الكبيرة، ويقدر عددهم بأكثر من ثلاثين ألف راجل، وعشرة آلاف فارس، وقد التحق معهم حوالي خمسة عشر ألف جندي، فتكوّن من الطرفين الجناح الأيمن التركي في هذه الحرب.

وفي ٧ / ربيع الثاني/ ١٣٣٣هـ وصل النحف الأشرف حوالي الستمائة فارس من مجاهدي الأكراد، قاموا بزيارة الإمام علي (عليه السلام)، وغادروا في العاشر منه إلى جبهة القتال بطريق الطف: النحف - الشنافية - السماوة - الناصرية - الزبير - الشعيبة»^(١).

(١) حسن الأسدي/ ثورة النجف/ ٩١ / الطبعة الثانية/ بغداد/ ١٩٧٠م.

واتجه الحزبي والمجاهدون شطر الشعبية عن طريق «بحيرة الحمار» - الأهواز - فوصلوها في ١٣/ ربيع الأول/ ١٣٣٣هـ = ٢٢/ كانون الثاني/ ١٩١٥م وضربوا خيامهم في موضع يسمى النخيلة^(١).

وكان السيد الحزبي قد أشرف على تنظيم شؤون القتال في جبهتي البصرة والأهواز وتوابعهما، فقسم المجاهدون كالآتي:

- ١- الجناح الأيمن بقيادته ومن معه من العلماء والمجاهدين في الشعبية.
- ٢- القلب، بقيادة شيخ الشريعة فتح الله الأصفهاني، والسيد مهدي الحيدري، والسيد أبي القاسم الكاشاني وعمامة المجاهدين في القورنة.
- ٣- الجناح الأيسر، بقيادة الشيخ مهدي الخالصي الكبير، والشيخ جعفر الشيخ راضي، والشيخ عبد الرضا راضي، والسيد عيسى كمال الدين، ومعهم آلاف المجاهدين في الأهواز.

وقد قام القلب والجناحان بواجبهم النضالي «فهجما في ٤/ نيسان/ ١٩١٥م على المواقع الإنكليزية المحصنة، ووقعت معارك أبلى بها المجاهدون بلاءً حسناً»^(٢).
وندع الشيخ الشبيبي أبرز المجاهدين من الشباب النحفي الثائر - وهو شاهد من العصر - يتحدث عما جرى في المعارك في قصيدته «يوم الشعبية» ومقدمتها، قال:

يوم الشعبية^(٣):

أشهر أيام الحرب العراقية - إن لم يكن أعظمها عند العراقيين - يوم الشعبية، ذلك اليوم الذي استنفر إليه أهل البلاد، من حاضر وباد؛ قَلت قبيلة أو مدينة لم يشهده منها رجل أو رجال؛ أضف على ذلك عظيم محنة القوم فيه؛ قد رابطوا عدة شهور في (النخيلة) صابرين على أشياء لم يُصبر على من جذب

(١) فريق آل مزهر الفرعون / ثورة العشرين / ٧٤.

(٢) عبدالله الفياض / الثورة العراقية الكبرى / ١٢٢ / بغداد / ١٩٣٦م.

(٣) ظ: محمد رضا الشبيبي / ديوان الشبيبي / ٤٧-٤٩.

المكان، وشظف العيش، إلى أن مُنوا بذلك الخِذلان العظيم. وبمجملة انه في أوائل صفر سنة ١٣٣٣هـ = ١٩١٤م. ورد بغداد «أمير الآلاي سليمان عسكري بك» متقلداً قيادة الجيش العثماني العامة في العراق، صارفاً «لجاويد باشا» ومعه فريق من الجنود التركية المدربة انحدر بها إلى «القرنة» وواقع الإنجليز هناك في منتصف صفر المذكور، فجرح جراحاً بليغة، أعيد بسببها على بغداد، وأقام في المستشفى شهرين لم ينجح فيه علاج، لكنه أبي مع هذا أن يستقيل، وثابر على تدبير الأمور الحربية، متوقفاً البرء التام. ولما طال ذلك عليه قاد الجيش بذاته على مهاجمة الإنجليز في وادي الشعيبة دوين البصرة، استخفاً بعدوّه، واعتداداً برأيه، وثقة من نفسه ومن جنده بالفوز والانتصار؛ فأعدت له مَحفة خاصة حمل عليها من بغداد إلى الناصرية، بعد أن تقدم بأن يحتشد فيها الجيش، وكان مؤلفاً من ثلاث كتائب (الألايات) واحدة تركية؛ واثنان ملفقتان من العرب العراقيين والأكراد، معها عدّة رشاشات ونحو أربعين مدفع سهل، قام هذا الجيش في منتصف جمادى الأولى سنة ١٣٣٣هـ = ١٩١٥م من الناصرية على المعسكر العام في (النخيلة) مشياً على الأقدام، وبعد يومين أو ثلاثة أيام من وصولهم زحفوا بإيعاز من القائد العام هم والعرب المجاهدون على (الشعيبة) وهاجموا الإنكليز وهم فيها أمنع من عُقاب الجو صباح الاثنين ٢٧ من الشهر المذكور هجوماً شديداً دام يومين من غير أن يعود عليهم بطائل، إلى أن ارتدوا فاشلين، فاعتنم الإنكليز من القوم انقطاع الطرق والمواصلات بهم، وغلبة الإعياء والتعب عليهم، وسوء اثر العطش والجوع فيهم، فاتبعوهم وناجزوهم لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ١٣٣٣هـ أو صباح الأربعاء ٢٩ منه مناجزة شديدة هزم في آخرها العثمانيون وتركوا نصف ذلك الجيش بين قتيل وجريح وأسير وفقيد، وانتحر «سليمان عسكري بك» قائدهم العام.

نَبْتُ الرُّبَا حُمْرُ أَشْلَاءٍ وَأَوْرَادٍ مَثْوَرَةٌ لَكَ بَيْنَ الْفِصْرِ فَالْوَادِي
دُونِ «الشُّعْبِيَّةِ» أَجْسَادٌ مُوزَّعَةٌ فِي الْبَيْدِ تُوْزِعُ أَعْضَاءَهُ بِأَجْسَادِ

علائقاً بين أسيافٍ وأغمادٍ
 فيها أصيبوا وشجوا شجَّ أوتادٍ
 خالي الحقايب من ماء، ومن زادٍ
 والجندُ عرثانُ ملتح الحشا صادي
 متروكة نهب أيدي الرائح العادي
 لا في بطونِ الذرِّ أكثرها
 ولم تكن ذات إبراقٍ وإزعادٍ
 بعدةٍ وكثرناهم بأعدادٍ
 حمرُ الحماليقِ من تُركٍ وأكرادٍ
 واستبدلوا الوحش من أهلٍ وأولادٍ
 في الرملِ كلفةً إغذاذٍ وإسنادٍ
 تنزُّو غواربُ أمواجٍ وأزبادٍ
 في البرِّ -جملة أسوارٍ وأسدادٍ
 من قبل تجهيز أعوانٍ وأمدادٍ
 قد أوهمتنا عقوداً فوق أجسادٍ
 مخيفةً بعد أنقالٍ وأزوادٍ
 من بعد ما أوردوها شرَّ إيرادٍ
 باتت مناياهم منهم بمرصادٍ
 على «الشُعبيَّة» من زوراءٍ «بغدادٍ»
 مُعطلُ الجسمِ مُلقى فوق أعوادٍ؟
 مَجْرَى كفاةٍ بأمرِ الحربِ قوادٍ

وفي «التخيلة» أرماس موثقة
 للترك نمة أوتاد، وأخيبة
 جيش أقام ثلاثاً في خنادقها
 ماء الفراتين موفورٍ وحبهما
 العلة الغصة المجنى التي نهبت
 أقواتنا في بطونِ الذرِّ أكثرها
 صم مدافعنا ما أمطرت حمماً
 تنازل القوم فاتوا ذرع فيلقنا
 عشرون ألف عراقي ومثلهم
 محمرون نجافوا عن ديارهم
 مكابدون على حالي حفاً ووجى
 بحر من الرمل قامت عن تعظمطه
 يهاجمون -وهم رجالة كُشف
 فل العدو جناحينهم وقلبهم
 إن الدماء التي حلت نُحورهم
 تلك الجماهير لاثلوي على أحدٍ
 الصادرون وقد أكذت مطامعهم
 والراصدون من «الفيحاء»^(١) ثروتها
 وقائد حملوه في محفته
 أفاتك بالعدى جيش مدبره
 جرى «سليمان» في استعجالِ مصرعه

(١) كان هدف حملة سليمان عسكري الاستيلاء على مدينة البصرة.

قَادَ الْأُكُوفَ فَأَرْدَاهَا وَأَتْبَعَهَا فِي الْحَالِ نَفْسَ أَبِي غَيْرِ مُتْقَادٍ
 مُخَاطِرٌ عَاشَرَ أَعْمَاراً لِأَنَّ لَهُ فِي إِثْرِ كُلِّ نَحَاةٍ يَوْمَ مِيلَادِ
 وَكَثْرَةَ أَعْجَبَتْهُ مِنْ كِتَابَتِهِ فَرَاحَ لِلنَّصْرِ فِيهَا أَيُّ مُرْتَادٍ
 كَأَنَّهُ وَالْمَقَادِيرَ الَّتِي سَبَقَتْ عَلَى مُقَرَّرٍ مِيقَاتٍ وَمِيعَادِ
 ظَنَّ الْأُكُوفَ مِنَ الْأَعْرَابِ تَعَصُّدُهُ فَكَانَ مَا ظَنَّهُ فَتَأَ بِأَعْضَادِ
 إِنَّ الْقُصُورَ الَّتِي حَلَّتْ عِمَارَتُهَا أَمَسَتْ صَوَامِعَ رُهْبَانٍ وَعَبَّادِ
 سَقِيًّا لُوَادِيكَ لَا مِنْ مَاءِ غَادِيَةٍ كَأَنَّ أَجْزَاءَهَا عُلتْ بِفِرْصَادِ

ثورة النجف على الإنكليز كما يصورها الشبيبي:

لعلّ الشبيبي أصدق من صور أحداث النجف الأشرف في الثورة على الإنكليز،
 وعنده أن ثورة النجف الأشرف ضد الإحتلال البريطاني كانت على مرحلتين:

الأولى: وقد عبّر عنها بالثورة على الإنكليز في النجف^(١).

والثانية: عبّر عنها بالثورة العظمى في النجف الأشرف^(٢).

وقد تحدث الشيخ الشبيبي عن المرحلة الأولى بإيجاز، ولكنه غطّى أغلب
 أحداثها الرئيسية بأمانة، باستثناء تحامله - ولو جزئياً - على السيد محمد كاظم
 اليزدي لأنه يرى الحكمة والأناة بديلاً عن العنف الثوري قبل أوّانه، ويرى -
 أي اليزدي - أن القرارات المرتجلة التي أدت إلى قيام الحاج نجم البقال وجماعته
 في مهاجمة السراي، وقتل الكابتن مارشال فاشلة في خططها الآنية والمستقبلية،
 وأن أمثال هذه الأحداث سوف تمكّن الإنكليز بالنهاية إلى إحكام السيطرة على
 العراق، وقد حصل ما توقعه، فأفاق من وقف ضده، ولو بعد حين، وهذا
 ما حدث عقب الثورة على الإنكليز في ١٨/آذار/١٩١٨م وهي المرحلة اللاحقة

(١) ظ: محمد رضا الشبيبي / ثورة النجف ضد الاستعمار البريطاني ١٩١٧-١٩١٨م /
 مذكراته / تحقيق ولده أسعد / الثقافة الجديدة / عدد ٢ / تموز / ١٩٦٩م.

(٢) المرجع نفسه / ٢٩٣.

لما عبّر عنه بالثورة العظمى حينما تحدث بكل جزئياتها وتفصيلاتها حدثاً بعد حدث، بما يعتبر وثيقة تاريخية مهمة، وهو بهذا يرى الثورة الأولى هي العظمى في ١٩/١١/١٩١٧م والثورة الثانية ما قام به الحاج نجم البقال في آذار ١٩١٨م، وأحاول أن أعطي ملخصاً معمقاً لما قدمه الشبيبي في الموضوع بذكر أبرز معالمها معلقاً ومعقّباً ومصححاً مع مراعاة الاختصار.

يقول الشبيبي: «ثار أهل النجف على الإنكليز ضحى يوم الثلاثاء ٤/صفر/١٣٣٦هـ = ١٩/تشرين الثاني/١٩١٧م. وتجمهروا أمام السراي (خان عطية أبي كلل) نساءً ورجالاً، وتظاهروا بالسلاح، ونهبوا السراي، وأهانوا المستخدمين، وأطلقوا المساجين، وتفصيل ذلك: أن الكابتن (بلفور) عامل الإنكليز على الشامية والنجف، ورد من أبي صخير، وصادف وروده ورود الميجر (باولي) عامل كربلاء^(١). فأرسلا في طلب زعماء المتغلبين إلى السراي، وحضر منهم: عطية أبو كلل، وكاظم صبي^(٢). فطالهما وبقية الشيوخ بردّ منهوبات ركب (عترّة) الذين خصّهم الإنكليز بالامتياز في النجف... فتتصل المذكوران من ذلك، وتقدما بالأعدار، وبلفور يردد ويزيد، ويتوعد ويتهدد، وقد زبرهما وسبهما وأهانهما بضروب من الإهانات حتى اضطرها على مقابله بالنكر، وانتهراه وسبّاه وهدّاه. ثم نادى عطية أبو كلل بالحرس الأهلي -الشبانة- أن يتفرقوا ففرقوا، وأشار إلى المسلحين غيرهم أن يهجموا على دار الحكومة، ففعلوا وتجمهر الفقراء والجياح على السراي وهم يسبّون الإنكليز ويلعنونهم ويظهرون التشفي منهم، فاسقط حينئذ بيد الإنكليز، وعجّل حاكم كربلاء بالفرار إليها على سيارته، وأخذ (بلفور) بحماية المسلحين إلى دار حميد خان وكيل الإنكليز في النجف، وهو خائف نادم على ما فرط منه^(٣).

(١) كانت الشامية محافظة، والنجف والكوفة تابعا لها، والعامل يعني به المحافظ.

(٢) يقصد الشبيبي بالمتغلبين زعماء المحلات الأربع في النجف: العمارة/الحويش/المشراق/البراق. ويريد بذلك من له الغلبة في القرار والزعامة.

(٣) محمد رضا الشبيبي / ثورة النجف ضد الاستعمار البريطاني / الثقافة الجديدة / ٢٨٦.

وكان هجوم عطية أبي كلل بالملحين سبباً في تسرّب الثورة إلى أبي صخير وطرده القائمقام الإنكليزي منها، ومهاجمة الحرس من قبل جماعة من النجفيين، ونهبوا السراي عتاداً وذخيرة وأثاثاً.

وهنا يشير الشيبلي إلى تحرك (بني حسن) وهجومهم بالسلاح على الإنكليز في الكوفة، إلّا أنهم اكتفوا بأخذ ألف ليرة من قائمقام الجسر (الكوفة) وتركوه، وقد أقفلت الأسواق. وثار أهل (الأبيض) و(الحزم) على مستخدمي الإنكليز ونهبوهم، وثار آخرون^(١).

وأعلن الإنكليز في النجف الأحد ١٠/٢/١٣٣٦هـ = ٢٥/١١/١٩١٧م قطع غلات الفرات عن بغداد، وتوفير الحبوب للنجف من الحلة والهندية، وقطعت الطرق، واضطرب حبل الأمن بعد ثورة النجف، وكثر النهب والسلب والقتل من قبل الأعراب، لكن أسعار الغلات والحبوب والتمور تراخت في الجملة، وهبطت الأسعار.

ووصل السير برسي كوكس الحاكم البريطاني العام إلى النجف عصر الثلاثاء ١٩/٢/١٣٣٦هـ = ٤/١٢/١٩١٧م ومعه جماعة من ضباط الإنكليز، وشرعوا بالقبض على من له زعامة وكلمة نافذة في قومه في النجف، وكذلك صنعوا في بغداد والكاظميين وكربلاء. وكان قدوم كوكس لإرهاب النجف والقبض على زعمائها، وفي الكوفة أرسل على الزعماء للنجفيين للحضور، فاعتذر بعضهم واعتذر آخرون، فلم يقبض عليهم ليقبض على الجميع... وأخذ على الزعماء أن يحضروا من الغد إليه فلم يحضروا، وكان أشد القوم امتناعاً عطية أبو كلل، وعاد كوكس إلى بغداد خائباً دون أن تنطلي حيلته على النجفيين^(٢).

(١) محمد رضا الشيبلي/ ثورة النجف ضد الاستعمار البريطاني/ الثقافة الجديدة/ ٢٨٧ بتصرف واختصار.

(٢) ظ: مذكرات الشيبلي/ ٢٨٨-٢٨٩ بتصرف واختصار.

ولدى فشل كوكس في مهمته في النجف، جهّز نحوها جيشاً في أوائل ربيع الأول سنة ١٣٣٦هـ، ووصلت طلائع الجيش إلى الكفل في خمسمائة إنكليزي... وارتادوا مواقع لعسكرهم قريباً من (كري سعدة) ووردت الكوفة عصر الأربعاء ١٩/٣/١٣٣٦هـ = ١٩١٨/١/٢ مقدمة جيش إنكليزي، وشوهدت خيامهم بظاهر السهلة، ثم عسكروا في شريعة التبن من شرايع فرات الكوفة.

وتذمر الرأي العام في النجف من الإنكليز، وانقلبوا ضدهم بعد أن أكثروا المراسلة لزعماء النجف بالحضور إلى بغداد من قبل كوكس... فلم يحضروا، ووصلت (مس بل) معاونة الحاكم السياسي الإنكليزي إلى النجف، واجتمعت بالنجفيين من دون طائل في الوقت الذي وصلت فيه المؤن والذخائر الحربية إلى الكوفة والكفل تبعاً^(١).

وسرت الثورة من النجف إلى السماوة، وانهمز مستخدمو الإنكليز فيها، واضطر الإنكليز إلى إرسال جند وبواخر حربية لإصلاح الحال في السماوة وما فوقها إلى الشنافية^(٢).

وتطورت الحال بين النجفيين والإنكليز إلى القتال، فقد ظهرت ضحى السبت ١٢/١/١٩١٨ سرية بثلاثمائة من فرسان الإنكليز في ظاهر النجف، فنفر النجفيون، وأطلقوا الرصاص بشدّة، وانسحبوا وتظاهروا يوم الاثنين غرة ربيع الثاني ١٣٣٦هـ، وأطلقوا النيران على الإنكليز، وظهرت في سماء النجف طائرة لم يتردد النجفيون بإصلائها ناراً حامية، واجتمع رؤساء المحلات بالإنكليز وأظهروا الطاعة باستثناء عطية أبي كلل، فقد أصرّ على المقاطعة، وغادر النجف، وخرج كريم سعد راضي في ١٧/٢/١٩١٨م وبث الإنكليز

(١) مذكرات الشبيبي / ٢٩٠-٢٩١ بتصرف.

(٢) المرجع نفسه/٢٩١.

سراياهم وخيلهم مما يلي النجف وكربلاء إلى الشنافية، وشرعوا بحفر الخنادق وكان غرضهم حصار النجف^(١).

فتنادى الجناح العسكري لجمعية النهضة الإسلامية، وتعاقدوا على تبييت الإنكليز بقيادة البطل الباسل الحاج نجم البقال، فجر الثلاثاء ٦/جمادى الآخرة ١٣٣٦هـ = ١٩/٣/١٩١٨م في حدود الأربعين مسلحاً عن طريق مقبرة النجف، وتسلسل منهم حوالي العشرة أو أكثر قليلاً مترين بزي الشرطة الأهلية، وقتلوا الحارس، وخرج الكابتين (مارشال) حاكم النجف وأطلق النار من مسدسه، فجرح صادق الأديب من بين المهاجمين، وتكاثروا على مارشال فقتل، وتكاثرت الإنكليز يطلقون النار على المهاجمين، وعاد النجفيون أدراجهم... وهجم الثوار على دار الحكومة مع جمهور الناس، فنهوا ما فيها من الأثاث، وأشعلوها، وقلعوا الأبواب... ولم يحن ضحى الثلاثاء إلاّ و(بلفور) والجنود والشرطة محصورون في الخان، والنجفيون قد احتلوا المدايح والمسالخ جنوب الخان، وتعاطوا مع من في الخان إطلاق النار طول ذلك النهار محاولين بذلك الإستيلاء على مقرّ الحكومة، ولما خيم الظلام هدأ الفريقان، وعاد النجفيون إلى المدينة ولم يطلقوا لاهم ولا من في الخان طلقة واحدة^(٢).

وقد نهد بهذه الحادثة أهل محلة المشرق، وتألقت لجان من الأعيان والعلماء للتوسط بين الفريقين، فما نجحوا في ذلك، وقد كان المتظاهرون ضد الإنكليز ضحى هذا اليوم سعد الحاج راضي وأولاده، والحاج نجم البقال ومن تبعهم، وشايعهم فتیان بقية الأحياء، واتفق مع الوار الصبيّ والرماحي (كاظم صبي/ عباس الرماحي) وغيرهما على مدافعة الإنكليز وغيرهما من هل محلة العمارة والحويش، فخرجوا ليلة الخميس خارج السور، واشتدّ إطلاق النار بينهم وبين

(١) المرجع نفسه/٢٩٢.

(٢) مذكرات الشيببي / ٢٩٤ بتصرف.

الإنكليز. وفي صباح الخميس ١٩١٨/٣/٢١ عقد المرجع الديني السيد محمد كاظم اليزدي محفلاً كبيراً يضم العلماء والأعيان، وفاوضوا أركان الثورة، فطلبوا الأمان الحقيقي من قبل الإنكليز، فلم يضمن لهم أحد ذلك^(١).

وكانت هذه الثورة مما وحد أمر النجفيين عند الإنكليز، وقد لاقت النجف الأمرين في ذلك وفرض عليها الحصار ثلاثة وأربعين يوماً، وهلك كثير من الناس جوعاً، وشح الماء حتى شربوا ماء الآبار.

وتشكلت محكمة عسكرية برئاسة (الجمن) لمحاكمة أعضاء الحركة، وكان قد قبض عليهم أعوان الإنكليز، وسلّموا إلى مهدي السيد سلمان.

«وكان الحاج نجم البقال قد قبض عليه فأهانته مهدي السيد سلمان، وقرعه أي تقريع وسبّه... وكذلك الحال مع الآخرين»^(٢).

وندع الشبيبي يتحدث عن المحكمة، يقول:

«وفي مساء اليوم الثامن عشر من شعبان دعي إلى جسر الكوفة مشايخ النجف الموادعون والمختارون، ودعا الإنكليز قسماً من مشايخ عشائر الشامية، فحضر الجميع في جسر الكوفة، وطلب الإنكليز أن يشهد أولئك شفق «المحرمين» يوم ١٩/شعبان/ قبل طلوع الشمس/ عام ١٣٣٦هـ = ٣٠/مارس/١٩١٨م.

وقد استحضر الإنكليز في جسر الكوفة باخرة مصفحة ومسلحة رست تجاه الخان الذي اعتقل فيه «المحرمون» ووجهوا مدافعهم إلى جهتي الشرق والغرب، وتحضر الجنود في معاقلمهم، ولزموا متاريسهم، ومنع الحرس اجتماع الناس، فكان السكون في جسر الكوفة مخيفاً لم يعهد مثيل له في العراق...

(١) مذكرات الشبيبي / ٢٩٧ بتصرف.

(٢) مذكرات الشبيبي / ٣١٩.

وحقاً إن من يشهد ذلك المشهد الحربي يعتقد أن الإنكليز صمموا على تخريب الجسر لاسيما وأن إعداد تلك العدة كان على حين غرة، ولم يفهم الناس ماذا أراد الإنكليز من تلك الأعمال الفجائية.

«وما غربت الشمس يوم الأربعاء حتى نصبت المشنقة في وسط الخان (خان علي نصر الله في الكوفة) وما طلعت الشمس يوم الخميس (١٩١٨/٥/٣٠ م = ١٣٣٦/٨/١٩ هـ) حتى تم شنق القوم بأسرع ما يمكن من الوقت، فخرج من الخان جماعة المدعويين مصفرة وجوههم ممقعة ألوانهم. وبعد برهة قصيرة أمر الإنكليز بنقل جثث المصلوبين إلى حي تدفن، فحملوها في عربة من عربات (الترامواي) ونقلوها إلى الكوفة حيث غسلت وكفنت، وفي ليلة الجمعة نقلت إلى مقبرة النجف، فدفنت الجثث، وقد تعهد ذلك جماعة من الشبان، ولم يحضر غسلهم ودفنهم واحد من النجفيين»^(١).

وكانت المحكمة العرفية العسكرية الإنجليزية قد حكمت بإعدام ثلاثة عشر نجفياً، خفف عن أحدهم على السجن المؤبد، وهو عزيز الأعسم، وفرّ الآخر إلى إيران بعد اختفائه في الآبار، وهو الأستاذ عباس الخليلي. وقد نفذ حكم الإعدام بأحد عشر نجفياً هم:

- ١- كاظم صبي.
- ٢- عباس علي الرماحي.
- ٣- علوان علي الرماحي.
- ٤- كريم الحاج سعد الحاج راضي.
- ٥- أحمد الحاج سعد الحاج راضي.
- ٦- محسن الحاج سعد الحاج راضي.

(١) مذكرات الشبيبي / ٢٢٨.

٧- «عندهم سعيد» وهو ابن الحاج سعد الحاج راضي كما سمعت من الأسرة، وأمه نوبية.

٨- محسن أبو غنيم (أحد قتلة الكابتن مارشال).

٩- الحاج نجم البقال (زعيم هذه الحادثة)

١٠- مجيد مهدي دعييل (المشهور أنه هو الذي باشر قتل مارشال)^(١).

١١- جودي بن عيسى ناجي.

وحكمت بإبعاد (١٠٣) كأسرى حرب على الهند، وغرامة خمسين ألف

روبية من أهالي النجف، وتسليم ألف بندقية للإنكليز.

الشبيبي وثورة العشرين:

لم تحقق ثورة النجف على الإنكليز أي نصر عسكري أو سياسي، ولكنها حققت نصراً مستقبلياً، فهي باندلاعها قد وضعت الأسس العملية لمناهضة الإنكليز، وفي ضوء عمل المخلصين تفجرت ثورة العشرين، إذ بدأت عدة محاور وطنية في العراق تعمل على الإطاحة بالإنكليز في محاولة لتشكيل حكم وطني.

وكان أبرز هذه المحاور كالاتي مع الاختصار المعمق:

١- محور النجف الأشرف و كربلاء المقدسة بقيادة الشيخ محمد تقوي الشيرازي قائد ثورة العشرين، وشيخ الشريعة الأصفهاني، وكان الشيرازي يُراسل سراً حول الثورة وهو بعد في سامراء ثم انتقل إلى كربلاء باقتراح من الثوار لثلا يحصل التعارض بين رأيه ورأي المرجع الأعلى السيد محمد كاظم اليزدي الذي لم يقتنع بمنازلة الإنكليز لعدم توافر التسليح الكافي لمناهضتهم من جهة، ولثلا تكون لهم الغلبة فتذهب الدماء هدراً، وهكذا كان، ولثلا تحكّم البلاد من قبلهم بشكل مباشر أو غير مباشر في حالة إخفاق الثورة، وهكذا كان.

(١) يرى الشبيبي أن مجيداً هذا قد أطلق النار على مارشال مرتين / المذكرات / ٣١٩.

وقد بدأ العمل في النجف بصورة ظاهرية ينهض به علماء الدين وفي طليعتهم آل الجزائري، وآل الشيخ راضي، وآل الجواهري، وآل بحر العلوم وآل كمال الدين، وآل الشبيبي يدعمهم الشباب المثقف، والأعيان والتجار وشخصيات النجف الأخرى، وكان شيخ الشريعة هو الرمز الذي تلتف حوله هذه الشرائح العلمية والثقافية والمتحفزة في العمل السياسي للثورة.

٢- محور الفرات الأوسط، وقد عمل رؤساء القبائل العربية في الفرات إلى جنب العلماء الأعلام وشباب التحرر الوطني في النجف الأشرف، وفي طليعتهم، آل فتلة، وآل الياسري، وأبو طبيخ، والظوالم، وآل فرعون، والعوابد، وآل إبراهيم، وآل مكوטר، وآل شبل، وآل عيسى، والغزالات، وبنو حسن، والحواتم، وسواهم ممن لانستطيع حصرهم.

وبعض زعماء هذه القبائل هم الذين عقدوا اجتماعهم في النجف برئاسة الشيخ عبد الكريم الجزائري في النصف من شعبان عام ١٣٣٨هـ — لتدارس الوضع العراقي، وقرروا تشكيل وفد إلى كربلاء لإطلاع الشيخ الشيرازي على مجريات الأمور، وكان قد وصل إليها توأ من سامراء.

وكان هذا الوفد منفذاً لما تمخض عنه اجتماع وفد النجف الأشرف مع محور بغداد والكاظمية في ٣/شعبان/١٣٨٨هـ.

وبلغني من شيوخنا أن أول اجتماع كان لاتخاذ القرار بقيام الثورة ضد الإنكليز، كان في دار السيط كاطع العوادي في النجف الأشرف، وهو الذي ترأسه الجزائري.

٣- محور بغداد والكاظمية المقدسة، وكان بقيادة الشيخ مهدي الخالصي الكبير والسيد مهدي الحيدري من العلماء، وحضره من السياسيين الحاج محمد جعفر أبو التمن، والسيد محمد الصدر، ويوسف السويدي وعلي البارزكان، وطبقة قليلة من الشباب الناهض.

وقد عبّر عن تعاطف هذا المحور مع الثورة الوطني الغيور الحاج محمد جعفر أبو التمن لدى زيارة وفد النجف الأشرف لبغداد واجتماعه بهم، فقال: «إن رجال بغداد مستعدون للعمل، وأنهم لا يخرجون عن رأي العلماء والرؤساء»^(١).

هذه المحاور الثلاثة كان الأساس في التمهيد لثورة العشرين مع الألوّف من الفراتيين، إلا أن بغداد لم تفرّ بالتزاماتها حينما قامت الثورة، باستثناء القادة الثلاثة: الخالصي والحيدري وأبي التمن، مما أوقع النجفيين في حرج، إلا أن صدق الزعامة الدينية والوطنية في النجف الأشرف وكربلاء، وتصميم الفراتيين وعشائريهم، فجّر ثورة العشرين في ٣٠/٦/١٩٢٠م.

وكانت رغبة النجف الأشرف بكل طبقاتها ومن وراءهم من العشائر الفراتية ملحة بإنشاء حكومة عربية في العراق، وعملوا لذلك سراً وعلناً. وأدرك الإنكليز ذلك فحاولوا إحباطه، ووجهوا أسئلة للعراقيين عامة، وللنجفيين خاصة في ٣٠/تشرين الثاني/١٩١٨م.

وهذه الأسئلة قد يعبر عنها بـ«مبادئ ولسن» وفيها غمز ولمز في أمرين مهمين: الأول؛ فصل الموصل عن العراق وإحاقه بتركيا.

الثاني: جعل العراق تحت الوصاية الإنكليزية بأمر عربي يختاره الإنكليز.

والأمر المهم غير المعلن هو أن يحكم الإنكليز العراق.

وكانت أسئلة ولسن بصيغة إستفتاء على النحو الآتي^(٢):

١- هل ترغبون بتأليف حكومة عربية مستقلة تحت الوصاية الإنكليزية،

ليمتد نفوذها من أعالي الموصل إلى خليج البصرة؟؟

٢- هل ترغبون أن يرأس هذه الحكومة أمير عربي؟

٣- من هو الأمير الذي تختارونه لرئاسة هذه الحكومة؟

(١) حسن الأسدي / ثورة النجف / ٢٨٢.

(٢) ذكر الأسئلة الشيخ جعفر محبوبة، وهو شاهد من العصر / ماضي النجف وحاضرها / ٢٥٨.

وما أن وقف العراقيون على هذه الأسئلة حتى بادر قائد الثورة العراقية الشيخ محمد تقي الشيرازي بإصدار فتواه بعدم جواز انتخاب غير المسلم، أو تحكيم غير المسلم بشؤون المسلمين.

«وكان لهذه الفتوى أثرها العظيم في تغيير مجرى السياسة البريطانية في العراق، حيث أحدثت رجّة في نفوس الحكّام الإنكليزي»^(١).

وأخذ الهوس الكولونيل ولسن، فقصّد النجف الأشرف بنفسه ليقف على آراء القوم من العلماء والمثقفين ورؤساء العشائر.

وكان ولسن متعجباً يريد أن يثبت للقيادة الإنكليزية أنه رجل الموقف، رغم ما أصيب به من نكسات، فأحضر معه الميجر (نوربري) حاكم الشامية، ودعا العلماء والزعماء للحضور في سراي الحكومة، وألقى عليهم خطاباً أوضح فيه وجهة نظر البريطانيين في الأسئلة المذكورة، وطلب باسم الحكومة البريطانية الإجابة عنها، وكانت لغته لغة تهديد ووعيد.

وقد أحيط السراي بالشباب النجفي الثائر لئلا تغلب آراء عملاء الإنكليز - وقد أحضروهم - على آراء العلماء والمتحررين، والناس على رؤوسهم الطير. فنهض الشيخ محمد رضا الشبيبي فخطب ولسن باسم العراق:

«إن الشعب العراقي يرتأي أن الموصل جزء لا يتجزأ من العراق، وإن العراقيين يرون من حقهم أن تتألف حكومة وطنية مستقلة استقلالاً تاماً، وليس فينا من يفكر في اختيار الحاكم الأجنبي»^(٢).

وحينما انتهى خطاب الشبيبي ثارت نائرة ولسن بما يصوره مؤرخ النجف الشيخ جعفر محبوبة - وهو حاضر - بقوله:

«فعاظ هذا الخطاب البليغ الحاكم فقاطع كلام الشبيبي، وضرب بيده على المنضدة التي كانت عنده، وكلّمها حاول أن يعرف رأي بقية أركان الجمعية

(١) حسن الأسدي / ثورة النجف / ٢٦٥.

(٢) جعفر محبوبة / ماضي النجف وحاضرها / ٢٥٨.

الحاضرة لم يتمكن، إذ لم يعترضوا على رأي الشبيبي، وأتى لهم ذلك وهو الرأي الصائب»^(١).

وكان ما قاله الشبيبي ردّ النجفيين، بل الفراتيين ووطنّي العراق على مبادئ ولسن وأسئلة الإنكليز.

يقول الأستاذ جعفر الخليلي رحمه الله في هذا الصدد:

«ولأول مرة يدوي اسم الشبيبي محمد رضا في الأوساط دويماً تمتاز له الأندية والأوساط النجفية، وكان ذلك يوم جمع الحاكم الإنكليزي الكبير الرؤساء في النجف والعشائر في سراي النجف لاستمالتهم وأخذ موافقتهم على صورة الحاكم الذي يریده الإنكليز للعراق قبل قيام الثورة الكبرى... فهاجت النجف وماجت، واقتدت بها العشائر، وكان وراء هذا الهياج الشيخ عبد الكريم الجزائري والشيخ عبد الرضا الشيخ راضي، والشيخ جواد الشبيبي، ومن رؤساء القبائل كان السيد علوان الياسري والحاج عبد الواحد الحاج سكر وغيرهما ممن أيدوا الشبيبي، واعتبروه ممثلاً عن النجف والعراق أجمع، وهذا ما حال بين السلطة المحتلة وبين اتخاذ الإجراءات في توقيف الشيخ محمد رضا الشبيبي أو نفيه»^(٢).

وكان مستوى التخطيط متبلوراً بين العلماء والوطنيين وزعماء الفرات لتهيئة الثورة، إذ بلغ الإستياء من الإدارة البريطانية في العراق أقصاه، وأخذ بالتصاعد نظراً لغطرسة الإنكليز، فكانت الاجتماعات والاحتجاجات تأخذ طابعاً استراتيجياً ومركزياً في التخطيط للإطاحة بالإنكليز، وكان الخيار المفضل قيام حكومة عربية وطنية مستقلة يرأسها أحد أئمال شريف مكة الحسين بن علي، وتشكل لهذا الخيار مكتب القيادة السياسية للثورة من قبل السياسيين الوطنيين على النحو الآتي:

(١) المرجع نفسه / ٢٥٩.

(٢) جعفر الخليلي / هكذا عرفتهم ١٢٠/٢ / دار المعارف/ بغداد.

- ١- الشيخ محمد رضا الشبيبي.. رئيساً
- ٢- السيد سعيد كمال الدين.. عضواً
- ٣- السيد حسين كمال الدين.. عضواً
- ٤- الشيخ باقر الشبيبي.. عضواً
- ٥- السيد محمد رضا الصافي.. عضواً
- ٦- السيد سعد صالح جريو.. عضواً
- ٧- السيد محمد عبد الحسين.. عضواً
- ٨- السيد عبد الرزاق عدوة.. عضواً

وأول اجتماع عقد لهذه القيادة كان «ليلة الأحد ١٧/ ربيع الأول/ ١٣٣٧هـ في دار شيخ الشريعة... ووقعوا فيه على عريضة زعماء الشامية مع زيادة في المطالب، وتوجيه لها»^(١).

وهذه العريضة تتحدث عن رغبة قيادة الثورة العراقية في اختيار أحد أنجال الشريف ملكاً على العراق، وقررت القيادة إيفاد الشيخ الشبيبي إلى الحجاز لمفاتحة الشريف حسين بالأمر، ومعه ثلاث وثائق؛ وهي عبارة عن عرائض ومضابط موقّعة من ثلاث جهات:

الأولى: موقّعة من علماء النجف الأشرف وكرهلاء المقدسة والكاظمية المشرفّة.

الثانية: موقّعة من قبل رؤساء العشائر والفرات، وهم القوة العسكرية الضاربة.

الثالثة: موقّعة من قبل الشباب العربي المسلم في النجف الأشرف، وهم في مكتبهم السياسي برئاسة الشيخ محمد رضا الشبيبي نفسه.

(١) علي الخاقاني/ شعراء الفري ٨/٩/ المكتبة الحيدرية ومطبعتها/ النجف الأشرف/ ١٩٥٦م.

وكانت الدعوة إلى الملكية هذه في قبال الدعوة على الجمهورية التي رشح لها «المستر فلي» طالب النقيب رئيساً، وأرسل سالم الخيَّون شيخ بني أسد للنحف الأشرف مروّجاً للفكرة فرفضت^(١).

وأما الهدف من حمل رسالة الشبيبي ووثائقها إلى الحجاز، فهو شعور الثوار قبل أن يدخلوا المعركة، أن الإنكليز بأزاء تزييف حقائق الأشياء، وقد جمعوا حولهم الإنتهازيين والموالين لهم والعملاء، ممن اشترت ضمائرهم، وقد شاهدوا شباب النحف الثائرين منفيين إلى الهند، والمحكمة العسكرية أعدمت أحد عشر ثائراً، ورأوا بأمر أعينهم ماحلّ في البلاد والعباد من حصار النحف، ومصادرة قوت الشعب في القصبات الأخرى، وشاهدوا الإنكليز وانتفاحهم في الوقت الذي قال فيه (الجنرال مود) فاتح بغداد: «جننا محررين لا فاتحين» وقد أثبتت الوقائع أنهم جاؤوا مستعمرين لا محررين، وقد جعلوا إدارة العراق بأيديهم وحدها، وتصدقوا بفتات بعض المناصب الثانوية على عملائهم في الديار العراقية.

وهذا كان تسفير الشبيبي ذا هدف رفيع، وهو اسماع أصوات الثائرين في النحف والفرات وكربلاء والكاظمية إلى مسامع الهيئات الدولية والمنظمات العالمية والشعب العربي والعالم الإسلامي.

وكان هذا هدفاً مركزياً، ولو ظفروا بأحد الأنجال لكان مكسباً على كل حال!!

ويرى الأستاذ جعفر الخليلي أن الشبيبي قد وضع تقريراً مفصلاً عن أوضاع العراق بنفسه، وعن مهمته «بالمداولة مع الميرزا محمد رضا الشيرازي - نجل قائد الثورة- والشيخ عبد الكريم الجزائري... وعلى هذا يكون الشبيبي أول من حدد رغبة الاستقلال، وأول من صورّ أمانيه في قيام هذه الدولة...

(١) ظ: تفصيل الدعوة إلى الجمهورية في هذا لتاريخ من قبل الإنكليز في: ثورة النحف/ ٣٧٩ وما بعدها للأستاذ حسن الأسدي.

وأحسب أن نصوص التقرير محفوظة في سجلات البروتوكولات في مؤتمر الصلح، أو لدى وزارة الاستعمار البريطاني»^(١).

وارتأى الشيبسي أن يعضد مهمته بالسفر إلى الناصرية أولاً، لحمل رؤساء المنطقة وأعيان الغرّاف ووجوه الناس هناك على توقيع ما يحمل من وثائق، ومن ثم يقصد شطر الحجاز، وهكذا كان، «ولقي من الشيخ علي الشرقي - وكان قد سبقه على المنتفك - ومن السيد عبد المهدي المنتفكي في أبي هاون، ومن الشيخ محمود الخليلي - وقد أوفد من قبل المرزا الشيرازي - مساعدةً جدّ ثمينة في إنجاز مشروعه، ومن هناك دخل البادية بصحبة الشيخ إبراهيم إطميش»^(٢).

ووصل الشيبسي الحجاز وقصد مكة، وطلب مقابلة الشريف حسين، وندع الكلام هنا للشيبسي متحدثاً عن ذلك؛ قال:

«زارني بعض مرافقي الملك، فرحبوا بي من قبل الديوان، وأبلغوني أن الملك يرغب باستقبالي غداً صباحاً، فذهبت في الوقت المعين إلى القصر حيث استقبلني الملك حسين في ديوانه، وهو يقع في الدور الثالث من قصره وفي الجناح الغربي منه، وبعد تبادل التهاني والسلام؛ بسطتُ الحالة بتفاصيلها كما هي في القطر العراقي، وأطلعتني على تأزم الوضع، وقرب اندلاع نيران الثورة بالعراق، إذا لم تلبَّ بريطانيا مطالب الأمة العراقية، إلى غير ذلك مما يطول شرحه، ثم دفعت إليه ما معي من الوثائق والرسائل الموجهة من العراق إلى الحكومة العربية الهاشمية وإلى ملك العرب نفسه، فاهتم بها اهتماماً بالغاً، وقطع وعداً بأنه سيرسل هذه الوثائق والكتب إلى ممثله في مؤتمر الصلح المنعقد في (فرساي) من بلاد فرنسا، ليستند الأمير فيصل إلى هذه الوثائق المهمة في المطالبة بحقوق العراقيين، وأن ملك العرب يؤيدهم كل التأييد في هذا الشأن، وقد

(١) جعفر الخليلي/ هكذا عرفتهم ١٢٤/٢.

(٢) المرجع نفسه والصفحة.

علمت بعد ذلك بأن الملك حسين برّ بوعده، وأرسل بالوثائق إلى ولده، وكان للأمير فيصل موقفه المعروف في المطالبة باستقلال البلاد العربية، وتكوين دولة موحدة فيها. ولما وصلت إلى الشام واجتمعت بالملك فيصل ورجال دولته في سوريا، تأكد لي بأن هذه المغامرة من العراق إلى جزيرة العرب فالشام: لم تكن عبثاً، إذ بعث الملك حسين معي أجوبة إلى طبقات مختلفة من العراقيين، وهم الذين كاتبوه وانتدبوني إليه...»^(١).

وقامت ثورة العشرين في ٣٠/حزيران/١٩٢٠م والشيخ الشبيبي برفقة الملك فيصل الأول في سوريا «فاستطاع أن يبعث ببعض الأخبار، وبصورة العلم العربي للعراق ضمن رسالة حملها رسوله إلى شيخ الشريعة... فعهدت صورة العلم العربي إلى السيد ضياء زيني، وكان يعمل خياطاً في (قيصرية علي آغا)^(٢) في النجف، فعمل منها علماً كبيراً نصب لأول مرة فوق سراي كربلاء، وكانت كربلاء قد اعتبرت متصرفية، وقد تعين لها السيد محسن أبو طيخ متصرفاً من قبل مجلس الثورة. وكان هذا العلم الذي بعث بصورته الشيخ الشبيبي أول علم عراقي رفعه العراق»^(٣).

أما أحداث ثورة العشرين فإنني أجمله بما كتبه قبل أربعين عاماً في آب/١٩٦٨م وها أنا ذا أشير إليها في آب/٢٠٠٧م، قلت آنذاك:

«فوجئ النجف الأشرف ببلاغ حكومة الاحتلال البريطاني ببغداد في ٣/مارس/١٩٢٠ = ١٨/شعبان/١٣٣٨هـ القاضي بجعل العراق تحت ظل الانتداب البريطاني، فثارت نائرة العلماء والزعماء ورؤساء القبائل الفراتية، وسافروا مجتمعين إلى كربلاء - للمرة الثانية - وعرضوا الأمر على زعيم الثورة

(١) ظ: «حديث خاص للشبيبي» مع علي الخاقاني/ شعراء الغري ٩/٩-١٠.

(٢) تقع هذه القيصرية بين باب قبلة الصحن الحيدري ومسجد الهندي، وهي من معالم

النجف التي أزيلت في عهد الطاغية.

(٣) جعفر الخليلي/ هكذا عرفتهم ٢/١٢٥.

الإمام الشيرازي، فتأمل الشيخ الشيرازي طويلاً في إصدار أمر الورة، حتى إذا كثرت حوادث العنف والإكراه من قبل الإنكليز في النجف والعبات المقدسة، قام النحفيون بطبع كثير من المنشورات المستنكرة لاستفزاز البريطانيين، وزعت في العراق بعامه، فتلاحم الشعور الوطني، وانفجرت العواطف، وتأزم الموقف، وهيأت بعض الأسباب الموجبة للكفاح المسلح، وكان ولده الشيخ محمد رضا يجرّضه على الثورة، فأصدر الشيخ محمد تقي الشيرازي فتواه بذلك، وهذا نصّها:

بسم الله الرحمن الرحيم

«مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين، ويجب عليهم في ضمن مطالبتهم رعاية السلم والأمن، ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية إذا امتنع الإنكليز عن قبول مطالبهم.»

كربلاء المقدسة محمد تقي الحائري الشيرازي

وقد فسّرت الفتوى بأنها إفتاء بالجهاد أو الدفاع عن بيضة الإسلام، فأعلنت الثورة في النجف الأشرف والفرات يوم الأحد ١٥/شوال/١٣٣٨هـ = ٣٠/حزيران/١٩٢٠م، وتجمهر النحفيون بطبقاتهم الروحية والثقافة والشعبية في الصحن الحيدري الشريف لحظة وصول أنباء الطلبات الأولى من قبل رئيس الظوالم الشيخ شعلان أبو الجون لدى فك اعتقاله من سجن الشامية بأمر الحاكم الإنكليزي فيها (الميجر نور بري) وخفّ النحفيون لحمل السلاح وهاجموا الإنكليز عشوائياً، فحلا الإنكليز من النجف فوراً، فخرجوا إلى الكوفة.

ووصلت أنباء النجف إلى الفرات فنار بعشائره ابتداءً من الرميثة ومروراً بالسماوة، فالديوانية ومروراً بالسماوة، فالديوانية، فالشامية، فالمشخاب، فالخيرة، فأبي صخيرين فالنجف الأشرف، فالكوفة، فكربلاء، فالهندية وسواها.

وهاجم الثوار مراكز قوى الإنكليز، وخرّبوا السكة الحديد فيما بين الناصرية في عدة أماكن حتى الديوانية، وقد استخدمها الإنكليز لنقل آلتهم الحربية ومعداتهم العسكرية، ونقل الجنود الهنود والإنكليز. وكثرت المعارك الدامية فوراً بين الإنكليز والعراقيين في مختلف البقاع والقصبات، وقتل جمهور عظيم من الجيش الإنكليزي يقدر بعدة آلاف، وسقطوا فيما بين الرميثة والعارضيات والمشحاب والحلة والكوفة والرارنجية والنجف وكربلاء وطويريج وبقية ميادين القتال، وجميء بمئات الأسرى الإنكليز إلى النجف، واحتجزوا في (الشيلان) وأوصى شيخ الشريعة بمعاملتهم معاملة إنسانية، وهكذا كان، كل ذلك مما دعا الإنكليز إلى التراجع بعد أن تكبدوا الخسائر الفادحة في الأرواح والمعدّات، وتراجعوا عن حكم العراق المباشر، وأتوا عليه عن طريق العملاء في العراق من الأعراب والحفاة والبداة وسيل «الأفندية» في الدليم وبغداد.

وليس غريباً أن تسفر نتائج هذه الثورة في هوة سحيقة من التآمر على آمال الشعب، فعناصرها بعدُ لم تتكامل، وأسبابها لم تتضح في المقدمة والنتيجة، بل جاءت شرارة في الأفق البعيد أذكى جذوتها الشعور بالاضطهاد الإنساني دون التفكير بالمكاسب المستقبلية، وهذا ما جرّ الكوارث على قادتها وقواعدها الشعبية، فقد مزقوا شرّ ممزق، استبيح حرمهم، ويتمت أبناءهم، ورمّلت نساؤهم، وهدمت منازلهم، وتكبّد بعد هذا النجفيون بخاصة والفراتيون عامة الخسائر الفادحة في أعزّ ما يملكون»^(١).

وفي النجف الأشرف تجذ المآسي ضاربة بأطنائها في ربوعها فبعد نهاية الثورة حاصرها الإنكليز حصاراً همجياً، فلم تستمر بأحداثها سوى ستة أشهر، وفرضوا على النجفيين غرامة قدرها ثلاثة آلاف بندقية، وأخرى مالية قدرها إحدى وثمانون ألف ليرة ذهباً، مع اعتقال الزعماء والقادة.

(١) المؤلف/ فلسطين في الشهر النجفي المعاصر / ٤٤-٤٥ بتصرف واختصار. دار العلم للملايين/ بيروت/ ١٩٦٨م.

«أما العلماء فقد ظلّ الإنكليز يتحينون بهم الفرص إلى أن تمكنوا من اعتقالهم على أيدي العراقيين أنفسهم بعد تشكيل الحكومة الوطنية!! وسفروهم خارج العراق وعندما حرّموا الانتخابات المزوّرة»^(١).

وإنها لوصمةٌ عارٍ في جبين صاحب الفخامة عبد المحسن السعدون رئيس الوزراء المنتحر - أن يدخل بنفسه ومعه جلاوزته على الإمام الشيخ مهدي الخالصي الكبير في مدرسته العلمية في الكاظمية المقدسة، ويهينه ويقوم شخصياً بتسفيره خارج العراق في ٢٦/٦/١٩٢٢م، وذلك لتحريمه الاشتراك في المجلس التأسيسي المشبوه، وتحريم إعانة الإنكليز في التعيين بمناصب الدولة.

وقد احتج العلماء والمراجع على هذا الإجراء فهاجر منهم ثلاثمائة عالم ورجل دين برفقة المرجعين الشيخ محمد حسين النائبي والسيد أبو الحسن الأصفهاني، لقد هزّ العراق هذا الحدث هزاً عنيفاً، وخرجت المظاهرات وكثرت الاحتجاجات، وعاد بعد حين النائبي والأصفهاني على النجف بعد مناقشة عامة وخاصة، وأبى الشيخ الخالصي العودة حتى وفاته في ١٠/٤/١٩٢٥م ودفن بالقرب من الإمام الثامن علي بن موسى الرضا في الحضرة الرضوية المطهرة.

وهكذا رجع الثوار بحفي حنين، والأُنكى من ذلك أن يسَلِّط الإنكليز عملاءهم في الأُمس حكاماً على العراق، وأن يعود أبناء الثوار خدماً وجنوداً عند هؤلاء الأذئاب، ومن جهة أخرى فقد عمدت الحكومات المتعاقبة في العراق حتى اليوم إلى تشويه الحقائق التاريخية للثورة، وأن يقحموا في رجالها من ليس منهم، وأن تغفل معطيائها الوطنية والقومية، وأن يتصدر الحكم من تجسّسوا للإنكليز على حسابها.

(١) حسن مرزة الأسدي / ثورة النجف / ٢٨٤.

الشبيبي في العهد الملكي:

في الثالث والعشرين من حزيران عام ١٩٢١م وصل الملك فيصل إلى ميناء البصرة، وسافر إلى بغداد فوصلها ٢٩/حزيران/١٩٢١٢م، وكانت الوثائق التي حملها الشبيبي إلى والده الحسين قد عرضت على فيصل فقدمها إلى مؤتمر الصلح في فرساي فأقرها، وكانت رغبة المستر ونستون تشرغل وزير المستعمرات البريطانية قد أقرّ في مؤتمر القاهرة آنذاك - بالتشاور مع المندوب السامي في العراق: السير برسي كوكس، وجعفر باشا العسكري وزير الدفاع العراقي - ترشيح فيصل ملكاً على العراق لدى انعقاد مؤتمر القاهرة في ١٢/آذار/١٩٢١م.

يقول الأستاذ هولس ريتشر في كتابه (مقاييس الكفاءة للإستقلال): «وبعد مفاوضات كثيرة عُرضَ العرش العراقي على الأمير فيصل الذي كان قد أخرج حديثاً من الدولة العربية التي شكّلها في سوريا، ومع أن انتخاب الأمير فيصل يعود قسم منه من دون شك إلى النفوذ البريطاني، فكانت ثمة أدلة كافية، حتى قبل أن تعرف رغبة بريطانيا، على أن سموه كان المنتخب عن طيب خاطر من العناصر المهمة في العراق»^(١).

ومهما يكن من أمر، فقد توجّ الأمير فيصل بن الحسين ملكاً على العراق في ٢٣/آب/١٩٢١ = ١٨/ذي الحجة/١٣٣٩هـ، وعاد الشبيبي إلى العراق بعد سفرته إلى الحجاز والشام، وأقام في بغداد في «الزوية» من الكرادة الشرقية حتى وفاته، وعاصر العهد الملكي في ملوكة الثلاثة: فيصل الأول/ غازي الأول/ فيصل الثاني، واعتبر من مؤسسي الدولة.

وكان الشبيبي من رجال الحكم في العهد الملكي، ولكنه في صفوف المعارضة الوطنية البناءة، بل يعدّ من أبرز أركان المعارضة.

(١) عبدالرزاق الحسيني/ تاريخ الوزارات العراقية ١/٢٨/ الطبعة السابعة.

شارك في الحكم مشاركة فاعلة في الوزارة ومجلس النواب ومجلس الأعيان، وقد استوزر لأول مرة في ٢/آب/١٩٢٤م وأسندت إليه وزارة المعارف بوزارة الأستاذ ياسين الهاشمي الأولى، واستقال منها احتجاجاً على إتفاقية النفط التي أبرمتها الوزارة بضغط بريطاني، ونصّ الاستقالة: صاحب الفخامة رئيس الوزراء الموقر.

بعد التحية: حيث لا يسعني الموافقة على إتفاقية شركة النفط التي هضمت بموجبها حقوق العراق، فإني أتقدم إلى فخامتكم بانسحابي من المجلس الوقّر. هذا ولفخامتكم مزيد الاحترام.

١٠/شعبان/١٣٤٣هـ = ٥/مارس/١٩٢٥ محمد رضا الشبيبي^(١)

وانتخب الشبيبي نائباً عن بغداد في الدولة الانتخابية الأولى: ١٦/تموز/١٩٢٥م

وفي مجلس النواب خالف الشبيبي وسبعة عشر نائباً معارضاً لدى التصويت على المعاهدة الإنكليزية العراقية القاضية بارتباط العراق بالإنداب البريطاني لمدة خمس وعشرين سنة ورفض ذلك^(٢).

وانتخب الشبيبي عضواً في البرلمان عن بغداد للمرة الثانية في: ١٩/آيار/١٩٢٨م، ورفض معاهدة الحلف بين العراق وبريطانيا التي أبرمها نوري السعيد في وزارته الأولى ٣/حزيران/١٩٣٠م، وقال عنها: «إني أرفض مشروع المعاهدة بملحقاته، لأنه مشروع تحمّل العراق بموجبه كثيراً من المغارم والتبعات، ولم يكسب في مقابل ذلك حقاً جديداً من الحقوق، والقضية بالنسبة لبريطانيا معكوسة إذ حصلت على أهم الحقوق والامتيازات، وتخلصت من كافة التبعات والمسؤوليات»^(٣).

(١) ظ: عبدالرزاق الحسيني / تاريخ الوزارات العراقية ١/٢٨٨ طبع وزارة الإعلام.

(٢) ظ: المرجع نفسه ٢/٤٥+٣/٥٢.

(٣) المرجع السابق.

ولم يرشح الشبيبي لمجلس النواب للدورة الثالثة تضامناً مع المعارضة الوطنية التي قاطعت الانتخابات في: تشرين الأول/١٩٣١ م.

وانتخب الشبيبي نائباً عن بغداد وفي الدورة الرابعة للمجلس ٨/آذار/١٩٣٣، وانتخب أيضاً في الدورة الخامسة نائباً عن بغداد وفي ٢٩/١١/١٩٣٤، وفيها عقّب على خطاب العرش للملك غازي ٣/كانون الثاني/١٩٣٤، منتقداً سياسة علي جودت الأيوبي في وزارته الأولى قائلاً:

«يوجد في البلاد العزيزة تدمرٌ واستياء عظيم ناشئ عن أسباب وعوامل كثيرة، من جملةها هذا الإهمال والتساهل في تطبيق أحكام القوانين، وهناك قانون آخر نافذ في البلاد مع الأسف وهو قانون «الصنعية والمحسوبة» وتوجد أيضاً أشياء كثيرة من هذا القبيل، وكنتُ أودّ أن أرى في خطاب العرش أشياء تدلّ على سير التهذيب من قبل الحكومة وملاحظتها هذه القضية»^(١).

واستوزر الشبيبي للمرة الثانية في ١٧/آذار/١٩٣٥ م للمعارف في وزارة ياسين الهاشمي، واستقال منها في ١٥/أيلول/١٩٣٥ م احتجاجاً على تدخل رئيس الوزراء في شؤون الوزارة، وتعيين أخيه الفريق طه الهاشمي رئيس أركان الجيش مديراً للمعارف العام بعد استقالة الأناذ فهمي المدرس منها، مضافاً إلى تأثر رئيس الوزراء بالدعاية المضللة ضد الوزارة بقيادة الشيخ الشبيبي. فلمّا تلقى رئيس الوزراء كتاب الاستقالة قصد الشبيبي في داره، وحاول إقناعه بالعدول عن الاستقالة، أو قبول منصب وزارة العدل بدلاً عنها، فأبى الشبيبي ذلك، وكان رئيس الوزراء يجلّ وطنية الشبيبي، فرفع له رئيس الوزراء الكتاب الآتي الدال على مدى احترامه الشبيبي:

(١) محاضر مجلس النواب العراقي/ لسنة ١٩٣٤ م/ ص: ٩.

مولاي الأستاذ محمد رضا الشبيبي المحترم

يؤسفني أن تذهب محاولاتي العديدة للتوفيق بين الآراء بدون نتيجة، ويؤلمني جداً أن أرى استمرار التأزر معكم في تحمّل أعباء الظروف الحاضرة متعسراً لقراركم الأخير.

إنني أشعر بالمتاعب التي تحمّلتموها أثناء اضطلاعكم بالمسؤولية في الوزارة، وإذا ما تقدمت إليكم بالإعراب عن الشكر والتقدير، فإنني بلاشك أعبر في الوقت نفسه عما يحمله زملائكم الوزراء الباقون من شعور الامتنان على ما لاقوه منكم مدة اشتراككم معهم من التأيد، وكل ما أرجوه أن تكون رابطة الأخوة والمبدأ التي ربطتنا في جهادنا باقية على رواقها، وألتمس أن تقبلوا احترامي وإجلالي.

المخلص ياسين الهاشمي^(١)

بغداد: ١٦/أيلول/١٩٣٥م

وفي الدورات: ٥ و ٦ و ٧ و ٨ و ٩ للمجلس النيابي لم يرشح الشبيبي لأنه انتخب عضواً في مجلس الأعيان ثم انتخب رئيساً له لأول مرة وآخر مرة في ٢١/شباط/١٩٣٧م، وفي الدورة العاشرة للمجلس النيابي انتخب الشبيبي نائباً عن لواء العمارة في ٩/تشرين الأول/١٩٤٣م. وفي ١٧/آب/١٩٣٧م عين الشبيبي وزيراً للمعارف في وزارة جميل المدفعي الرابعة، وفيها ارتفع مستوى التعليم في العراق، وقد خصص الشبيبي العديد من «البعثات» إلى الخارج في مختلف التخصصات بما يعتبر خطوة كبيرة إلى الأمام، وفتح بكل إصرار جملة من المدارس الإبتدائية والثانوية والصناعية والزراعية.

وفي وزارة جميل المدفعي الخامسة استوزر الشبيبي للمرة الرابعة للمعارف في ٢/حزيران/١٩٤١، فأصلح من مناهج المعارف وإدارتها، وانتخب الشبيبي رئيساً لمجلس النواب في ١/كانون الأول/١٩٤٣م واستمر في ذلك رئيساً يمثل المعارضة

(١) ظ: عبدالرزاق الحسيني / تاريخ الوزارات العراقية ٤/١٤١-١٤٢.

الوطنية حتى ٢/كانون الأول/١٩٤٤م فرشحت وزارة حمدي الباججي سلمان البراك، ورشحت المعارضة الشيببي، ففاز الشيببي بالانتخاب رئيساً للمجلس بالأكثرية الساحقة، واستاء رئيس الوزراء الباججي من هذه النتيجة، وحرّض بعض النواب على رفع طلب للوصي عبد الإله في عدم المصادقة على محضر مجلس النواب، ولم يشأ الوصي أن يفعل ذلك، فأنقذ الشيببي الموقف بالإستقالة في ١٤/١٢/١٩٢٤م^(١).

وكان سبب استياء حمدي الباججي من الشيببي يعود لأمرين مهمين:

الأول: كان الشيببي باعتباره رئيساً لمجلس النواب والمدفعي باعتباره رئيساً لمجلس الأعيان قد استنكر بيان شديد اللهجة قرار الحزب الجمهوري والحزب الديمقراطي في أمريكا الداعي إلى هجرة اليهود الصهانية إلى فلسطين بدون قيد أو شرط، تمهيداً لإقامة دولة يهودية في فلسطين، كان ذلك في ٢٩/شباط/١٩٤٤م^(٢).

ثانياً: انتقد الشيببي في رئاسته لمجلس النواب وزارة الباججي بعنف، واعتبر الحكومة تعمل في سياسة البلاد بوحى الإنكليز مباشرة، وهي «سلطة لاتمتع بمزايا الاستقلال، وعليه أصبحنا نرى شؤون البلاد تُدار وفق هذه السياسة، كما أقصى كثير ممن يُظن أنهم خصوم هذه السياسة، وأبعدوا عن الميدان، وظهرت وجوه جديدة ما كان لها أن تظهر لولا تلك الظروف»^(٣).

وانتقد الشيببي الحكومة العراقية لإنشائها ما يريد المندوب البريطاني إنشاءه، ولإدعائها للمشيئة البريطانية، وقال في مقال له:

«... وافق المسؤولون العراقيون على إنشاء المكاتب السريّة للإنكليز في طول البلاد وعرضها... إذ أصبح في كل لواء من الألوية العراقية فضلاً عن

(١) ظ: المرجع نفسه ٦/٢١٧ بتصرف واختصار.

(٢) ظ: عبدالرزاق الحسيني / تاريخ الوزارات العراقية ٦/٢١٧.

(٣) محاضر مجلس النواب العراقي / لسنة ١٩٤٥-١٩٤٦ / ص: ١٣٥.

الأقضية مكتبٌ يديره ضابط سياسي (إنكليزي) يسمى ضابط الارتباط إلى جانب مكتب متصرف اللواء...»^(١).

وفي ١٧/١٧ آذار/١٩٤٧م انتخب الشبيبي نائباً في الدورة الحادية عشرة للمجلس. وحضر مؤتمر البلاط في ٢٨/كانون الأول مستنكراً معاهدة بورتسموث.

وحينما منعت حكومة صالح جبر المظاهرات ضد المعاهدة، حضر رؤساء الأحزاب والمارضة اجتماعاً وطنياً في دار السيد جعفر حمدي كان فيه الشبيبي، فأجمعوا على ضرورة المظاهرات، فبدأت المظاهرات في اليوم التالي، وقمعت بالرصاص في الوثية ٢٧/كانون الثاني/١٩٤٨، وعندها استقال الشبيبي وعشرون نائباً من عضوية المجلس احتجاجاً وشجياً^(٢).

وسقطت معاهدة بورتسموث في ٢٨/كانون الثاني/١٩٤٨م، وشكل السيد محمد الصدر في ٢٩ منه رئاسة الوزارة، وكانت وزارة ائتلافية تضم أطراف الشعب في أحزابه، وأشغل فيها الشبيبي وزارة المعارف للمرة الخامسة.

وفي الدورة الانتخابية الثانية عشرة انتخب الشبيبي نائباً عن بغداد ٢١/حزيران/١٩٤٨م، واستقال من عضوية المجلس احتجاجاً على إخماد أصوات المعارضة، وتحيز الدولة للإنتهازين، واستقال معه ستة وثلاثون نائباً، وعبر منهم اثنان وعشرون نائباً في طليعتهم الشبيبي عن مقاطعة الانتخابات التكميلية، باعتبارها خطوة ثانية للإستقالة، إذ لافائدة في الانتخابات والسياسة على حالها^(٣).

وانتخب نائباً في الدورة الثالثة عشرة ٢٤/١/١٩٥٣م، وهي آخر دورة رشح فيها للنياية، إذ مُني بالإحباط من سياسة الحكومات المتعاقبة، وشكّل «حزب الجبهة الشعبية المتحدة» وقد أشغل رئاسته وعضوية مجلس الأعيان.

(١) محمد رضا الشبيبي / مقال / جريدة الزمان البغدادية في ٢٢/حزيران/١٩٤٦م.

(٢) ظ: عبدالرزاق الحسيني / تاريخ الوزارات العراقية ٢٦٨/٧ وما بعدها.

(٣) ظ: جريدة صوت الأهالي البغدادية الصادر ١٠/مارس/١٩٥٠م.

وفي هذه الدورة هاجم سياسة الدولة وإدارة الحكم وأوقف المسؤولين على واقع البلاد، وذلك في الجلسة المنعقدة في ١٩٥٣/٢/٢ للاستماع إلى منهاج وزارة السيد جميل المدفعي، وهو يتلوها في المجلس، قال الشبيبي:

«إن البلاد مغلوب على أمرها، وإن الأجنبي العاشم يتدخل في شؤونها، وإنه يلتزم فريقاً معيناً من الناس، ويفرضهم فرضاً على البلاد، ويناهش كل طبقة واعية لها آراؤها المحترمة وتفكيرها السياسي الناضج منذ زمان طويل إلى اليوم، وانشطرت البلاد.. إلى شطرين وإلى جيلين:

نحن الجيل القديم الذي ينهج هذا النهج في السياسة، اتجاننا جيلٌ واع حديث، وآراؤه ومناهجه تختلف كل الاختلاف عن تفكيرنا نحن أبناء الجيل القديم الذين أشغلنا المناصب مراراً كثيرة، والذين أينا أن نفسح المجال لغيرنا، وأن نعدّ أناساً لإشغال هذه المناصب إذا انتهى أمرنا»^(١).

ولدى مهاجمة الشرطة للسجناء في «نقرة السلطان» في ١٩٥٣/٦/١٨ «ندبت المعارضة ركنها البارز الشيخ محمد رضا الشبيبي، فقابل الملك وأعرب عن الأثر الذي تركه عمل الحكومة في النفوس»^(٢).

وحينما شكل أرشد العمري وزارته الثانية في ١٩٥٤/٤/٢٩ قابلت الأحزاب السياسية والوطنية تشكيلها بالسخط العام، وكان أشد الأحزاب معارضة لتأليفها حزب الاستقلال برئاسة الشيخ محمد مهدي كبة، والحزب الوطني الديمقراطي برئاسة كامل الجادرجي، وحزب الجبهة الشعبية المتحدة برئاسة الشيخ محمد رضا الشبيبي^(٣).

ولدى تشكيل نوري السعيد وزارته الثانية عشرة في ١٩٥٤/٣/٣/٣ شعرت «الجبهة الشعبية المتحدة» بأن بعض الأعضاء يحاول التخلص من العمل

(١) محاضر مجلس النواب العراقي/ لسنة ١٩٥٣/ ص: ١٠٠.

(٢) عبدالرزاق الحسيني/ تاريخ الوزارات العراقية ٤٢/٩.

(٣) ظ: صوت الأهالي + لواء الاستقلال + جريدة الزمان/ الأعداد الصادرة ٤/ مارس/ ١٩٥٤.

الحزبي الملتزم، ويفضّل السير بركاب السلطة، فعطلّ الشبيبي الجهة بالبيان الآتي: «عقدت الهيئة الإدارية للجهة سلسلة اجتماعات برئاسة معالي الشيخ

محمد رضا الشبيبي، وبعد المداولة في الوضع السياسي قررت:

١- وقف أعمال الحزب، وتعطيل نشاطه إلى إشعار آخر.

٢- يكون الاشتراك في الانتخابات على مسؤولية العضو الشخصية^(١).

ولدى الاعتداء الثلاثي على مصر في ٢٩/تشرين الأول/١٩٥٦م، استنكر الشبيبي مع فريق كبير من قادة الأحزاب والمعارضة سياسة نوري السعيد ضد مصر، واعتبرت المعارضة حلف بغداد أخطر أسباب الفرقة بين العرب، وذلك في مذكرة شديدة اللهجة قدمت للملك في ٣٠/تشرين الثاني/١٩٥٦م^(٢).

ولدى اعتقال حكومة نوري السعيد كوكبة لامعة من أساتذة الجامعة والسياسيين وقادة الفكر لاحتجاجهم على سياسة الحكومة إزاء العدوان، استنكر رؤساء الوزارات السابقون، والأعيان، والنواب، وممثلو الأحزاب سياسة الدولة، وكان الشبيبي في طليعتهم في مذكرة رفعت للملك في ٢/كانون الأول/١٩٥٦م^(٣).

وحينما تفاقمت الأوضاع في العراق سياسياً واقتصادياً وإدارياً، أطلق الشبيبي صرخته المدوية في آخر جلسات مجلس الأعيان عام ١٩٥٨م قائلاً: «لم يبقَ للعراق إلاّ الله فيلّ الله نشكو» فضجت محافل العراق أجمع بهذه الصراحة، وأعلن مقاطعته للمجلس والحكومة نهائياً كما هو مشهور. ولدى تدهور المناخ السياسي والمدّ الفوضوي في العراق عام ١٩٥٩م، حدثني الشبيبي نفسه: أن نوري السعيد قصده ليلاً إلى داره بعد قراره الحاسم في مقاطعة الحكومة، فقال له نوري السعيد: أنت قاطعت الحكومة في كل شيء، ولكن سيأتي اليوم الذي

(١) ظ: عبدالرزاق الحسيني / تاريخ الوزارات العراقية ١٤١/٩.

(٢) ظ: عبدالرزاق الحسيني / تاريخ الوزارات العراقية ١٠/١٢٦-١٣٠.

(٣) ظ: نص المذكرة في تاريخ الوزارات العراقية ١٠/١٣٦-١٣٧.

تقول فيه: رحم الله نوري السعيد!! فإذا جاء ذلك اليوم فقل ذلك. قال الشيببي: واليوم أقول رحم الله نوري السعيد!!

وهكذا قضى الشيببي حقبة سياسية ملتعبة في الأحداث الكبيرة امتدت أربعين عاماً، تحمل فيها أعباء أداء الرسالة الوطنية، وكابد كثيراً من الآلام والأزمات النفسية، حتى نهاية العهد الملكي بثورة ١٤/تموز/١٩٥٨م.

الشيببي في العهد الجمهوري:

استولى الجيش العراقي بعد الرابع عشر من تموز على مقاليد الحكم في العراق برئاسة الزعيم الركن عبد الكريم قاسم وفريق من الضباط الكبار والصغار، وأشرك بعض ممثلي الأحزاب السياسية وبعض اليساريين في الوزارة التي شكلها، وما لبث القوميون أن استقالوا من مقاعدهم الوزارية وهم ستة بعد ستة شهور، لاعتقادهم بانحراف الثورة عن أهدافها. وكان هناك مجلس للسيادة مكوّن من رئيس وعضوين، وهم:

١- الفريق الركن محمد نجيب الربيعي.. رئيساً

٢- الشيخ محمد مهدي كبة.. عضواً

٣- السيد مصلح النقشبندي.. عضواً

وكان هذا الإسناد نابعاً من محاولة تمثيل أطراف الشعب العراقي عرباً وأكراداً وسنة وشيعة، فالربيعي سنيٌّ معتدل، وكبة شيعيٌّ قومي في أقصى درجات الاعتدال، والنقشبندي سنيٌّ كردي يتعامل على أساس قوميته لا طائفته.

وما لبث الأستاذ محمد مهدي كبة رئيس حزب الاستقلال في العراق أن استقال من منصبه تضامناً مع القوميين المستقلين.

كان هذا المجلس أعلى سلطة في البلاد اسماً، أما الواقع المعاصر فإن عبد الكريم قاسم قد تولى قيادة البلاد، وترأس الحكومة والدولة.

كان الشيببي لدى قيام الثورة في السبعين من عمره، وهو فتىٌ في شبابه وعنفوان كهولته، كما هو فتىٌ في شيخوخته الموقرة، وقد عزف في هذه الحقبة عن العمل السياسي واتجه للمناخ الثقافي والحياة الجمعية، فهو عضو في الجامع العلمية في القاهرة ودمشق وعمّان، وهو عضو في المجمع العلمي العراقي، ورئيس له في عدة دورات.

وكان يليبي عدوات الجامع العلمية في الوطن العربي، ويليبي دعوات المؤتمرات الثقافية الخالصة، ويشارك فيها مشاركة فاعلة، كما كتب الشيببي مقالات ممتعة للمجلات والجرائد العربية في شتى الموضوعات الأدبية، وكان له ولع خاص في تاريخ النحف الأشرف فكتب عنه ماشاء، وأصدر عدة كتب متميزة منها «مؤرخ العراق ابن الفوطي» و«أدب المغاربة والأندلسيين» وسواهما.

وللتاريخ فقد دعي الأستاذ الشيببي لاحتفالات «جامعة القرويين» في المغرب، ممثلاً للعراق لإلقاء بعض المحاضرات والبحوث، وكنتُ في توديعه واستقباله، ولدى عودته ارتجلت هذه الأبيات:

سما في مشرق الدنيا وجلّى	بمقرها فتى الوطن الحبيب
وزار المغرب الأقصى.. فأصغتُ	له أسمع مختلف الشعوب
كأنك إذ وقفت بهم خطيباً	تقيسُ القول بالنظر المصيب
كميُّ شقّ مدرجة المعالي	وهبّ يصدّ عادية الخطوب
أنابغة العراق.. لقد تعالي	صداك.. وحلّ وعياً في القلوب
ورأى العبقري إذا تسامى	كسيفٍ العسكري لدى الحروب
ولا عجب -أبا الأجيال- ييقى	إذا ماجئت بالعجب العجيب
يقول الناس: نابغة جريء	وقد صدقوا: فأنت: رضا الشيببي

فشكر ذلك الشيببي مغتبطاً على عادته في بسماته وسمته الرائع، وكان ذلك

في ١١/١/١٩٦٠م.

واستمر الشبيبي في ديوانه العامر يستقبل معارفه وأصدقاءه صباح كل جمعة من الأسبوع، وديوانه هذا محفل أدبي وعلمي وسياسي وفكاهي من نوع رائع، فهو مدرسة سيطرة للمعرفة الإنسانية، ومتعة نادرة للترفيه النفسي، تبحث فيه المسألة العلمية، وتذكر الطرف الأدبية، وتعالج القضية السياسية، وفيه الدعابة المتزنة، والتعليقة الهادفة، والفكاهة البريئة، وكان حضاره سياسيو العراق المخضرمون والمحدثون، وأدباء الجيل الشيوخ والشباب، وقادة الفكر، وكنت من المواظين فيه، أتلقى وأستمع، ولأتحدث إلّا قليلاً، وقد يطلب إليّ الشبيبي قراءة ما استجد من الشعر فأقرأ. وفي هذا الديوان تعرفت على طائفة كبيرة من السياسيين والمفكرين، ومازالت ذكرياته تتراءى حيّة نابضة، وبالرغم من مرور أكثر من أربعين عاماً على ذكرياته فمازالت أحن لها حيناً شجياً يأخذ بمجامع الجوانح والأحاسيس، ويمتلك العواطف والمشاعر.

وكان الشبيبي في مجلسه هذا كثيراً ما يعالج أوضاع العراق من خلال التوجيه والنصح الكريم، وقد يستطلع بعض المسؤولين -على قلتهم- ومنهم الزعيم عبد الكريم قاسم -رأيه ي بعض الشؤون فلا ييخل بإبداء الرأي السديد والواقع الصريح.

وكان الحكم قد استولى عليه العسكريون فوجاً بعد فوج، ورعيلاً إثر رعييل في اتجاهات شعبية أو عربية أو يسارية، ولم يكن منطقتهم يحفل بالاستنتاج أو الشورى، بل هو منطلق القوة العسكرية في تداعياته وإفرازاته الفجة، فوصلت الحال إلى هوة سحيقة لا يصح معها الصمت، ولا يحمد السكوت، فعقدت المهرجانات والاحتفالات في كل من النجف الأشرف وكربلاء وبغداد والكاظمية -وقد شارك الشبيبي في قسم منها- والحلة والبصرة والديوانية وبقية قصبات العراق تفصح عن لكمة الصادقة، وتجأ بالصرخة المدوية استنكاراً لمظاهر الطائفية والإقليمية، وكان لها مخطوطون يتلقون تعليماتهم من الصهيونية والماسونية العالمية.

ولم يحفل الساسة العسكريون ببناء المخلصين من أبناء العراق، حتى إذا شكلت أول رئاسة حكم مدنية بقيادة الدكتور عبد الرحمن البزاز، وهو مثقف عصري، وقانوني بارع، وقومي معروف وجه إليه الشببي مذكرة سياسية شاملة، كانت فيها الحلول لكثير من مشكلات البلد لو استمع إليها، ولم يستطع البزاز إحداث أي تغيير سوى فرضه بعض وزراء الشيعة في التشكيلة الوزارية، فالرئيس عبد السلام عارف رئيس الدولة، وهو ذو سياسة طائشة عمّقت مفاهيم الطائفية والإقليمية، ولكن المخاطب البزاز في المذكرة.

مذكرة الشببي لرئيس الوزراء^(١):

السيد رئيس الوزراء/ الدكتور عبد الرحمن البزاز المحترم

يسعدني أن أشير إلى محادثتنا التلفونية الموجزة غداة اضطلاعكم بأعباء المسؤولية، وما تضمنته من التمنيات الطيبة لكم بالتوفيق، ويطيب لي كذلك أن أعزز ذلك الحديث، بهذه المذكرة الموضحة لطائفة من القضايا والمشكلات الخطيرة التي تواجهها البلاد، راجين أن يحالفكم التوفيق في درسها فقراً فقراً، تمهيداً للأخذ بمضامينها قدر الإمكان، ومما شجع على تقديم هذه المذكرة في هذا الظرف بالذات أن رئاسة الحكومة يشغلها أحد رجال القانون، وتلك

(١) كتب الدكتور سعيد السامرائي في مقدمة ذكره للمذكرة مايلي: بعث الشيخ معد رضا الشببي في ٢٨/١٠/١٩٦٥م، بمذكرة إلى عبد الرحمن البزاز رئيس الوزراء في عهد الرئيس عبد السلام عارف، الذي كان معروفاً بطائفته الشديدة، والتي كانت تعبيراً عن مظلمة الأغلبية الشيعية في العراق، ولكن القضاء عاجل الشيخ الشببي فتوى في بعد شهر من تقديم المذكرة، وبعد عودته من فلسطين حيث ذهب لحضور احتفالات المعراج في القدس الشريف.

وكما في ميثاق النجف، فإن مذكرة الشببي علاوة على تبيها على سياسة التفرقة الطائفية التي تنتهجها الدولة، والتي زادت في عهد عبد السلام عارف، تضمنت أموراً عامة، بل أحاطت إحاطة تكاد تكون شاملة، بالشؤون الزراعية والإدارية والنقضية والمهنية والسياسية، وكذلك موضوع الوحدة العربية.

ظ: سعيد السامرائي/ الطائفية في العراق - الواقع والحل/ المرحق / ٣٩٩.

لندن/ مؤسسة الفجر/ ١٤٢٣هـ - ١٩٢٣م.

خطوة حسنة، وأحسن منها أن يكون المسؤول ذا سند شعبي متين، وهو أمر يساورنا الشك فيه الآن.

كان الشعور الوطني في العراق يتجلى بالغيرة الوطنية والحب العميق لأرض الآباء الأجداد، وكان هذا الشعور الحافز الأول لصيانة وحدة البلاد، ولكن الأحداث والكوارث التي حلت بها نتيجة تصارع الأهواء وتشجيع التفرقة عصفت بهذا الشعور النبيل وأقصته على أبعاد وأعماق سحيقة، يخشى أن تتيح للأجنبي المتربص الفرصة للنيل من وحدتنا الوطنية المقدسة، ولم يعد خافياً على أحد أن البلاد العراقية تحتاز في ظروفها الحالية مرحلة لا تحسد عليها من مراحل حياتها، وكيف تحسد على مراحل موسومة بكثرة مخاوفها ومشكلاتها، وما يتخللها من شكوك واحتمالات، وقد تسنى لي أخيراً أن أتصل بجمهرة من أبناء البلاد، وأن ألمس مواقع الألم منهم والإحساس بما يخالجهم من سخط وتذمر، ويف وسعي، بل أرى من واجبي، أن أسجل ملخصاً مظاهر ذلك في الفقرات التالية:

١- جاء على لسان السيد رئيس الوزراء في مؤتمره الصحافي قوله: إن الحكومة عازمة على إعادة الحياة الدستورية للبلاد، وإجراء انتخابات حرة، وهذا كما لا يخفى ستنتهي الفقرة الانتقالية، وتستقر الأوضاع في البلاد، ويتمكن الشعب من ممارسة حقه القانوني في انتخاب من يراه صالحاً لإدارة البلاد وتحمل مسؤولياتها الجسام.

وإننا نؤكد على ضرورة القيام عاجلاً بوضع أسس قانون الانتخابات العامة وعرضها على الشعب ليبين رأيه فيها، حتى تتم الانتخابات المباشرة خلال فترتها المحددة في الدستور المؤقت، على أن يجري ذلك بإشراف سلطة معروفة بالحياد والاستقامة، سلطة تضمن للجمهور حرية الصحافة والرأي والتعبير.

٢- تناول السيد رئيس الوزراء في مؤتمره الصحفي موضوع الوحدة العربية والاتحاد، وأجاب عن تساؤلات الكبيرة التي أثيرت حول تصريحاته، وفي رأينا أنه مهما كانت اتجاهاتنا السياسية والاجتماعية في القضايا العربية فإن الوحدة الجغرافية ووحدة التاريخ والمصير قادرة في الوقت الحاضر على أن تخلق بيننا وحدة عمل، نواجه بها التحديات والمخاطر، إن الوحدة العربية في رأينا هدف يتم باستفتاء الشعب عليه، وأن التضامن العربي وسيلة لحمايته.

٣- ما انفك حكم العراق في عصرنا هذا بالذات مشرباً بالأهواء والأغراض، وإن كانت تلك الأغراض مقنعة أو مغلّفة بألفاظ خلّابة، ولم يكن الطعن في الحكم المذكور سهلاً، لأنه في ظاهره مستمد من مبادئ بنيت عليها القوانين المرعية، وقد اعتبرت الطائفية بموجب هذه القوانين جريمة تعاقب عليها. ولكن العبرة ليست بالألفاظ المجردة والتشريعات المقنعة، بل بالتطبيق السليم والإدراك الصائب لروح تلك القوانين، ولم تكن التفرقة الطائفية مشكلة سافرة من مشاكل الحكم كما هي اليوم، ولم تكن مصدراً باعثاً على القلق المستحوذ على الشعب طالما استنكرت التفرقة وكافحتها وطالبت بالإقلاع عن هذا الأسلوب المقموت، وطالما تنادى المخلصون باتباع نهج آخر تراعي فيها المساواة المطلقة التي أكدت عليها الشرائع السماوية والقوانين الوضعية.

الانتفاض على سياسة التفرقة:

ومن الواضح أن الشعب العراقي انتفض أكثر من مرة على سياسة التفرقة الرعناء، وعمل منذ ثورته الأولى عام ١٩٢٠ على إقامة حكم وطني ديمقراطي، يسهم بإقامته وينعم في خيراته أبناء الشعب كافة، لا يفرقهم عنصر أو دين أو مذهب. وقد بارك الشعب ثورة الرابع عشر من تموز وعلق عليها آمالاً كبيرة، وتوقع المخلصون أن تستأصل جذور النعرات المفرقة باستئصال قواعد الاستعمار وركائزه. غير أن الأحداث الأخيرة برهنت مع بالغ الأسف على انبعث روح التفرقة بشكل أشد وأعنف من ذي قبل بكثير.

ولانذيع سراً إذا قلنا أن كثرة الشعب ساخطة جداً من جراء ذلك، وأنها تعتبر كرامتها مهانة وحقوقها مهضومة، ولاسيما وقد رافق ذلك سوء اختيار بعض من يمثلونها في جهاز الحكم. وإذا إن من الممكن أن تغض هذه الكثرة الشعبية نظرها عن بعض حقوقها في وظائف الدولة، وترك شبابها المثقف من حملة الشهادات العالية وغيرهم دون عمل، وإذا كان من الممكن أيضاً أن تغض هذه الكثرة النظر عن التقصير المتعمد في إنعاش مرافقها الثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وإذا كان من الجائز أن تغض نظرها عن مواقفها المشرفة في الجهاد والتضحية، فإنها لايسعها غض النظر عن التعريض بعروبيتها وأصالتها وكرامتها وإخلاصها للوطن وللدولة التي أقامت على جماجم شهدائها الأبرار. ذلك التعريض المثير الذي يلوح به بعض المسؤولين والصحف الأجيعة.

هذا ومادامت الحكومة الحاضرة قد أعلنت عن التزامها الصراحة في القول وتصحيح الأوضاع المنحرفة، بادرنا تذكيرها بهذه الحقيقة، إذ ليست الدولة وأجهزتها ووظائفها ومجالات العمل فيها وقفاً على طائفة من دون أخرى، إنما توزع واجباتها حسب الكفاية. ولعل نظرة فاحصة إلى الدواوين الكبيرة في الدولة ومن يشغلها تكفي دلالة على سياسة محاباة، خصوصاً وأن كثيراً من المقربين محرومون غالباً من المؤهلات والكفايات والإخلاص.

٤- لاشك أن صيانة الوحدة الوطنية وحقن الدماء وإعادة الطمأنينة والسلام إلى ربوعنا في الشمال العزيز يتطلب منا درساً دقيقاً للقضية الكردية التي طال عليها الأمد. ولما كان العرب والأكراد شركاء في هذا الوطن يتقاسمون غرمه وغنمه، فإننا نرى أن لإخواننا الأكراد حقاً في التمتع بحقوقهم المشروعة، وذلك عملاً بالإدارة اللامركزية ضمن الوحدة العراقية. هذا الأساس الذي يقضي ضرورة الأخذ به أسلوباً للحكم في العراق من الناحية الإدارية.

٥- تعرضت النقابات في العراق لمختلف أوجه الضغط السياسي، الأمر الذي صرفها عن خدمة منتسبيها في حدود صلاحيتها وأغراضها المهنية. كما تحملت الفئات العاملة تبعات ذلك ففصل وسجن كثير منهم، وحرمت عوائل من مصادر عيشها. لذلك وجب على الحكومة أن تعيد النظر في أحكام قانون العمل، آخذت بنظر الاعتبار الأخطار التي ظهرت لدى تطبيق القانون المذكور، وأن تفسح المجال لقيام نقابات مهنية تراعي مصالح المنتسبين إليها رعاية حقّة.

٦- لا نريد الدخول في جدل عن الاشتراكية من حيث كونها صالحة أو غير صالحة للعراق، ولكننا نكتفي بالرجوع إلى حقائق الأشياء، وبما حصل فعلاً من نتائج ليصدر الحكم مبنياً على الواقع دون الخيال، فعند تطبيق القرارات الاشتراكية في ١٤ تموز ١٩٦٤م نلاحظ أن أوضاع العراق المالية والاقتصادية تزداد تخبثاً وارتباكاً: زيادة في البطالة وقلة في الإنتاج وتبديراً في أموال الدولة وتهريباً لرؤوس الأموال الوطنية وعجزاً في الموازنة.

لقد أشار السيد رئيس الوزراء إلى طبيعة هذه الاشتراكية بقوله في مؤتمره الصحفي: «إن هذه الاشتراكية لم تغرّ في الوضع الاقتصادي والاجتماعي في البلاد بقدر ما تحسنت أحوال طبقة معينة من الموظفين والمنتفعين على حساب الآخرين».

إننا نؤمن بأن الديمقراطية الاقتصادية هي النظام الذي يلائم ظروفنا وحاجتنا، وإننا نؤمن بالعدالة الاجتماعية، ونعتبر الفروق الاقتصادية في مجتمعنا خرقاً لقواعد هذه العدالة، فلماذا يمكن العمل على تقليل هذه الفروق عن طريق توزيع الضرائب، وزيادة مكاسب الطبقة العاملة، ووضع خطة شاملة للتنمية الاقتصادية وزيادة الدخل العام.

إننا نطالب الحكومة بتدارك ما أدت إليه تلك السياسة المرتجلة من بطالة، وذلك بإيجاد عمل للعاملين يكفل لهم مستوى من المعيشة يتلائم وكرامة الإنسان. كما نطلب إعادة النظر في الأوضاع الاقتصادية مع تعيين مجالات

القطاع العام والقطاع الخاص لكي ينصرف المواطنون إلى مزاولة أعمالهم بحرية تامة واطمئنان كامل.

القطاع الزراعي:

إن القطاع الزراعي في العراق يمثل مصدراً أساسياً من مصادر الثروة العامة. ولقد ظهرت في قانون الإصلاح الزراعي أخطاء أدت إلى تخلف الزراعة. ولهذا نطلب إعادة النظر في أسس القانون المذكور وذلك في ضوء الأخطاء التي ظهرت في مرحلة التطبيق. وندعو للعمل على تطوير شؤون الكراعة وحماية الإنتاج وتحديد واجبات الزراع والعمل على تعويض المستولي على أراضيهم ومنهم أصحاب حق اللزّمة، إذ أننا لانقر مبدأ المصادرة مطلقاً.

ونطالب بإعادة النظر في موضوع الضرائب خاصة ضريبة الدخل وضريبة الشركات والتعديلات التي جرت عليها أخيراً، ونحث على دراسة علمية مبنية على التجارب التي مرّت بها تلك القوانين لدى التطبيق، ونطالب بإعادة النظر في القوانين الأخرى التي شرّعت في ظروف مستعجلة، فجاءت مخالفة لأحكام شريعتنا الإسلامية، وغير ملائمة لأوضاعنا وتقاليدنا الاجتماعية. إن الشريعة الإسلامية هي الأساس الراسخ الذي يقوم التشريع عليه، وإن أي قانون أو نظام يتعارض معها يعتبر تحدياً لشعور الأمة وعقيدتها الراسخة.

٧- لاتزال مفاوضات النفط بين الحكومة العراقية والشركات العاملة في العراق طي الكتمان ولم تعرف تفاصيلها بعد. ومع تقديرنا للجهود التي تبذل لاستخلاص حقوق العراق من الشركات الأجنبية، إلّا أننا نرى في القانون رقم ٨٠ لسنة ١٩٦٣م^(١) مكسباً وطنياً يلزم الحفاظ عليه، لذل نهب بالسلطة أن تعرض نتيجة المفاوضات قبل الالتزام على ممثلي الشعب حين تعود الحياة الدستورية إلى البلاد ليقول الشعب كلمته بها.

(١) وهو القانون الذي أصدرته الحكومة العراقية آخر عهد عبدالكريم قاسم.

٨- كان الهدف الأساسي في تكوين الاتحاد الإشتراكي العربي في العراق أن يضم منتسبي النقابات ومختلف الفئات العاملة، غير أن هذه المنظمة لم يحالفها التوفيق على الرغم من إسناد السلطة لها مادياً ومعنوياً. ذلك لأن الأهواء تنازعتها منذ البداية، يضاف إلى ذلك منهجاً للحكم في البلاد. ولهذا نطالب بأن تبادر الحكومة إلى تعديل القانون الذي قامت بموجبه هذه المنظمة لتمكين الفئات الوطنية التي تستمد آراءها من صميم هذا البلد من ممارسة نشاطها السياسي.

هذا وفاءً منا لأمتنا ووطننا وقياماً بالواجب المفروض علينا، وإبراءً لذمتنا بادرنا إلى بيان أهم مشاكل الساعة التي تخالج أفكار الجمهور مؤملين أن تعنوا بدراستها وبذل الجهود في سبيل الوصول إلى الحلول السليمة للمشاكل المذكورة كافة. وختاماً نبتهل إلى الله العليّ القدير أن يسدد خطانا جميعاً إنه وليّ التوفيق.

محمد رضا الشبيبي

الشبيبي وافتتاح مؤتمر المجامع العلمية في بغداد:

كان الشبيبي رئيساً للمجمع العلمي العراقي، وقد نأى به عن التأثير السياسي، وأبقاه منبراً حراً للعربية في شؤونها اللغوية والعلمية بعيداً عن المؤثرات الخارجية، ولما كان الشبيبي من دعاة الوحدة العربية منذ صباه وحتى شيخوخته المباركة، فهو القائل عام ١٩٢٠م أي قبل ولادة دعاة الوحدة العربية:

كونوا الوحدة لا تفسخوها
نزعاً الفکر والمعتقد
أنا بايعتُ على أن لأرى
فرقة.. هاكم على هذا يدي^(١)

(١) محمد رضا الشبيبي / ديوان الشبيبي / ٨١ نشر جمعية الرابطة العلمية الأدبية في النجف الأشرف / دار النشر والتأليف والترجمة / القاهرة / ١٩٤٠م.

فقد دعا إلى عقد مؤتمر إتحاد الجامعات العلمية في الوطن العربي في بغداد في تشرين الثاني/ ١٩٦٥م، ووجهت الدعوة على أبرز أعضاء الجامعات اللغوية والعربية في البلاد العربية لحضور المؤتمر المذكور، وكانت الدعوة باسمه باعتباره رئيساً للمجمع العراقي، فلبيت الدعوة، وأشعر المجمع بأسماء أعضاء الجامعات الذين سيحضرون المؤتمر ببغداد.

وكان العقيد الركن عبد السلام محمد عارف رئيساً للجمهورية، فطلب أن يفتح المؤتمر باعتباره رأس الدولة، فرفض ذلك الشبيبي، وقال: إن المؤتمر مؤتمر علمي وليس مؤتمراً سياسياً، وإذا كان كذلك وهو كذلك، فأنا الذي أفتتح المؤتمر لأمرين: الأول؛ أني دعوت هؤلاء العلماء، وهم سيقدمون تلبيةً لدعوتي شخصياً، والثاني؛ أني رئيس المجمع العلمي، ولما كان المؤتمر علمياً فأنا أفتحه لارئيس الجمهورية.

وأصر عبد السلام على افتتاح المؤتمر، وأصرّ الشبيبي على رفض ذلك، ووقع أعضاء المجمع في حرج من أمرهم، فهم يحترمون الشبيبي احتراماً كبيراً، وهم يحاولون مجاملة رئيس الجمهورية لأن بعضهم وزراء عنده وإداريون في أجهزة النظام الحاكم.

وكان الشيخ الشبيبي قد تلقى دعوةً ملحةً من هيئة المهرجان العالمي في القدس الشريف للاحتفاء بالإسراء وبمناسبة مرور أربعة عشر قرناً على المبعث النبوي، في التاريخ الذي سينعقد فيه المؤتمر، فأراد كسر هذا الإحراج لعلمه بأن عبد السلام أحقّ فقد يلغي مؤتمر الجامعات العلمية، وهو لقد عقد بافتتاح رئيس الجمهورية له فسوف لا يحضر، إذن فليغادر العراق إلى مؤتمر القدس ومهرجانه الذي عقد برئاسته أيضاً. وغادر بغداد في ٢٠/١١/١٩٦٥م وانتهت أعمال مهرجان القدس بانتهاء أعمال مؤتمر بغداد، فعاد إلى بغداد مساء يوم الخميس ٢٥/١١/١٩٦٠م، وكان في استقباله في مطار بغداد الدولي، جمهور كبير من

السياسيين وعلماء بغداد والكاظمية وأساتذة جامعة بغداد، وكوكبة من الشعراء والأدباء والمثقفين، وجملة من العمال والطلبة وسائر الطبقات الشعبية بما تجاوز الألف من الرجال، وقد حفّ به هؤلاء جميعاً مرحّبين ومستقبلين، وكان الشيبّي دمث الأخلاق، رحيب الصدر، طيّب الجاملة، وقد صافحوه فرداً فرداً، ورحّب بهم فرداً فرداً، وشكر المعنّين بتهيأة الاستقبال في المطار، وتمنّى للجميع السعادة في ظلّ وطنٍ ينعم بالحرية والعدالة والاستقلال، وقد أثر هذا الجهد صحياً عليه، فهو في السابعة والسبعين من عمره، ولكنه لم يظهر ذلك أبداً.

وكانت مقاطعة مؤتمر الجامع العلمية من قبل الشيبّي لتدخل رئيس الجمهورية في شؤونه آخر صفحة من نضاله السياسي والوطني.

وفاة الشيبّي وتشيعه:

ومن مطار بغداد ذهب الشيخ الشيبّي إلى داره في الساعة العاشرة مساءً، وبعد منتصف الليل من ليلة وصوله شعر الشيبّي بأوجاع في الصدر وخفقان في القلب، وكان إلى جنبه ولده الدكتور أكرم الشيبّي فأسعفه بما تيسّر له، وحاول نقله إلى المستشفى فأبى الشيخ ذلك، وما لبث أن لبّى نداء ربّه ففارق الحياة عند طلوع الشمس يوم الجمعة في داره بالزوية من الكرادة الشرقية ببغداد في ٢/شعبان/١٣٨٥هـ = ١٩٦٥/١١/٢٦م.

وأحطنا خبيراً بالنبأ المفجع، واتصلت بوزارة الإعلام وبالإذاعة والتلفزيون العراقي، فتلكأوا بادئ الأمر، وأذيع النبأ متأخراً بعد أن تجمعت عشرات الآلاف من الجماهير قرب داره، وقد مثلوا شرائح الشعب كافة، وحمل النعش ووراءه مئات السيارات الخاصة مخترقاً شوارع الكرادة فالباب الشرقي عبوراً إلى الكرخ مروراً بدار الإذاعة والتلفزيون فالتحف العراقي وبتجاه الطريق العام حتى جسر الحرّ فأم الطبول، حيث وُدع من قبل جمهور من المشيعين العائدين

من الشيوخ والمرضى وذوي الأعذار، وعدها رافق الجثمان إلى النجف الأشرف أكثر من ألف سيارة، وكانت القصبات التي يمرّ عليها الجثمان قد انتشر فيها آلاف الأعلام السوداء، ولافئات النعي الحزين المؤثر، وكان ذلك تعبيراً عملياً يستدل به على مدى القاعدة الشعبية الكبرى التي يتمتع بولائها الشيخ الشبيبي باعتباره زعيماً وطنياً متميزاً، يمثل أطراف الشعب العراقي بمختلف اتجاهاته.

وفي صباح السبت ٣/شعبان/١٣٨٥هـ = ٢٧/١١/١٩٦٥م جرى للفقيد العظيم في النجف الأشرف تشييع حافل بمئات الآلاف من المشيعين الذين انضمت لهم عشائر الفرات الأوسط، حيث أغلقت الأسواق وعطلت المدارس والمعاهد الرسمية والدينية.

وفي الصحن الحيدري الشريف أدى عليه الصلاة الإمام السيد محسن الحكيم قدس سره، ومن خلفه العلماء الأعلام، ثم تبارى الشعراء والخطباء في تأيين الفقيد، والنعش أمامهم، والجماهير الغاضبة حولهم، وبحضور الإمام الحكيم، وقد ألقى قصائد رقيقة ذات نبرات حزينة كل من:

١- الشيخ عبد المنعم الفرطوسي.

٢- الدكتور مصطفى جمال الدين.

٣- الدكتور أحمد الوائلي.

٤- الدكتور داود العطار.

٥- محمد حسين علي الصغير كاتب هذه السطور، وقد ألقى قصيدة

مؤثرة بمخمين بيتاً، مطلعها:

أخرستْ صائبَ منطقي وبياني وَعَقَدْتُ في ألمِ المصابِ لساني

وقد أردفتها بخطاب ارتحالي مسهب في عشرين دقيقة سلطت فيه الضوء على أوضاع العراق السياسية والطائفية والاجتماعية التي دعت إلى عزل الدولة عن الشعب، واضطرت الشبيبي نفسه إلى تقديم مذكرته السابقة إلى رئيس الوزراء.

وقد أدى كل من القصيدة والخطاب إلى اعتقالي في اليوم الثاني في مديرية الأمن العامة ببغداد، وأسفر ذلك الاعتقال عن غضب جماهيري بالغ، واحتجاج سياسي هائل من قبل القادة والسياسيين أفرج على أثره عن كاتب السطور، على أن يقدم للمحاكمة.. ولم يقدم، بقرار من الدكتور عبد الرحمن البزاز رئيس الوزراء الآخر بالاعتقال والإفراج.

وبعد مراسم الزيارة لحرم أمير المؤمنين (عليه السلام)، سار المشيعون بالجثمان الطاهر نحو دار الشيخ الشبيبي التي ولد فيها في النحف الأشرف في أول السوق الكبير مما يلي الميدان في الزقاق الذي سمي فيما بعد بـ«شارع الشبيبي» ودفن إلى جنب والده الشيخ الجواد وأخيه الشيخ محمد باقر الشبيبي، وبقية أفراد الأسرة.

وأقيمت في أغلب مدن العراق الفواتح الضخمة على روح الفقيد وقد تجاوزت المائة، وقد أقيمت فيها مئات القصائد والمحاضرات والبحوث في تأبين الفقيد.

تأبين الشبيبي وأربعينه:

تشكلت لجنة مؤهلة تضم أربعين شخصية عراقية تمثل أطراف الشعب العراقي لإقامة حفل تأبيني مهيب يتناسب مع العمق الوطني الذي يحظى به الشيخ الشبيبي، فكان ذلك، إذ قررت اللجنة إقامة الاحتفال في ذكرى أربعين الشبيبي بجماع براتا ببغداد، فأقيم ذلك الحفل التاريخي الكبير في ٢٠/شوال/١٣٨٥هـ = ١١/شباط/١٩٦٦م. وحضر الحفل أكثر من ثلاثة آلاف عراقي وعربي، إذ عدد الكراسي المصفوفة كان ثلاثة آلاف كرسي، عدا الوقوف ورجال الاستقبال والتشريفات والتوديع، وقد شارك فيه أديباً أعلام الأمة وقادة الفكر وشعراء العراق، وكوكبة من الوطن العربي في طليعتهم عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين رئيس المجمع اللغوي في القاهرة، وممثلون عن المجمع العلمية، وأساتذة

الجامعة العريقة، وكان الشعر العراقي متميزاً في مهرجان التأبين، وشارك فيه إننا عشر شاعراً، وكانت القصائد تتناول جهاد الفقيد في سبيل تكوين الدولة العراقية، ومآثره العلمية والأدبية والتأليفية، وقيادته للشعب العراقي في أحلك الظروف، كما عرضت لمآسي العراق وآلامه في ظل حكم عسكري طائش، وحرابت الإقليمية والطائفية والمحسوبة. وكانت قصيدة كاتب هذه السطور أشدها عنفاً، وأبلغها وقعاً، وأصدقها لهجة ومحاسبة للعهود الحاكمة، وأكثرها تأثيراً في العواطف والأحاسيس.

ونضع بين يدي القارئ قصيدة المؤلف مع مقدمتها كما هي في ديوانه المخطوط، وهي جزء لا يتجزأ من كتابة تاريخ العراق الحديث.

* * *

قصيدة المؤلف في أربعين الشيخ الشيببي

ألقيت في المهرجان التأبيني الأكبر الذي أقيم في «جامع براتا» ببغداد في ٢٠/١٠/١٣٨٥هـ = ١١/٢/١٩٦٦م بمناسبة أربعين فقيد العراق الزعيم الوطني المحبوب العلامة الشيخ محمد رضا الشيببي رئيس المجمع العلمي العراقي.

وقد ضم الاحتفال آلاف الشخصيات السياسية العراقية مضافاً لوفود الدول الإسلامية والعربية والهيئات الدبلوماسية الأجنبية والعربية. وقد كان الاحتفال ميداناً تبارى فيه ألمع الشعراء والأدباء من العراق والبلدان العربية، وقد أثارت القصيدة حماس المحتفلين، وجلبت سخطهم على الحاكمين حتى أنستهم المناسبة فمحوا بالتصفيق والتهاتف. لم تنشر الصحف والمجلات المعنية القصيدة. واعتقل الشاعر على أثرها في مديرية الأمن العامة ببغداد بقرار من رئيس الوزراء الأستاذ عبد الرحمن البراز..

أطلق الشاعر أثر تدخل العناصر السياسية المخلصة، وبعض الضباط الأحرار لثورة تموز، همدأة للهيّاج الجماهيري العاصف ونزولاً عند الإمام الواقع.

فيمّ الوجوم؟ مضى الزعيمُ النيقُدُ
القائد الأجيال لا مترمّتُ
والمستقيم.. إذا تنكبّ رائدُ
والعقبريُّ.. إذ استجدّ تجمّعُ
والمستعير جهاده وجهوده
ذياك نهج الخالدين.. ونهجهم
نهج به سلك الهداة كرامةُ
فإذا همُ جحدوا حقوقك.. أنها
وإذا رزئنا بافتقارك.. إنه
وإذا تجاهله الطغاة.. فخطبُهُ

وعلى يديه من الرسالة مولدُ
عنتاً.. ولا صلف الخطى متردّدُ
والمستفيض إذا تعكّر موردُ
والعسكريُّ.. إذا استعدّ تحشّدُ
لحمى العقيدة.. وهو فدّ مغرّدُ
شرفٌ على هام الزمان مخلدُ
وعليه قد سار النبيّ محمدُ
كالشمس في رآد الضحى لاجتحدُ
شعبٌ يموت.. وأمة بك تفقدُ
جللٌ.. تقومُ له البلاد وتقعُدُ

* * *

الصبرُ بعد «أبي سنان» نافدُ
خلتِ الديار.. وصوحت جنباتها
وتنفست رئة الزمان بنكبة
ومحافل الآداب أتكل ربعها
و«المجمع العلمي» شيع رأسه
ومطافح الشعب الجريح تناثرت
فالشعب بعد «أبي سنان» واجمّ
ولقد يعزّ عليك.. أنك غائبُ

وأرى الحوادث كيدها لاينفدُ
وترنح الوادي.. ويربعض المعهدُ
عظمي.. ويفقد إذ يغيب الفرقدُ
و«عكاظ» قوض سوقه و«المربدُ»
فعدت له أعضاؤه تنتهدُ
وحداها.. ويومه الضاحي.. غدُ
والأفق بعد «أبي سنان» ملبدُ
عنا.. وأن الطائرات همدُ

ولقد يعزّ عليك.. أن قيادة
ولقد يعزّ عليّ.. أنك ميّت
فلبثت.. وأنّ سأم الخمول المقودُ
ترثني.. وأنت الخالد المتجددُ

* * *

شيخ العراق.. لك العراق بشييه
هبّ أنك الرمز الذي لم ينصفوا
جددت عهد المنقذين كرامةً
سبعون عاماً في الجهاد قضيتها
لم تستلن عوداً.. ولم تمدد يداً
حربٌ على مستعمر.. وقذيفة
ولقد يثيرك ما تفاقم رزؤه
سيرت «تذكرة» لمن لا يرعوي
وإذا أهمت بما تقوّل مرحبٌ
لك من عروبتك العريقة محتدٌ
ومن الضمير نزاهة... ومن الحجى
سيقول عنك الجليل بعد مروره

* * *

هزّ النعيّ بك البلاد فأوجفت
أولست أنت لسافها وبنافها
وجوادها السباق وابن «جوادها»
وبحيث تصطك الوعي بمجرّبٍ
من القلوب.. وأرحفت من اليدُ
إما طغي خطب، وسلّ مهندُ
في حين يُتهم خائراً أو يُنجدُ
صلب.. ويصمد للردى من يصمدُ

(١) إشارة للمذكرة التي قدمها الفقيه لرئيس الوزراء الدكتور عبدالرحمن البزاز بتاريخ ١٠/٢٨/١٩٦٥ وقد مثل بها العراقيين في استكار السياسة الطائفية والإقليمية في العراق.

ووقفتَ في الميدان وحدك ثابتاً
 صلداً الجنان.. تلفعتك أرومةٌ
 ما دنت منك السياسة جانباً
 حتى إذا شق الطريق لنفسه
 برز البعيد لها.. وثار غبارُهُ
 وتحلّبت تلك الضروع عصابةً
 فإذا الغريب هو الأصيل قرابةً

* * *

أما الذين تحمّلوا أعباءها
 وتفتحّموا مضمار كل كريمة
 في حين يجتاح الحمى مستعمرٌ
 وهم.. وقد حمى الوطيس جماره
 فقد انطوت أمجادهم وقد انجلى
 وتصافحت تلك الأيدي وارتمى
 رأيت نازلة كهذي عندها
 رأيت كيف تدهورت أوضاعنا
 سبحانك اللهم.. تخلق للأبنا
 الآن إذ وجه الحقيقة مشرقٌ
 يا للفظاعة أي لغز مبهمٌ
 «ولقد تكونت سياسة مقصودةً
 والدهر يبرق بالخطوب ويرعدُ^(١)
 وتجنبوا زلل السرى فاستشهدوا
 وبحيث يستام الحصى مستعبدٌ
 وهم.. وقد سر اللعيب الموقدُ
 سرّ ترصدهُ بغيب موعدُ
 الجبل الأشم إذ استطال الفدْفدُ
 يسبي المفدّ.. ويستتابُ المقعدُ
 وطغى بمحنته الزمانُ الأنكدُ
 مهجاً.. ويبلغُ أمره المتصيدُ
 يبدو على القسمات وجه أربدُ
 هذا الذي نغماته تتردّدُ
 (فرّق تسد) إن المفرّق سيدُ»^(٢)

(١) المورد عرض موضوعي لما تعرض له الثوار العراقيون من أبطال ثورة العشرين وما بعدها من صنوف الاضطهاد واحتجان الحكم دونهم، وتسليم الإنكليز السلطة لأولئك العملاء الذي سايروهم سرّاً وعلناً.
 (٢) البيت لسيدي الوالد الشيخ علي الصغير رحمه الله.

ووقفت حيث تسعرت أنفاسنا
 أترصد العهد الجديد.. ومخني
 وإذا الحديث كأسه مترئبٌ
 طوراً يهدد بالجموع.. وتارةً
 وإذا به «الحاحام» ثم إذا به
 هو من خربت بلاءه ووباءه
 هو من عرفت بأن ألف مبراً
 هو من مشى بميوله متأرجحاً
 هو ذلك الذئب المغير إذا خلا
 طوراً إلى أقصى اليمين وتارةً
 فحذار يا هذي الصقور.. فإنما
 وإذا جهرتُ بها.. فلإني واثقٌ
 سيقول عهد مقبل عن حاضرٍ

* * *

ولقد سئمتها عهداً كلما
 وطن يضام.. وأمة مما بها
 حكمت تقوس ضلعها المتأود^(٢)
 ثكلي.. وشعبٌ واجم مستعبدٌ

(١) في المورد مقارنة دقيقة بين أدوار الحكم العراقي، وتصوير واقعي لشخصية السياسيين العراقيين في التقلب والأهواء.. وتحذير للشعب العراقي من الخدع السياسية التي تطفئ على مناخ السياسة في العراق.

(٢) المورد يتحدث عن حالة القطر العراقي في تعاقب الحكومات الجائرة عليه، فالجنوب يتمزق، والشمال يتمرد!! والقتال قائم بينهما، فكلاهما أعداء الحكم في نظره، وكان مروان بن الحكم في حرب الجمل يرمي معسكر علي(ع) بسهم، ومعسكر عائشة بسهم، ويقول: أينما أصابت فتح. وينعى الشاعر على الطائفية ومفاهيم الجاهلية ومآسي الاقتصاد ومهازل الاستيراد، ويدعو إلى الانتخابات البرلمانية المعطلة وفي نهاية المورد ضج الحفل بالتصفيق المدوي بما قاله أحد الحاضرين «نحن في مهرجان وطني لا نحفل تابيني».

وبنوه عن أريافهم قد شرّدوا
 فإذا الجواب: عصابةٌ تتمرّد
 هذا بهذا.. والعدو موحدٌ
 فلأنت سهم طائشٌ متعمدٌ
 هذا بمطرّح.. وذاك مصفدٌ
 أما المروءة فهي باب موصدٌ
 والمسلمون بغربة قد بعّدوا
 سوق يبور.. وثروة تبتدُ
 طاو.. وأن مرفهاً يستوردُ
 قلمُ الأديب.. وفكره المتجردُ
 حكماً بمجلس أمةٍ يتقيّدُ

* * *

أن النضال مشاعلٌ تنوقدُ
 فرقاً.. ولا النورُ المشعشعُ يحمّدُ
 رمزٌ تحرّ له.. وآنا نسجدُ
 ماءً على مستنقع يتأكسدُ
 مُهجّ تدوب.. وأدمع لا تجمدُ
 لا خصبه.. لا زيته.. لا العسجدُ
 هذا الغمام المستفيض المرفدُ
 وقضى على «الإصلاح» فيه المفسدُ
 حقّقاً.. وثار الألعى الأوجدُ
 تشكو.. وترتقب الخلاص وتشدُ

أما «الجنوب» فقد تمزّق شمله
 وإذا سألت عن «الشمال» ووضعه
 أما «القتال» ففرضه مترجّح
 يا «سهم مروان» عليك تحيي
 ماذا يراد بنا وأين مصيرنا
 و«الطائفية» فتحت أبوابها
 و«الجاهلية» قرّبت أبناءها
 وإذا نظرت «الاقتصاد» فإنه
 ومهازل «استيرادنا» أن الملا
 وهناك ما لا يستطيع بيانهُ
 ومتى تحلّ مشاكل إن لم تجد

يا فتية الوطن المفدى حسبكم
 لا الموت يرقاها.. ولا هي تثني
 لا السجن يرهبها لأن شموخها
 أيسركم؟ أنا نعيش كما ارتمى
 أيسركم؟ أن العراق وأهله
 لا أرضه.. وهي الجنان بأرضه
 لا الرافدين برافديه.. ولا له
 لعب «الدعي» به زماناً طائلاً
 فإذا انتقدت.. تضخمت أوداجهم
 وإذا سكّت.. يلبث فيها أمة

أبدأ عليك.. فأنت أنت المكمّد
آلامه في مهجتي تتولد
ومني عمل من الرقاد الرقّد
في مأمم.. وترى الغراب يغرّد
الأوضاع.. وهو الناقم المترصد

وإذا نطقت.. رأيت غيرك غاضباً
«هذا الثلاثي» الذي لمّا نزل
فمتى تصح عزيمة وشكيمة
ومن البلية أن تشاهد بلبلاً
لم يبق إلاّ الله... وهو مغير

* * *

سئل الرجاء.. فأين أين المنجد؟
بالنازلات.. وكل قلب مجهد
والمجد قصر شوطه والسودد
وبدا من الظلمات غول أدرر
وبكل فصل للفجائع مشهد
سنن.. وشام العبقريّة أبلد
يغفو لها طرف، وأخر يرقد
تلك الملدّات التي لا تنفد
عدلاً.. تضجّر سيدّ ومسود
نادى الكتاب بها.. وردّ أحمد
حول الفرات.. متى يحين الموعد؟
هل في الرميثة ثورة تتجدد
في القلب.. فهو على الأسى يتورد
محمد حسين علي الصغير

يا شعب.. قد عمّ البلاء وقطعت
وآل الزمان.. فكل فكر مثقل
والوعي بين أصالة وعمالة
هبت على الآفاق ريح مرة
فيكل حي للفظائع منظر
فالحمد للتاريخ حين تبدلت
هاتيك من آثارنا أسطورة
فإذا اشتكيت إلى الشيوخ فهمهم
وإذا طلبت من الذين تزعموا
لم يبق إلاّ السيف.. وهو رسالة
فسل «الفرات» عن الضحايا جمّة
وسل «الرميثة» عن بقايا ثورة
سبحانك اللهم.. تحتضن الرجا

* * *

فهرست الكتاب

الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة
١١	السيد محمد سعيد الحبوبي... قائداً
١١	١- المولد والنسب والنشأة
١٢	٢- الحبوبي.. شاعراً
١٤	٣- نموذج من موشحاته
٢٩	٤- دراسته وأساتذته
٣١	٦- الحبوبي والإحساس الوطني
٣٤	٧- الحبوبي في جهاد الإنكليز
٤٠	٨- السيد الحبوبي في جبهة القتال
٤٥	٩- رثاء الحبوبي وتأبينه
٤٦	١٠- قصيدة الشيبلي في رثاء الحبوبي
	* * *
٥١	الشيخ محمد الحسين الغروي النائبي.. رائداً
٥١	١- التعريف به ومصادر دراسته
٥٢	٢- نشأة الشيخ النائبي العلمية وأساتذته
٥٦	٣- مرجعيته المباركة
٥٧	٤- ظواهر السلوك في شخصية النائبي
٥٨	٥- تلامذة المرزا النائبي
٦٣	٦- نموذج من فتاوى المرزا النائبي
٦٧	٧- مبتكرات الشيخ النائبي في علم الأصول
٧٦	٨- حياة الشيخ النائبي السياسية

٨٤	٩- وفاته وتأبينه ومدفنه
٨٦	١٠- قصيدة الأستاذ يعقوبي في رثاء النائبي
٨٨	١١- قصيدة الشيخ علي الصغير في تأبين النائبي
	* * *
٩٣	الشيخ محمد جواد البلاغي... مُنظراً
٩٣	١- الشهرة والنسب
٩٣	٢- نشأته العلمية وأساتيده
٩٦	٣- خَلْقُهُ وَخُلُقُهُ
٩٦	٤- السيرة العطرة
٩٩	٥- النضال العلمي في مسيرة الشيخ البلاغي
١٠٢	٦- مؤلفات الشيخ البلاغي وآثاره
١٠٦	٧- البلاغي في شاعريته الفذة
١٠٧	٨- قصيدة البلاغي في صاحب الأمر
١١٣	٩- وفاته ومدفنه
١١٧	الشيخ عبد الكريم الجزائري.. مجاهداً
١١٧	١- الولادة والنسب
١١٧	٢- أسرة آل الجزائري
١١٨	٣- أساتيده وحياته العلمية
١٢٢	٤- مميزاته وخصائصه
١٢٥	٥- العلامة الجزائري في جهاد الوطني
١٣٤	٦- شاعرية العلامة الجزائري وشعره
١٣٥	٧- نموذج من موشحاته
١٣٧	٨- نماذج من شعره
١٤٠	٩- وفاة العلامة الجزائري وتأبينه
١٤١	١٠- قصيدة المؤلف

١٤٧ السيد حسين الموسوي الحمّامي... حوزوياً
١٤٧ ١- النسب والولادة
١٤٧ ٢- نشأته العلمية
١٤٩ ٣- أساتذته وشيوخه
١٥٠ ٤- خصائص السيد الحمّامي ومميزاته
١٥٢ ٥- السيد الحمّامي في نحات من مسيرته العلمية
١٥٤ ٦- مرجعيته الدينية
١٥٧ ٧- تلامذة السيد الحمّامي
١٦٠ ٨- مؤلفات السيد الحمّامي
١٦١ ٩- وفاة السيد الحمّامي وتأبينه
١٦٣ ١٠- قصيدة الأستاذ أحمد الصافي النجفي في تأبينه
١٦٣ ١١- قصيدة الشيخ عبد المهدي مطر في رثائه
١٦٤ ١٢- قصيدة المؤلف في رثاء الإمام الحمّامي
١٧٣ السيد عبد الله الموسوي الشيرازي... جريئاً
١٧٣ ١- النشأة الأولى
١٧٤ ٢- الهجرة إلى النجف الأشرف
١٧٥ ٣- أساتذته وشيوخه في النجف الأشرف
١٧٦ ٤- العودة إلى بلاده
١٧٧ ٥- الرجوع ثانية إلى النجف الأشرف
١٧٩ ٦- خصائص السيد الشيرازي المتميزة
١٨١ ٧- الجهاد الديني والنضال السياسي
١٨٢ ٨- مواقف حاسمة
٢٠٣ ٩- مشاريع السيد الشيرازي
٢٠٥ ١٠- هجرة السيد الشيرازي إلى مشهد المقدسة
٢٠٧ ١١- مؤلفات السيد الشيرازي
٢٠٨ ١٢- وفاة السيد الشيرازي

٢١١ السيد محمد الحسيني الشيرازي... موضوعياً
٢١١ ١- الاسم والولادة
٢١١ ٢- تمهيد منهجي
٢١٣ ٣- النشأة المثالية
٢١٤ ٤- خصائص السيد الشيرازي الذاتية
٢١٦ ٥- عقبات في طريق القيادة
٢١٨ ٦- الخطوات الحضارية في مرجعية السيد الشيرازي
٢٢٠ ٧- الظواهر الثقافية في مرجعية السيد الشيرازي
٢٢٤ ٨- النضال السياسي للسيد الشيرازي
٢٢٨ ٩- هجرة السيد الشيرازي إلى الكويت
٢٣٠ ١٠- هجرة السيد الشيرازي إلى قم المقدسة
٢٣٦ ١١- مؤلفات السيد الشيرازي
٢٤٠ ١٢- وفاة السيد الشيرازي
٢٤٠ ١٣- تشييع السيد الشيرازي
٢٤١ ١٤- تأبين السيد الشيرازي

* * *

٢٤٥ الشيخ محمد رضا الشيبلي... وطنياً
٢٤٥ ١- الولادة والنشأة الحوزوية
٢٤٦ ٢- الشيبلي... وطنياً في شعره:
٢٤٨ آ- رثاء الشهداء
٢٤٩ ب- الشرق الناهض
٢٥١ ج- رجال الغد
٢٥٣ د- باطل الحمد ومكذوب الثنا
٢٥٤ ٣- الشيبلي بين الأتراك والإنكليز
٢٥٦ ٤- ثورة على الأتراك
٢٦٠ ٥- الجهاد ضد الإنكليز ينطلق من النجف الأشرف

٢٦٤	٦- يوم الشعبية
٢٦٧	٧- ثورة النجف على الإنكليز كما يصورها الشبيبي
٢٦٧	٨- الشبيبي وثورة العشرين
٢٧٤	آ- محاور الثورة
٢٧٦	ب- النجف يطالب بإنشاء حكومة عربية في العراق
٢٧٧	ج- مبادئ ولسن وموقف الشبيبي منها
٢٧٨	د- مكتب القيادة السياسية للثورة برئاسة الشبيبي
٢٧٩	هـ- سفر الشبيبي إلى الحجاز لمفاتيح الشريف حسين بالأمر
٢٨٠	و- الهدف من حمل الشبيبي وناثق الثوار إلى الشريف حسين
٢٨٣	ز- فتوى الإمام الشرازي بالدفاع عن بيضة الإسلام
٢٨٤	ح- نتائج الثورة
٢٨٦	٩- الشبيبي في العهد الملكي:
٢٨٧	آ- الشبيبي يستوزر للمعارف خمس مرات
٢٨٨	ب- الشبيبي ينتخب رئيساً لمجلس النواب، ورئيساً لمجلس الأعيان
٢٨٩	ج- الشبيبي في صفوف المعارضة
٢٩٤	١٠- الشبيبي في العهد الجمهوري
٢٩٥	آ- الشبيبي رئيساً للمجمع العلمي
٢٩٥	ب- الشبيبي يتفرغ للحياة العلمية
٢٩٧	١١- مذكرة الشبيبي لرئيس الوزراء الدكتور البزاز
٣٠٣	١٢- الشبيبي وافتتاح مؤتمر المجامع العلمية في بغداد
٣٠٥	١٣- وفاة الشبيبي وتشيعه ومدفنه
٣٠٧	١٤- تأبين الشبيبي وأربعينه
٣٠٨	١٥- قصيدة المؤلف في أربعين الشيخ الشبيبي
٣١٥	فهرست الكتاب

قادة الفكر الديني والسياسي
في الخليج الأثري